

كشف المستور (قصة واقعية لعملية CIA)

بقلم
ليندسى موران

ترجمة
خالد سيد كسروى

كشف المستور

(قصة واقعية لعملية CIA)

الكتاب: كشف المستور

المؤلف: ليندسى موران

ترجمة : خالد سيد كسروى

الناشر : غراس

الطبعة : الأولى

غلاف عبد الرحمن مجدي

رقم الإيداع: 2008/14187

عدد الصفحات: 280



360 ش الأهرام - الهرم - الجيزة

تليفاكس: 0235830768 موبايل: 0106300026 - 0164903183

Kawy2007@yahoo&hotmail

ويحذر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة
تنفيذ للكتاب - كاملا أو مجزءا - أو
تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله
على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات
ضوئية إلا بموافقة الناشر الخطية موثقا.

صفحة فارغة

تتباهى الولايات المتحدة الأمريكية بذلك العملاق الذي

يسمى بوكالة الاستخبارات المركزية CIA وترهب

العالم بقوته وكفاءته وإمكانياته المادية والبشرية

بالإضافة إلى تغلغه بكافة الدول والمؤسسات.

واستمرت تلك الأسطورة التي دعمتها هوليوود بأفلامها تخدع

البسطاء داخل أمريكا وخارجها حتى وقعت أحداث الحادي عشر

من سبتمبر فاكشف الجميع أن هذا العملاق هو مجرد أسطورة

على حد وصف الكاتبة. وكانت ليندسي موران من بين الملايين

الذين انبهروا بالصورة المبهرة التي نشرتها وسائل الإعلام

للاستخبارات الأمريكية، وظلت منذ نعومة أظفارها تحلم

بالالتحاق بتلك المؤسسة الجبارة.

وعندما أنهت ليندسي تعليمها الجامعي وأرسلت طلب التحاقها

لوكالة الاستخبارات المركزية بدأت تتشكك منذ اللحظة الأولى

لإجراء اختبارات الالتحاق في خطأ التصورات التي ترسخت

في أذهاننا جميعًا عن هذه المؤسسة الاستخباراتية، وبعد أن قبل

طلب التحاق الكاتبة بالمخابرات وبدأت تتلقى تدريباتها على

مهارات التجسس بالمزرعة مع زملائها تحولت شكوكها إلى

كشف المستور

يقين. وتنتقل لنا الكاتبة طبيعة التدريبات التي يتلقاها الضباط الميدانيين بالإضافة إلى طبائع شخصياتهم وطريقة تفكيرهم من خلال احتكاكها بهم أثناء فترة التدريب، ثم تنتقل بنا الكاتبة إلى العالم الميداني حيث عملت كضابط ميداني بدول البلقان لتنتقل لنا صورة حية عن طبيعة عمل الاستخبارات الأمريكية بهذه المنطقة في فترة الاضطرابات التي حلت بها منذ أزمة البوسنة والهرسك وحتى أزمة الألبان والمقدونيين وكيف تعاملت الحكومة الأمريكية مع هذه الأزمات وسياسة الولايات المتحدة بهذه المنطقة من العالم بالإضافة إلى طبائع شعوب منطقة البلقان. وخلال سرد الكاتبة لبعض مهامها التي كانت تقوم بها في منطقة البلقان في الفترة من أوائل 2001 إلى أواخر 2002 تذكر لنا كيف تمكن العديد من البسطاء من ابتزاز أموال الوكالة بمنتهى البساطة. وانتقلت الكاتبة لتتناول أحداث الحادي عشر من سبتمبر وكيفية تعامل الوكالة معها وكيف استثمرت الإدارة الأمريكية هذه الأحداث لتحل دول العالم الإسلامي. وزاد استياء الكاتبة من الوكالة بعد تكليف جورج بوش لها بتفريق أدلة لتبرير شن الحرب على العراق. وقررت الكاتبة في النهاية أن تترك العمل بوكالة الاستخبارات المركزية وتتفرغ للكتابة لتخرج لنا هذا الكتاب الذي يقلب الكثير

كشف المستور

من المفاهيم ويكشف العديد من الأسرار ويوضح لنا الكثير من
الحقائق التي كانت غائبة عنا.

خالد كسروي

كشف المستور

الكاتبة في سطور :

ليندسي موران هي كاتبة تنشر مقالاتها بالعديد من الصحف مثل نيويورك تايمز والواشنطن بوست ويو إس إيه توداي، وعملت كضابط ميداني بوكالة الاستخبارات المركزية في الفترة من 1998 إلى 2003 وتعيش حالياً بواشنطن العاصمة.

ملاحظات هامة :

- تمت مراجعة مادة هذا الكتاب والموافقة على نشرها من قبل وكالة الاستخبارات المركزية CIA، ولا تعني هذه الموافقة تصديق الوكالة على صحة ما ورد بالكتاب من معلومات، ولا موافقتها على ما تضمنه من آراء.
- تم تغيير أسماء بعض الشخصيات من قبل الكاتبة حفاظاً على سريتها.

إهداء

إلى كل الرجال والنساء العاملين بوكالة الاستخبارات
المركزية CIA الذين يناضلون من أجل التميز وخدمة بلادنا
على الرغم من كافة العوائق الموضوعة بطريقهم.

كشف المستور

الفصل الأول

جلست بمعمل تحاليل طبية داخل وكالة الاستخبارات المركزية أنتظر إجراء بعض التحاليل الطبية وأحسست بالقشعريرة تجري في جسدي بسبب الحوائط البيضاء التي تحيط بي من كل جانب، وشعرت ببعض الإهانة عندما خطر ببالي احتمالية تعرضي لفحص طبي للتأكد من عدم تعاطي المخدرات إلا أنني كنت أرغب بشدة في الحصول على هذه الوظيفة مما جعلني مستعدة للقيام بأي شيء.

وكنت قد فرغت للتو من اختبار السمع بغرفة عازلة للصوت رفعت فيها يدي كلما سمعت صوت صيحة، وتطلب مني هذا أن أثبت خلال الأيام القليلة القادمة – ضمن الأشياء التي يجب على إثباتها – أنني لست صماء، وأثناء قيامي باختبار السمع والبصر أحسست بفخر متنامي جعلني أشعر أنني أحد رواد الفضاء وأني أمتلك " المهارات الحقيقية "، بينما جعلني اختبار فحص المخدرات أشعر وكأنني كائن منبوذ..

وتذكرت الحوار الذي دار بيني وبين صديقي عندما علم بوجودي قيامي بعدد من الاختبارات لمدة أسبوع فاندesh بشدة وقال : لماذا ترغبين في العمل في مؤسسة لا تثق فيك من البداية ؟ قلت : فحص المخدرات معتاد في عدد من الوظائف.

كشف المستور

قال : نعم، فحص المخدرات وليس الجلوس أمام جهاز كشف الكذب! قال هذا تلميحًا لاختبار كشف الكذب الذي سأجربه في الأيام التالية. وقطع على حبل أفكاره دخول ممرضة كئيبة المنظر عينها أشبه بعيون الموتى وهي تحمل في يدها كوب من البلاستيك على جانبه مؤشر متدرج حتى المنتصف فأعطتني الكوب. ثم قالت : تأكدي من ملأ الكوب بقدر كافي من البول حتى يصل للإشارة الموضحة على الجانب. فأخذت الكوب وذهبت إلى دورة المياه وعيناي تدوران بالحجرة الضيقة وتشككت في أن تكون المرايا مزدوجة، وتساءلت : " إذا كانت المرايا طبيعية فأين يا ترى الكاميرات المخبأة ؟ " وجلست على المرحاض وأمسكت الكوب بيدي وعاد عقلي خمس سنوات إلى الوراء لأتذكر كيف وصلت إلى هن

ألقيت خطاب تخرج دفعتي منذ خمس سنوات وختمت كلمتي بقول : وأملّي أن يؤثر كل منا في مجتمع ما، ولن نحقق هذا بأن نضع على عاتقنا عبء تحقيق آماني الآخرين ؛ بل سنحقق هذا بالحفاظ على إيماننا بأنفسنا قبل كل شيء. وأرسلت طلب التحاقى بوكالة الاستخبارات المركزية في اليوم التالي لإلقائي هذا الخطاب، وكانت هذه هي رؤيتي الشخصية للالتزام في الواحدة والعشرين من عمري.

ولم يتوقع أبي — الذي قضى حياته كلها بوزارة الدفاع — أن يتم قبولي، وكان يصر على قول " أنت لست من النوعية التي يبحثون عنها. إنهم لا يبحثون إلا عن الشباب الذي يمثل أندية الجمهوريين". وربما كان إصرار أبي هو الدافع لي على أن أفكر في وكالة الاستخبارات المركزية في المقام الأول لكي أثبت له خطاه بالإضافة إلى رغبتني الدائمة في أن أصبح عميلة استخبارات وإحساسي بأني قضيت حياتي كلها في إعداد نفسي لهذا الدور فقد كانت كتبي المفضلة في مرحلة الطفولة والتي اعتدت قراءتها مرارًا وتكرارًا هي تلك المتعلقة بالجاسوسية، وعندما كنت أحتجز بغرفتي عقابًا على سوء سلوكي كنت أستغل هذه الفرصة لمراقبة حركة أبواب جيراننا والتواصل مع أعز صديقاتي — التي كان بيتها يبعد عن بيتنا بمنزليين — باستخدام الإشارات الضوئية، كما اعتدت أن أفتح علب هدايا الكريسماس قبل الحفل وأغلقها ثانية دون أن يعرف أحد، ولم أجد أي مشكلة في الكذب خصوصًا على والدي.

وأثناء طفولتي واجهني أبي ذات مرة مع أخي ليسألنا أي منا هو الذي شوه حوائط غرفة المعيشة بأقلام الألوان فلم يعترف أي منا فقال أبي بعد أن يأس : أعرف أنك أنت التي فعلت هذا يا لندسي.

كشف المستور

قلت : أنا ؟ !

وبكيت وانتحبت من شدة الإحساس بالجرح الذي سببه لي اتهامه

وقلت : كيف تعرف أنني أنا الفاعلة ؟

فقال أبي في هدوء : لأن أخاك قبل كل شيء لا يرسم على

الحوائط بالإضافة إلى أنه لا يكذب.

فلم أقدر على جداله فقد كنت حقاً مخربة وظللت على حالي هذا

طوال فترة المراهقة وكان أقل المشاكل التي أقوم بها هو

تحريض زملائي على الهرب من المدرسة واختلاق الأعذار

والتسلل من المنزل والاستيلاء على أشياء أخي من خزانته

الخاصة. وطوال فترة دراستي في الأدب الليبرالي وبعد أن أنهيت

دراستي الأكاديمية نصحني الجميع بأن أصبح كاتبة أو محامية

أو أن أشتغل بالسياسة إلا أنني دائماً ما كنت أقول في نفسي.. ..

.. ما أريده حقاً هو أن أكون جاسوسة. وانبهرت بكل ما يتعلق

بالجاسوسية فالتهمت روايات الجاسوسية ومذكرات عملاء وكالة

الاستخبارات المركزية واستمتعت بأفلام جيمس بوند التي كنت

أشاهدها بسينما بوسطن الشعبية، ولم أكن بلهاء لأظن أن حياة

الجاسوسية هي بالكامل كما يصورها سحر أفلام هوليوود لكني

كنت متأكدة من أنني سأكون عميلة استخبارات ممتازة. وأحسست

أن عشقي لهذا المجال ليس وليد الصدفة بل هو ميراث عائلي

وذلك لأن أبي كان يقول دائماً: إنه يعمل بالمختبر واقتتعت أنه جاسوس بسبب عدم تحدّثه عن أسرار عمله بالإضافة إلى سفره المتكرر وعودته للمنزل وخروجه منه في أوقات متأخرة. واعتدت مرافقته في بعض السفريات المتعلقة بعمله وأن أبقى متيقظة لملاحظة أي متتبعين محتملين، أو أن أحزم أمتعتي بطريقة مميزة لأكتشف ما إذا قام شخص ما بالعبث فيها، وحتى بعد أن تأكدت من أن أبي لم يكن يعمل تحت غطاء وأنه فعلاً مهندس بحري كما كان يقول، ظلت شكوكي حول أبيه — جدي بومبا مستمرة. عاش جدي بومبا بكل بلدان العالم لأنه كان مهندس بالجيش الأمريكي، وحدث أن قامت انقلابات غير متوقعة في كل البلدان التي عاش فيها، ومات جدي بومبا قبل أن تواتيني فرصة لسؤاله إلا أن شيئاً في أعماقي ظل يقنعني بأنني قد أجد الحقيقة لو أنني دخلت وكالة الاستخبارات المركزية كما سأتمكن من القيام بالمغامرات السرية المثيرة. تمكنت من أن أثبت لأبي خطأ وجهة نظره عندما أتاني خطاب من وكالة الاستخبارات المركزية لإجراء مقابلة بواشنطن العاصمة بعد شهر من إرسالني طلب الالتحاق. وغادرت بوسطن بالقطار في نهاية الصيف الطويل الحار لأنضم لحوالي عشرين رجلاً وامرأة تجمعوا في غرفة طعام بأحد الحانات، وكان مظهر

كشفت المستور

ممثلي وكالة الاستخبارات الأمريكية الذين قابلونا مخيبًا للآمال إلى حد ما ؛ فقد كانت المرأة في خريف عمرها ترتدي ملابس زرية وحذاء أجرب ونظارة سمكة وكان الرجل أصلع ممثلي البطن كئيب المظهر. وأوضح لنا ممثلي الاستخبارات أن وكالة الاستخبارات الأمريكية لها أربعة أقسام رئيسية فبالإضافة إلى إدارة العلوم والتكنولوجيا والإدارة العامة، إدارتان أخريان أمل ممثلي الوكالة أن ننبر بهم وهما إدارة الاستخبارات المهمة بتحليل المعلومات، وإدارة العمليات التي وصفها الرجل الأصلع بأنها الإدارة التي تتم بها الأعمال الحقيقية للوكالة.

وأوضح الرجل الأصلع أن داخل إدارة العمليات وظيفتين رئيسيتين هما ضباط التقارير الذين يأخذون التقارير الاستخباراتية ويقدموها للمحللين مع مراعاة حجب مصادر المعلومات، والضباط الميدانيين الذين يجمعون المعلومات الاستخباراتية في المقام الأول، وقال الرجل الأصلع : الضباط الميدانيون هم العملاء الحقيقيون. وعندما خرجت من اجتماع هذا اليوم لم يساورني أدنى شك في أن أصبح ضابطا ميدانيا إن كنت سأعمل بالوكالة لأن إدارة الاستخبارات بدت لي أشبه بمكان يجمع عدد من الموظفين المتبلدين وبدا ضباط التقارير أشبه بالسكرتارية. غادرت واشتظن مثل الآخرين وفي يدي طلب

كشف المستور

اللتحاق من خمسة عشر صفحة أكثر صعوبة من طلبات الالتحاق بجامعة هارفارد التي ملأتها منذ أربع سنوات.

وجدت لنفسى مقعدًا في القطار العائد لبوسطن فجلست فيه القرفصاء وأخذت أقلب في صفحات طلب الالتحاق ووجدت فيه بجانب الأسئلة التي تتطلب إجابات تفصيلية وذكر نبذة عن حياة كل فرد بعائلي طلبًا بوضع قائمة تضم كل الأماكن التي عشت فيها وأن أحدد أحد الأشخاص الذي يمكن الرجوع له في كل مكان من هذه الأماكن، وتذكرت الحجرة التي استأجرتها ببوسطن في عطلة العام الدراسي الأول وخفت مما قد يقوله زملاء هذه الأيام عني.

واحتوى الطلب أيضًا على أسئلة تستعلم عن الأنشطة الإجرامية وتناول المخدرات، وكنت على يقين تام من أنني سأعرض لجهاز كشف الكذب قبل الالتحاق فقررت أن أكون أمينة في إجابتي وأن أذكر حقيقة تناولى للمخدرات في مرحلة سابقة من عمري، ورننت في أذني كلمات أبي "إنهم لن يوظفوك أبدًا لأنك تعاطيت الماريجوانا."

وأحسست أن أبي ربما يكون محققًا إلا أن عزميتي التي أصرت على إثبات خطأ تقديراته لم تخور، وبمجرد عودتي للمنزل دخلت غرفتي التي تشاركني فيها زميلتين ويفصل سريرى عنهم

ستارة، فدخلت خلفها وأمسكت بقلم جاف أسود وبدأت أملاً
الطلب، وأخيراً أتاني صوت أحد زميلاتي في السكن من خلف
الستارة يقول : " هل أنت بخير ؟ ماذا تفعلين عندك ؟ "
وتذكرت تعليمات الرجل الأصلع بالأخبار أحداً — باستثناء
أفراد أسرتي — بأنني أقوم بإجراءات الالتحاق بوكالة
الاستخبارات المركزية، فأخفيت الأوراق تحت الوسادة وقلت : "
أنا بخير "، وأحسست أن نبرة صوتي في الرد لم تكن بالصورة
الملائمة فقلت : " أشعر ببعض التشنجات لذلك أتمدد في الفراش
وبعد قرابة الساعتين أنهيت كتابة الطلب ووضعته بدرج مكتبي
لأرسله في اليوم التالي، ونمت في هذه الليلة وشاهدت حلمًا
رأيت فيه أسرتي تجتمع للقيام بنزهة في أحد الحدائق العامة
التي اعتاد أبي وأمي أن يأخذونا إليها ونحن أطفال لنستمع لأداء
بيتر وبول وماري، وكان جداي المتوفيان موجودين معنا في
الحلم يجلسان على بطانية مفروشة على الحشائش والجميع
يضحك بما فيهم أبي وأمي اللذان انفصلا منذ سنوات وأمي
تجمع أطباقاً من الدجاج المحمر وسلطة البطاطس والجميع
يرتدي ملابس فضفاضة كتلك التي اعتدنا عليها، وكان أخي
الأكبر مع فتاة لا أعرفها، لكنها بدت كأنها زوجته. فاقتربت من
هذا الجمع وحاولت أن أحتضن جدتي لكنها لم تعرفني وأعطتني

كشف المستور

ظهرها وجلست تنتظر في الجانب الآخر، فقلت لأبي : أخبر
ميمو أنني أنا.

فقال : من أنت ؟

فصرخت : أنا، ليندسي.

فضحكت أمي وقالت : ليندسي ؟ ! إننا لم نراها منذ سنوات.

وقال جدي بومبا : لا بد وأنت ذهبت لأسرة خطأ.

ثم أشعل جدي غليونته وألقى بعود النقاب خلف ظهره.

وعندما استيقظت أحسست أن هذا الحلم ربما كان دلالة على أنني

سأسير في طريق قد أندم عليه فيما بعد، وربما كانت أسرتي

على حق عندما قالت لي: إن وكالة الاستخبارات المركزية

ليست المكان الملائم لي، وعلى الأقل ليس في هذه الفترة فأنا لا

زلت شابة على الانخراط في مثل هذه الوظيفة الجادة، أو في أي

وظيفة أخرى ولذلك لم أرسل هذا الطلب أبدًا.

وانتقلت إلى كاليفورنيا وعملت نادلة بمقهى وعملت أيضًا

كمساعدة لرجل كان يؤلف كتاب " الدليل الكامل لإعداد العصائر

" ثم التحقت بمدرسة بنيويورك. وبعد أن سئمت من نيويورك

عملت خارج البلاد كمدرسة لغة إنجليزية ببلغاريا التي بدت بلدة

كثيبة إلا أنني اعتدت عليها وأحببتها وترك أهلها أثرًا عميقًا في

قلبي..وبعد أن قضيت عامًا ببلغاريا عدت للولايات المتحدة

والتحقت في نهاية المطاف بوكالة الاستخبارات المركزية. لماذا ؟
لأن الوكالة كانت لي بمثابة حكة بجسدي تستثيرني من آن
لآخر، وكنت أعمل مدرسة بإحدى مدارس سان فرانسيسكو
عندما عادت هذه الحكة تستثيرني، وتذكرت عملي خارج البلاد
واشتقت للعودة إليه كما اشتقت بشدة لبلغاريا وفكرت في طرق
العودة فألحت على عقلي فكرة الالتحاق بالمخابرات وفكرت
بجدية " لماذا لا أقضي مستقبلي في الحياة خارج البلاد ؟ لماذا
لا أعمل في مجال مختلف عن تعليم اللغات الأجنبية وأتعامل مع
ثقافات مختلفة وأقوم بالمغامرات في البلدان البعيدة ؟ لماذا لا
أذهب للوكالة هذه المرة ؟ فأننا الآن أكبر سنًا، وأشعر
بالاستعداد. وعلاوة على هذا فقد بدا لي العمل بالاستخبارات
وسيلة للقيام بواجبي نحو بلدي، وشجعني على هذا التفكير عمل
أخي بالبحرية الأمريكية الذي أجد في مشاعر الوطنية والفداء،
إلا أنني كنت أدرك تمامًا أنني لا أصلح للأعمال العسكرية وكنت
راضية بالتدريس كمهنة نبيلة بلا جدال ترضي رغبتني في
تحقيق واجبي نحو بلادي على الرغم من أنها جعلتني دائمًا قلقة
ولا أشعر بالراحة. وبدأت وكالة الاستخبارات المركزية تبدو
أمامي كحل لكل مشاكلني حيث تحقق لي كلا من التزاماتي تجاه
بلادي ورغباتي الشخصية..

كشف المستور

أرسلت لمؤسسة فولبرايت¹ طلبًا للعودة إلى بلغاريا وأرسلت في نفس الوقت طلب التحاق لوكالة الاستخبارات المركزية وقد أصبح عمري الآن ستة وعشرون عامًا أي أنني صرت أكبر سنًا بخمس سنوات عن المرة الأولى التي أرسلت فيها طلب التحاقي الأول، وتساءلت عما إذا كان لدى وكالة الاستخبارات المركزية ملفًا لي وما إذا كانت ستعطيني فرصة ثانية

واستجابت الوكالة لي بسرعة للمرة الثانية وأرسلت لي خلال شهر استمارة التحاق أخرى ملأتها وأرسلتها، وبعد عدة أسابيع اتصل بي شخص دون أن يعرف نفسه أو المؤسسة التي يمثلها ليخبرني بموعد إجراء مقابلة شخصية في الأسبوع المقبل بنزل " رصيف الصياد " وطلب مني عدم سؤال مكتب الاستقبال والصعود مباشرة إلى الطابق العلوي باستخدام الدرج وليس

¹ مؤسسة فولبرايت هي مؤسسة تابعة للحكومة الأمريكية لها برامج هي من أوسع برامج التبادل الأكاديمي ذات الشهرة الواسعة. ويهدف برنامج فولبرايت، الذي أنشأه السناتور وليام فولبرايت عام 1946، - على حسب زعم المؤسسة - إلى تعزيز أسس السلام من خلال تعزيز التفاهم المتبادل بين شعب الولايات المتحدة وشعوب البلدان الشريكة حول العالم. وتعتبر الوسيلة الرئيسية والأهم التي يوظفها برنامج فولبرايت لتحقيق هذا الهدف هو تبادل محاضرين وطلاب متفوقين من أعلى المستويات الأكاديمية. لكن يلاحظ التدخل الكبير لإسرائيل بصفة خاصة واليهود بصفة عامة في إدارة شئون هذه المؤسسة وصياغة برامجها وهذا غير خافي، فهو معلن وواضح بالموقع الرسمي للمؤسسة على شبكة الإنترنت (المعرب).

المصعد وأن أطرق على الحجرة رقم 219 مرتين، وتعجبت من هذا الأسلوب وفكرت لوهلة في أن المتصل ربما يكون أحد الأشخاص القلائل الذين يعرفون أنني قدمت طلب التحاق لوكالة الاستخبارات المركزية مثل أخي أو صديقي وأن أحدهم يمزح معي. وبعد عدة أيام توجهت للنزل النائي وصعدت للطابق العلوي باستخدام الدرج وطرقت مرتين على الحجرة رقم 219 وأحسست بالسخافة وبيعض القلق لتوقعي إزعاج السائح الذي يقطن هذه الغرفة وبحرج الوقوع في هذا الفخ الذي نصبه لي أحد أقاربي.. وسمعت ردًا من الحجرة على طرقتي وفتح لي رجل أخرج رأسه وأطل من الحجرة يمينًا ويسارًا وأدخلني بسرعة للحجرة رقم 219 وأحسست أن هذا الرجل أكثر ملائمة للعمل بالاستخبارات من الموظف السابق الذي قابلته منذ خمس سنوات فقد كان هذا الرجل على الأقل شابًا وقدم لي نفسه على أن اسمه ديف، وعندما تحرك ديف عبر الحجرة ليصل للمنضدة الصغيرة قرب النافذة المغلقة لاحظت أنه يعرج بصورة خفيفة وكنت متأكدة تمامًا من أنه تعرض لإطلاق نار على قدمه أثناء قيامه بأحد الأعمال البطولية، وبعد عدة أعوام أصبح ديف أحد مدربي و اعترف لي أن هذه الإصابة حدثت له أثناء لعب الكرة مع بعض ضباط مكتب التحقيقات الفيدرالية.. وعندما بدأنا

الحديث فتح ديف التفاز ليغطي على صوتنا وحاولت أن أصرف انتباهي عن الغناء والرقص والألوان غير المتجانسة لأركز على ما يقوله ديف. قال ديف: إنه كان ضابطا ميدانيا ووصف لي بعض الأماكن التي عمل بها وبدأت لي كلها غريبة ومثيرة وكان يتكلم عدداً من اللغات وعاش تقريباً في كل بلدان العالم، وبدأ عليه نوع من الضيق لبقائه لمدة عام داخل البلاد لإجراء المقابلات الشخصية مع المجندين الجدد.

ظل اللقاء مستمراً على وتيرة حسنة وقال لي ديف في النهاية: إنه يرى أنني مرشحة قوية لأكون ضابطاً ميدانياً، وأعتقد أنه تم استدعائي لواشنطن بناءً على توصيته لقضاء أسبوع من الاختبارات وإجراء المزيد من المقابلات الشخصية..

وخرجت من الاجتماع منتشية من شدة الشعور بالإثارة والرغبة في إتمام إجراءات التحاق بوكالة الاستخبارات المركزية على عكس توقعات أسرتي وصديقي فقد كان أبي لا يزال مقتنعاً بأنني لا يمكن أن أوظف بالوكالة بسبب خلفيتي الليبرالية وطريقة حياتي شبه البوهيمية، كما كان أخي مقتنعاً — بناءً على خبرته العسكرية — أن هذه المهنة الذكورية لا تتناسب الطبيعة الأنثوية بالإضافة إلى أنها ستقوض روحي المنطلقة، وكانت أمي قلقة بشدة ومتأكدة من أنني سأذهب إلى مكان كئيب وأعرض نفسي

للقتل فوراً، وظن صديقي أنني أصبت بالجنون وقال لي : ماذا سيحدث لو أنك فكرت في الاستقالة في وقت ما ؟ هل ستركونك ترحلين ؟! وعندما أستعيد هذه الذكريات أعتقد أنهم كانوا خائفين من فقدي أو على الأقل فقد الإنسانية التي كانت في هذا الوقت مرحلة وودودة وتروي النكات وعلى استعداد دائم لمشاركة الآخرين الضحك.

وسألني صديقي : ما فائدة القيام بالمغامرات إن لم يكن بإمكانك الحديث عنها مع أي أحد ؟ وتضافرت معه أمي فقالت : جار صديقتي رودا يعمل بالاستخبارات، وتقسم رودا على أنه أسام شخص رآته في حياتها.

وقال أبي : أمل أن تتوقفي عن تعاطي الماريجوانا. ونطقها أبي كما لو أنني لا يمر على يوم دون تدخين سلطانية من الماريجوانا. وأرسل لي أخي مقالة عن عدد من النساء اللاتي عملن بالاستخبارات الأمريكية وقال : لم تحقق أي منهن شيء في هذا المجال. وحذرني بعد ذلك في حوار هاتفي وقال : هل أنت متأكدة من أن هذا هو ما تريدينه ؟!

وواجهت اهتمامهم الزائد بقولي : إنني لم أعين بعد وربما لا أتمكن أصلاً من اجتياز الاختبارات.

ولجأت لهذا الرد بعد أن أعييتني الحيل الدفاعية على الرغم من

كشف المستور

أن شيئاً في داخلي كان يلح على في أن أجتاز الاختبارات،
وأمدني هذا الإحساس بثقة ذاتية غير متوقعة عندما أُناني طلب
الوكالة بالسفر إلى واشنطن العاصمة لقضاء أسبوع من
الاختبارات. أسكنتني المخابرات بفندق هيلتون في ماكلين
بفرجينيا ووصلني منها خطاب يحذرنى من التحدث مع أي أحد
عن طبيعة عملي ووجوب كتابة تقرير وإرساله في الثامنة من
صباح يوم الإثنين للعنوان. ... الذي لا يبعد كثيراً عن الفندق
وكانت المهمة الأولى هي القيام بعدد من الاختبارات
والفحوصات الطبية بالإضافة إلى فحص تعاطي المخدرات، ولم
أكن قد تعاطيت الماريجوانا بعد المرة الأولى التي تقدمت فيها
للاستخبارات إلا مرة واحدة فقط فكتبت في التقرير فيما يتعلق
بتعاطي المخدرات " مرات قليلة أثناء المرحلة الجامعية "جلست
بمبنى الاستخبارات المركزية في غرفة اجتماعات عارية من
الأثاث مع ثمانية مرشحين آخرين، وقدم لنا عدد من القصاصات
وطلب منا قبل التعرض لجهاز كشف الكذب وفحص تعاطي
المخدرات أن نكتب أي أنشطة إجرامية أو تعاطي للمخدرات لم
نذكره في التقرير، وكنت الوحيدة التي تناولت بسخافة القلم
وكتبت. وبعد الانتهاء من الفحوصات الطبية قمت بالإجابة على
عدد من الاختبارات ذات الإجابات الاختيارية، وكان أحد هذه

كشف المستور

الاختبارات المملة أكثر من ألفي سؤال، وتضمنت الاختبارات أيضًا أسئلة غريبة تتطلب إجابتها الصواب والخطأ مثل : " أفضل أن أكون بائع زهور على أن أكون محاربًا " و " نادرًا ما أحب تعذيب الحيوانات الضعيفة " .

وظللت معتقدة أنني أسير في اختباراتي على ما يرام حتى قابلت في اليوم التالي أحد أطباء الوكالة النفسيين الذي كان رجلًا عجوزًا يرتدي معطفًا طبيًا أبيض وتتدلى من على أنفه نظارة من طراز الخمسينات وكنت متأكدة من مظهره أنه يعمل بالوكالة منذ نشأتها وأن المبنى تجدد عدة مرات من حوله هو ومكتبه البالي، فاكتأبت إلا أنني كنت متأكدة من أنني أجلس مع طراز عتيق من الأطباء النفسيين فحرصت على أن أسعده أو على الأقل أثبت له أنني عاقلة تمامًا.

بدأ الطبيب حديثه بأن أخبرني أنني أحرزت أعلى الدرجات مقارنة بباقي المرشحين فيما يتعلق باختبارات الذكاء الرياضي واللفظي، فأحسست بإشراقة أمل وبفخر. ثم انتقل للحديث عن الجانب النفسي من التقييم وقال : هناك بعض النتائج المقلقة باختبار الصحة النفسية الذي أجريته.

واندهشت لهذه الملحوظة فقد كنت معتادة على تخطي كافة اختبارات الذكاء والاختبارات النفسية بكفاءة عالية.

كشف المستور

وقال الطبيب وهو يفرق بلسانه في استهجان : هناك بعض النتائج المقلقة بشدة.

وتوقفت أنفاسي وأحسست أنني سأخرج من سباق الحصول على هذه الوظيفة، واستمر الطبيب في حديثه فقال : لقد وضعت على سبيل المثال علامة خطأ أمام عبارة " لم أرغب أبدًا في أن أكون من الجنس الآخر." قلت : حسنًا، خطر على ذهني في بعض الأوقات أنه سيكون أمرًا لطيفًا — أعني أن الحياة ستكون أيسر — لو أنني كنت رجلًا. واستمر الرجل يحدق في دون أن يظهر عليه أي رد فعل فقلت مازحة : أفضل أن أتقاضى دولارا كالرجال على أن أتقاضى ستين سنتًا.

وأحسست أن هذا الرجل العجوز يقوض شيئًا بحياتي، ثم أكمل حديثه فقال : وضعت علامة خطأ أمام عبارة أخرى وهي " لم أشارك أبدًا في أي ممارسات جنسية غير طبيعية." فاحمر وجهي خجلًا وقلت في تلثم : حسنًا، أعتقد. .. أعتقد أن هذا يتوقف على ما تعنيه بكلمة " غير طبيعية.

فانحنى العجوز نحوي وقال : بل أنا شغوف لمعرفة ما الذي فهمتيه من كلمة " غير طبيعية " عندما وضعت علامة خطأ أمام هذه العبارة. غضبت من نفسي بشدة لتركي هذا العجوز يتغلب علي وقلت : حسنًا ربما كنت مخطئة فقد كنت أظن السؤال

كشف المستور

يقصد شيئاً خلاف الأوضاع الجنسية المختلفة.

وتلى هذا فترة صمت معذبة وظل العجوز يحملق في بتركيز فقطعت الصمت قائلة : أعني أنه لو كانت الأوضاع الجنسية المختلفة تعد غير طبيعية لكنت أوضحت أنني قمت بممارسات جنسية غير طبيعية. .. لكنني... .

قاطعني قائلاً : أي نوع من الممارسات ؟

فانزعجت من السؤال وفكرت في أن أقوم وأهجم عليه إلا أنني تماكنت أعصابي ولم أدع شخصاً كهذا يرعبني وقلت : أعني أي شيء مثل. .. مثل. .. الجنس الفموي أو أشياء من هذا القبيل.

وأحسست بالرجل العجوز في هذه اللحظة يتوغل في أعماق حياتي الشخصية، وأخيراً قال : نعم، ينبغي أن أصنف هذا على أنه ممارسة غير طبيعية. .. بل هو انحراف، فمن الواضح أنك قمت ببعض الممارسات الجنسية المنحرفة وسأثبت هذا بتقرير

تقييمك. وذهلت بشدة وملأني الغضب ولم أجرو على البوح بالأفكار التي ملأت عقلي " هل يظنني حقاً منحرفة جنسياً أم أنه يقول هذا فقط ليجعلني أرسب في اختبارات القبول ؟"

وانصرف إلى الفندق وأنا مصدومة وارتيمت على فراشي واتصلت بأمي وأخبرتها بما حدث فغضبت بشدة وصرخت في الهاتف : هذا ليس انحراف.

وبعد أن هدأت أنا وأمي اتفقنا على أن الرجل ربما كان منحرفاً
ويسقط هذا على الآخرين. وقبل أن تنهي أُمي المكالمة قالت :
هل أنت واثقة من رغبتك في العمل مع هؤلاء الناس ؟
وأصبحت في هذه اللحظة أكثر رغبة في الالتحاق بهذا العمل
ليس لأثبت لأبي خطاه فقط، بل ولهذا الطبيب النفسي القذر
أيضاً. وقررت ألا أجعل جهاز كشف الكذب — الذي سيفحصني
في اليوم التالي والآخر — ينتزع مني أي اعترافات كما فعل
هذا العجوز. اغتسلت في اليوم التالي وارتديت ملابسني ثم
توجهت لمبنى آخر بشمال فرجينيا للخضوع لجهاز كشف
الكذب. وخرجت من هذه التجربة بقناعة أكيدة أن التعرض
لجهاز كشف الكذب هو أفضل علاج للإمساك فقد قضيت
النصف ساعة السابقة للاختبار في الذهاب والغدو ما بين دورة
المياه وحجرة الانتظار، وسبب لي الاضطراب الشديد إسهالاً
حاداً. وفتح الباب ونادى علينا المختبرون واحداً تلو الآخر
بأسمائنا الأولى ونشأت صداقة حميمة بين المجموعة التي ظلت
مستمرة في السباق المحموم للحصول على تلك الوظيفة
متجاهلين تماماً أننا متنافسون على نفس المهنة، وغمز كل منا
للآخر وتمنى له حظاً طيباً، وتمنيت أن لا يجري لي الاختبار
شخص وسيم في مثل عمري لأنني لم أكن مقتنعة تماماً أنني

يمكن أن أتخطى هذا الاختبار في الساعات القليلة القادمة دون أن أبلل سروالي. وجاء دوري ودخلت حجرة الاختبار فوجدت الذي سيجري لي الاختبار امرأة أمريكية من أصول أفريقية قدمت لي نفسها باسم كيتي، وعرفت بعد ذلك أن كل من تعاملنا معهم كان يستخدم اسما مستعاراً. وبدت كيتي — مثلها مثل باقي القائمين على اختبار كشف الكذب — غير قادرة على تحمل عبء ابتسامة بسيطة وقادتني دون أن تتطرق بكلمة واحدة إلى حجرة بلا نوافذ وأجلستني على كرسي أشبه بالسرير موضوع أمام مكتب خلفه مقعد دوار وجهاز كمبيوتر لم أرى شاشته. وشرحت لي كيتي أن الاختبار سيقس ردود أفعالي الفسيولوجية على الأسئلة التي ستوجه لي وعندما أكذب سيظهر هذا على شاشة الكمبيوتر بالإضافة إلى المرسام الذي يطبع ردود أفعالي. وناولتني كيتي إقراراً أوقع عليه بعلمي أنه لو اكتشف أثناء فحص الكذب قيامي بأي أعمال إجرامية كالقتل أو السطو أو أي جرائم فدرالية أخرى فإن القانون يلزم وكالة الاستخبارات المركزية بتحويل هذه المعلومات لوزارة العدل أو لمكتب التحقيقات الفيدرالية، وكنت متأكدة تماماً من أن الفترة القصيرة التي كنت أسرق فيها الحلوى من المحال التجارية عندما كنت في السابعة من عمري لن تعرضني لعقوبة فدرالية

كشف المستور

فوقعت على الإقرار

وتذكرت قصة حكاها لنا أحد المرشحين ليلة أمس أثناء تناول العشاء عن رجل اعترف أثناء فحصه بجهاز كشف الكذب أنه قتل زوجته ثم أذاب جثتها ووضع بعض أوصالها في أنية خزنها بقبو منزله وأدركت أن أي جريمة اقترفتها ستبدو هباء أمام مثل هذه الجريمة، ووضعت كيتي بعض الجساسات على صدري وبطني وبإصبعين من كلا يدي ولفت جهاز قياس ضغط دم حول ذراعي، وأصبحت أقل توترًا وأكثر فضولًا وأشعر ببعض الإثارة وبدأت كيتي توجه عددا من الأسئلة لم تمثل لي أي تحدي فسيولوجي مثل ؛ هل أنا عضوة بمنظمة إرهابية ؟ وهل قمت بإتلاف أي ممتلكات عامة ؟ وهل أنوي الإجابة بصدق عن كافة الأسئلة أم لا ؟ وهل أعمل بجهاز استخبارات تابع لدولة أجنبية أم لا ؟ بالإضافة إلى البيانات التي نكرتها بالتقارير التي كتبتها من قبل مثل ؛ هل تناولت المخدرات من قبل ؟ وهل ارتكبت أية جرائم ؟ وهل أخفي عن الوكالة معلومات تتعلق بعلاقة مع أجنب ؟ وضايقني السؤال الأخير كثيرًا لارتباطه بمتسلي الجبال البلغاريين الذين أمدت الوكالة بقائمة كاملة بأسمائهم ضمن القوائم التي كتبت فيها بيانات كل أصدقائي الأجانب، وقد تعرفت على أغلب أصدقائي البلغاريين أثناء تسلق الجبال في الفترة التي

كشف المستور

قضيتها ببلادهم، وتساءلت عن حقيقة مشاعرهم تجاهي لو أنهم علموا أنني أبلغت وكالة الاستخبارات المركزية عنهم، وتذكرت أن واجبي يستلزم مني أن أضع نفسي تحت التصرف الكامل لوكالة الاستخبارات المركزية، وأن طبيعة مهنتي تتطلب مني تقديم أسماء الآخرين، وبررت هذا بافتراض أن الوكالة ستتحري عنهم بين قواعد بيانات العملاء الأجانب، واستبعدت أن يعرف أحد أصدقائي هذا الموضوع. وبعد العديد من الأسئلة قالت لي كيتي أننا سنأخذ فترة راحة، واسترحت وأحسست أنني أتقدم في خطواتي بصورة حسنة، وفجأة ظهرت كيتي أمامي وهي تحمل بيدها أوراق ووجهها عابث وصاحت في قائلة : أداوك سيئ. واندعشت للمرة الثانية، وأحسست أنني كلما بدأت أتأقلم مع هذا المجال تظهر لي عقبات جديدة.

قالت كيتي : إنك تخفين شيئاً، وآمل أن تخبريني ما هو ؟ ولماذا تخفينه ؟

قلت : إنني لا أخفي أي شيء ولا أنطق إلا بالحقيقة. فقالت : لو أنك كنت تقولين الحقيقة لما دار هذا الحوار بيننا. ولاحظت في هذه اللحظة أن الأضرار العلوية لقميص كيتي مفتوحة وأن صدرها واضح، وتساءلت هل ينبغي على أن ألفت انتباهها لذلك، أم أن هذا جزء من الاختبار ؟ ! ولم أقل شيئاً

كشف المستور

لكيتي وأشحت ببصري بعيدًا فزاد هذا من شكوكها، وقالت :
لديك مشكلة في إجابة سؤال واحد وأطلب منك أن تحدي لي
هذا السؤال.قلت : ليس عندي أي فكرة عما تتحدثين عنه ؛ أعني
أني كنت أمينة في ذكر ما يتعلق بالمخدرات وربما أكون قد
قللت من عدد المرات التي تناولت فيها الماريجوانا،قلت كيتي
بحدة : ليس الأمر متعلقًا بالمخدرات.

قلت : حقًا لا أعرف ما تقصدينه، لقد ذكرت أسماء كل معارفي
الأجانب.قلت كيتي : أنا أتحدث عن الجرائم، حدث لك رد فعل
أثناء إجابة السؤال المتعلق بالجرائم.
قلت : لا بد وأنتك تمزحين.

وكان سؤال الجريمة كما يلي " هل حدث بعد أن بلغت سن
الثامنة عشر أن قتلت أو سلبت أو سرقت ممتلكات قيمتها أكثر
من 200 دولار ؟ "

فقلت بمنتهى الإصرار : لم أقل إلا الحقيقة:

قلت : ألم تسرقي شيئًا أبدًا ؟

قلت : سرقت حلوى عندما كان عمري سبع سنوات، لكن لم تبلغ
قيمتها 200 دولار.

فقلت : وماذا حدث أثناء عملك كمدرسة ؟ ألم تعتادي سرقة

الورق من ماكينة التصوير ؟

كشف المستور

فازداد غضبي وقلت : طبعًا لا. ربما أكون قد أخذت بعض الورقات من ماكينة التصوير، لكن هذا كان للاستخدام العام بقصد وضعها في غرفة المدرسين. إذا كان هذا ما تقصدينه بكلامك.

فقلت كيّتي: إنها ستتركني لحظات لتناقش هذا مع رؤسائها بينما ينبغي علي في هذه الفترة أن أفكر في الجرائم الأخرى التي ارتكبتها ولم أتحدث عنها، وأن أكتب قائمة بها لو احتجت لذلك. وأدركت في هذه اللحظة أنني أتعامل مع إنسانة مختلفة تمامًا. وبعد أن انصرفت كيّتي تساءلت عما جعلني أزج بنفسي في هذه الفوضى، وماذا سيحدث لو أنهم لم يصدقوني وأحالوني لمكتب التحقيقات الفيدرالية؟ وفكرت في احتمالية قضاء بقية حياتي خلف القضبان عقابًا على جرائم لا أعرفها ولم أرتكبها أبدًا، وتجولت ببصري في أرجاء الغرفة وأنا أتساءل أين ينبغي أن تكون الكاميرات المخبأة، فقد سمعنا أن المكان مزود بكاميرات مراقبة تسمح للمختبرين بمراقبة تصرفاتنا أثناء وجودهم خارج الحجرة. وحاولت أن أبدو هادئة وغير مضطربة.

وعادت كيّتي وقد أغلقت أزرار قميصها وقالت لي: إن رؤسائها مقتنعين أنني أكذب بخصوص شيء ما.

وملأني السخط فقلت : لقد قلت الحقيقة وليس لدى ما أضيفه.

كشف المستور

فجلست كيّتي أمامي والأوراق بأحد يديها وباليّد الأخرى قلم
وقالت : سأعطيك فرصة أخرى لتفصحي عما بصدرك.

قلت : لست أكذب وليس بصدري شيء لأبوح به.

فتتهدت كيّتي وقالت : حسنًا، يمكن أن نعيد الاختبار مرة ثانية
اليوم أو أن تعودني غدًا. وكان لدى رحلة طيران للعودة لسان
فرانسيكو في اليوم التالي وكنت قد جلست على مقعد جهاز
كشف الكذب لأكثر من ساعتين وبدأت أشعر أن هذه القضية
خاسرة فقلت : أنا لا أبالي.

فأجلستني كيّتي مرة ثانية أمام جهاز كشف الكذب وتكررت
الأسئلة ذاتها مرة أخرى، لكنها في هذه المرة سألت عن الجرائم
بين كل سؤال وآخر مما استثارني بشدة وجعلني متأكدة من أن
المرسام الكهربائي يسجل انفعالاتي الزائدة. وأخيرًا قالت لي
كيّتي: أني يمكنني أن أسترخي.

وفحصت كيّتي لفافة طويلة عليها النتائج التي رسمها المرسام ثم
قالت بسرعة : سأعود.

وغادرت كيّتي الغرفة بسرعة، وعندما عادت بدت ملامحها
أكثر جدية وأشدّ عدوانية وقالت : لقد اجتزت الاختبار اليوم،
وشكرًا لوقتك.

ونزعت المجسات من صدري وبطني ثم قادتني إلى ردهة

كشف المستور

طويلة للخروج.

وبعد أن غادرت المبنى لم أشعر بالرضا بل شعرت بالإهانة
والحماقة لقبولي إجراء هذا الاختبار المهين.
وعدت إلى سان فرانسيسكو وأنا مقتنعة أن أدائي في الاختبار
النفسي وعلى جهاز كشف الكذب لا يسمح لي بالعمل
بالاستخبارات على أي حال. وعدت للتدريس وحاولت أن أضع
الأفكار المتعلقة بمجال الجاسوسية الذي فشلت فيه خلف ظهري.
ووجدت ذات يوم بصندوق بريدي رسالة تخبرني بأنني فزت
بمنحة فولبرايت للدراسة ببلغاريا، وبدأت أضع خطط العودة
لأوروبا الشرقية وأنا في قمة السعادة.
وبعد ثلاثة أسابيع تسلمت خطابًا آخر يعرض على العمل
كضابط ميداني بوكالة الاستخبارات المركزية.

* * * * *

الفصل الثاني

أتعرفين ليندسي موران ؟

سألني هذه العبارة رجل أخرج لي من محفظته بطاقة هوية رسمية، فقلت : أنا ليندسي موران.

فقدم لي الرجل نفسه على أن اسمه فرانك وأنه محقق تابع لوزارة الدفاع ثم قال لي : أتمنعين لو أنني طرحت عليك بعض الأسئلة ؟

وأخرج من حقيبته أوراق رسمية وقلم وقدته إلى ردهة المنزل الذي كنت أستأجر حجرة به في الصيف، وتذكرت أن تينا — إحدى زميلاتي في السكن — حدثتني عن وجود رجل غريب يحوم حول المكان ودائمًا ما يقف بسيارة فان زرقاء قرب المنزل يراقب تحركاتنا بصورة واضحة ؛ وكان هذا هو فرانك. وقالت لي تينا في اليوم السابق: إن فرانك هذا توجه لجارتنا العجوز أوه سوليفان التي لم تتردد في إغلاق الباب في وجهه بعنف والاتصال بالشرطة — وحسب ما قالت تينا — فإن فرانك توجه على الفور إلى المنزل المقابل لنا في الشارع والذي يسكنه بعض المجرمين ففر أغلبهم من الباب الخلفي فورًا.

وجلست مع فرانك في غرفة المعيشة التي تناثرت فيها علب

كشف المستور

البيتزا وزجاجات الجعة من ليلة أمس، وسألني فرانك العديد من الأسئلة عن أوضاعي المالية وعادات تناولي للشراب، ومسحت عيناه الفوضى التي ملأت الغرفة، فتحدثت عن أعباء دين الدراسة وحياتي المرححة محاولة أن أبدو سعيدة بحياتي بصورة كلية، وأنا على يقين من أن فرانك قابل حالات أشد مني انحطاطاً.

وأثناء حديثنا خرج علينا رجل لم أراه في حياتي من قبل وهو عاري تماماً باستثناء منشفة ملفوفة حول وسطه، ولم أذهل مثل فرانك فقد كنت حقاً معتادة على عدم معرفة من ينام بالبيت فتينا فتاة شبه مشردة من أسرة مزارعة من أوهايو وقلبها مفتوح دائماً لأي أحد يمكن أن يقابلها وبسببها وجد العديد من المتمردين وأصدقاء الأصدقاء مأوى في بيتنا. ومد الشاب يده لي ثم لفرانك وقال : أهلاً، أنا جاي.

فدون فرانك الاسم تحت بعض الملاحظات عن عدد زجاجات الخمر التي أستهلكها أسبوعياً، ثم قال فرانك لجاي دون أن يرفع عيناه له : ربما آخذ من وقتك بضع دقائق أتحدث معك فيها عن ليندسي بعد أن أنتهي من الحديث مع السيدة.

فقال جاي : ليندسي من ؟

فبدا الارتباك على فرانك فأخبرته أنني لم أقابل هذا الشاب إلا في

كشف المستور

هذه اللحظة، ثم أخبرت جاي أنني زميلة تينا بالسكن وأنا أقدم
لوظيفة حكومية وفرانك هو محقق وزارة الدفاع للتحري عنى.
وكانت هذه المعلومات كافية لتجعل جاي يرجع من حيث أتى
لتأكدي من أن عبارات " محقق تحريات " و " وزارة الدفاع " لا
تثير في أمثال جاي إلا الدلالات السيئة التي تجعلهم يبتعدون
تماماً.

وبعد أن انتهى فرانك من إجراء هذه المقابلة طوى أوراقه وتهد
في ارتياح مثلي واعترف لي بأن هذه الأشياء جديدة عليه وأنه
كان يعمل من قبل بائع أحذية وقال في شبه اعتذار : هذا هو
أول تحقيق تحري أجريته في حياتي وأمل ألا أكون فظاً.
فأخبرته أنني أفهم موقفه وأنا لا أخفي عنه أي شيء.
وبمجرد خروج فرانك ناديت على جاي وأخبرته أن الخروج
أصبح آمناً، لكن جرس الباب دق مرة أخرى وفتحت الباب لأجد
فرانك ثانية وعيناه تنظر حوله في خجل وقال : آسف على
المضايقة لكن هناك شيئاً واحداً أود أن أسأل عنه.

ونظر فرانك حوله ليتأكد أن لا أحد من الجيران يرانا ثم خطى
داخل المنزل وقال وعيناه متسعتان وشفثاه متدليتان كالسمكة : لم
تعودي تفعلين هذا، أليس كذلك ؟

وبدا من الواضح عليه أنه لم يدخن الماريجوانا من قبل.

كشف المستور

وكنيت لم أتعاطاها منذ أكثر من عام من وقت ذهابي لبلغاريا في
منحة فولبرايت، فقلت له : لم أعد أتناول المخدرات.
وأحسست باقتراب جاي وتلويحه لي، فقال فرانك : حسناً، كنت
أتأكد فقط.

ودون هذا على ورقة جديدة ثم حياني أنا وجاي
وانصرف. وبمجرد خروجه وإغلاق الباب خلفه قال جاي : كان
هذا مروعاً. ورأينا من النافذة فرانك وهو يركب سيارته الفان
الزرقاء ويقودها ببطء وبدا عليه هذه المرة أنه ينصرف حقاً.

* * * * *

وواجهني اختيار صعب ؛ إما قبول منحة فولبرايت أو العمل بوكالة الاستخبارات المركزية، ولم أعرف ماذا أفعل فمن ناحية كنت شغوفة لأبدأ حياتي في مجال الجاسوسية ومن ناحية أخرى فإن منحة دراسية ببلغاريا لمدة سنة فرصة لا تعوض يمكنني فيها القيام بأبحاثي دون أن أكون تحت المراقبة، وكنت على يقين أنني بمجرد بدء عملي بالمخابرات فإن أدق تفاصيل حياتي ستكون تحت المراقبة، وأحسست أن منحة فولبرايت ستعطيني عامًا آخر من الحرية، أو بمعنى آخر ؛ فرصة أخيرة للابتهاج. واتصلت بالوكالة وسألت عما إذا كان بإمكانني أن أوجل بداية عملي لمدة عام حتى يتسنى لي الحصول على منحة فولبرايت. فقال لي ممثل إدارة الموارد البشرية بالوكالة : إننا على وشك أن نطلب منك الحضور، وأن نعرف منك ما إذا كنت ترغبين في العمل أم لا.

وكان هذا الموقف بسبب رفضي العمل مع الاستخبارات عندما أتاني طلب منها لتولي مهام عملي خلال أسبوعين، وطلبها بأن أوقف إجراءات منحة فولبرايت. وكنت في هذا الوقت في منتصف فصل دراسي وأحسست بأن واجبي تجاه طلابي يحتم علي أن أكمل العام الدراسي، واندعشت من موقف الوكالة التي تعتمد في المقام الأول على إخلاص موظفيها عندما لم تبد أي

كشف المستور

اهتمام بالتزامي الأخلاقي أمام تلاميذي.

وفي النهاية وافق قسم التوظيف بالوكالة على أن أنهى العام الدراسي وأن أخذ منحة فولبرايت على شرط القيام باختبار كشف الكذب مرة ثانية بالإضافة إلى إعادة التحري عني بعد عودتي من بلغاريا، وتم التنبيه علي بعدم الاتصال بالمخابرات أثناء وجودي خارج الولايات المتحدة.

ورغبت في الاستمتاع بعام الحرية الأخير المتاح لي فانهمكت في القراءة والأبحاث واستمتعت ببعض الجولات بالبحر الميت وتسلق الجبال وأصبحت أكثر شراهة في الاستمتاع بالحياة إن لم أكن قد انغمست في ملذات الحياة تمامًا وعدت بعد عام بصديق جديد صنفته للمخابرات عندما تعرضت لجهاز كشف الكذب على أنه " صديق حميم أجنبي ".

وكان اختبار كشف الكذب مؤلماً كسابقه وممل بشدة وسألني الرجل الذي كان يجري الاختبار : هل تعدت إتلاف ممتلكات حكومية أو أنظمة إلكترونية ؟

وبعد أن أوضحت للمرة المليون أنني ليس لدى سبب يدفعني للكذب في إجابة مثل هذا السؤال، قال لي الرجل النحيل الذي كان يجري الاختبار : أريدك أن تفكري طويلاً وبتمعن يا لندسي لأن هذا السؤال سيغطي الكثير من الجرائم. ..

كشف المستور

ومال نحوي بصورة تأمرية وقال : مثل سحق جهاز الفاكس
بمطرقة !فقلت : حقاً، لقد نلت مني فتحطيم آلات الفاكس
بالمطرقة عادة يبدو أنني لن أتخلص منها.
وبعد عدة ساعات من الاستجواب أخبرني الرجل أنني لم أجتاز
الاختبار وأنا لن أعين بالاستخبارات بعد كل هذه المعاناة.
وأحسست أن جزءاً مني قد استراح لهذا الخبر بعد أن تخطيت
الكثير من الصعاب وبعد أن نسيت ما كنت أرغب فيه في المقام
الأول، كما كنت قلقة بسبب تفكيري فيما تعنيه وظيفتي الجديدة
بالنسبة لي وبالنسبة لساشو — صديقي البلغاري — بالإضافة إلى
عدم قدرتي على تخيل صمودي مرة أخرى أمام جهاز كشف
الكذب أثناء الفحص الدوري لي بعد التعيين بالوكالة.
وبينما كان الرجل الذي أجرى لي الفحص ينزع المجسات من
صدرتي وبطني تأرجحت مشاعري بين الراحة العميقة وخيبة
الأمل، واستأننني في أن يغيب لبضع دقائق قبل أن يقودني
لطريق الخروج.

وعندما صرت وحدي بالحجرة قمت من على مقعدي وهدمت
ملابسي وحملت حقيبتني بيدي وأصبحت مستعدة للخروج بمجرد
عودته.وعاد الرجل مبتسماً بصورة شبه هيسيرية وقال :
مرحباً بك في وكالة الاستخبارات المركزية يا ليندسي، وآمل أن

كشف المستور

تعذرني على ترويعك.

قلت : هل نجحت ؟

قال : طبعًا.

واقترب مني ومد يده ليصافحني وقال : فعلت هذا فقط لأتأكد

من عدم وجود أي احتمالية للخداع.

قلت : فعلت هذا لتتأكد مما إذا كنت أخفي شيئًا ما ؟ !

قال : طبعًا، نحن نقوم بهذا دائمًا.

ولم أسمع من قبل حتى هذه اللحظة عن مختبر كشف كذب

يكشف أوراقه بهذه الطريقة.

وغادرت المبنى وأنا أشعر بالرضا والذهول ورحلت الراحة

التي شعرت بها منذ لحظات ليحل محلها الرضا والفخر

والاستثارة المتنامية بسرعة غريبة.

وأثناء مغادرتي المبنى قال لي المختبر أنني ينبغي أن أنتظر

ثلاثة شهور على الأقل حتى ينتهي إعادة عمل التحريات اللازمة

فقررت العودة لسان فرانسيسكو من أجل صديقي ساشو الذي

أوشكت تأشيرته السياحية على الانتهاء وكان يعمل بمهن مختلفة

بين الفترات التي يقضيها في تسلق الجبال.

قضيت الصيف مع ساشو مخيمين بمنتزه يوزميتي العام وعدنا

للمدينة عندما نفذت أموال ساشو وتوجب عليه أن يطلي مرآب

كشف المستور

سيارات أو ينظف بالوعة للحصول على المال.

وبينما أنا أنفصل عن ساشو في أحد زوايا الطريق حيث يتجمع

العمال من أمثال ساشو الذين كان أغلبهم مكسيكيين فكرت في

التحول الذي سيطرأ على حياتي، وتذكرت الليالي الثلاث

الأخيرة التي نمناها بالعراء ملتحفين السماء بنجومها اللامتناهية،

وقلت لنفسي : ما الذي سيحدث لي ولصديقي الأجنبي عندما أبدأ

عملي بوكالة الاستخبارات المركزية. وأحسست بصراع رهيب

في نفسي ؛ فمن ناحية كنت شغوفة لانتهاء التحريات وبدء عملي

بمجال الجاسوسية، ومن ناحية أخرى كنت قلقة لما يتوجب علي

التخلي عنه، فقد أحببت تسلق الجبال وأحببت ساشو ومثل كل

منهم — بالنسبة لي — الحرية بكل معانيها، وكانت هذه هي

مزايا حياتي الحالية التي ربما أضطر للتخلي عنها، بينما لم تكن

لدي معلومات كافية عن حياتي العملية الجديدة ومتطلباتها. وبدلاً

من أن أفكر في الاختيار بين ساشو وحياتي العملية الجديدة

أخرجت هذه المعضلة من رأسي وأقنعت نفسي أن بإمكانني

الحصول على كل شيء، ووافق ساشو الذي كان يعرف فقط أنني

سألتحق بوظيفة " في الحكومة " على أن ينتقل للحياة معي قرب

واشنطن العاصمة بمجرد أن أوفر سكناً هناك.

وبينما نحن نودع بعضنا في أحد الشوارع القريبة من المنزل

الذي زارني فيه فرانك من قبل وقف ساشو بجوار الشاحنة التي استأجرتها لنقل أغراضي عبر البلاد في الأسابيع القليلة القادمة ووضعت يدي على عجلة القيادة ونظر لي ساشو بتمعن وقال : هل أنت واثقة من أنك سترغبين في حضوري ؟

قلت : طبعًا. وكان صوتي يحمل نبرات حزن أكثر من نبرات البهجة فقد كانت الحقيقة أنني لا أعرف، وارتعبت من فكرة هجر ساشو فأقنعت نفسي أن خسارة صديق أجنبي ليست خسارة كبيرة إذا كنت سأعمل بوكالة الاستخبارات المركزية، وبينما أنا أسير في طريقي كان تخيل مدي ملائمة وجود ساشو في حياتي أثناء عملي بالاستخبارات تصبح أكثر قساوة، وقلت لنفسني: إنني في طريقي للعمل بالjasوسية فكيف سينظر لي ساشو ؟ وكيف ستنتظر الوكالة لساشو ؟ !وفي نهاية كل يوم طويل من القيادة كنت أركن الشاحنة وأجلس مع نفسي لبعض الوقت في أحد الحانات الموجودة على جانب الطريق أتناول إحدى شرائح الهمبورجر أو فطائر التفاح وأحلق في السماء محاولة أن أستريح لبعض الوقت من التفكير في ساشو وأتخيل مشاهد من مستقبلي بدونه.

كشف المستور

كان اليوم الأول الذي التحقت فيه رسميًا بالعمل بوكالة الاستخبارات المركزية يوم الإثنين حار بشهر أغسطس ولبست في هذا اليوم بدلة زرقاء جديدة وقدت شاحنتي العتيقة التي تعطل بها جهاز التكييف ووصلت في تمام الساعة التاسعة صباحًا للمبنى الضخم للإدارة الرئيسية لوكالة الاستخبارات المركزية والذي علته لافتة واضحة كتب عليها بحروف كبيرة CIA ولم أكن حصلت بعد على شارة تمكّني من دخول المبنى فاقتربت من صندوق به كاميرا وميكروفون على بعد أمتار قليلة من البوابة الرئيسية وقلت في الميكروفون على نحو أبله : مرحبًا، أنا هنا ليومي الأول.

فسمعت صوت من الصندوق يقول : حسنًا تعرفين أن هذا هو مبنى الإدارة الفيدرالية، أليس كذلك ؟ فأحسست بالبلاهة وقلت : لا.

فسمعت صوت فرقة تلاه صوت المتحدث يقول ثانية : آسف كنت أمزح معك فقط، استمري في قيادة سيارتك. واسترحت لمعرفة أن بهذا المكان أشخاص يتمتعون بروح مرحة. وحصلت على شارة مؤقتة للدخول وعرفت المكان المخصص لسيارتي ودخلت المبنى الرئيسي للمرة الأولى ووقفت على الختم الكبير المرسوم على الأرض وتفرست للحظة في النجوم الذهبية

كشف المستور

الموضوعة على الحائط والتي كنت أعرف من الكتب التي قرأتها أن كل واحدة منها ترمز لأحد ضباط المخابرات الذين ماتوا أثناء القيام بواجبهم وبدأ لي اللاتناهي الزماني لهذه النجوم مجيد بقدر ما هو مأساوي.

وأحسست بالفخر لتحقيقي هذا الإنجاز فقد أصبحت أخيراً داخل وكالة الاستخبارات المركزية ولم يستوقفني أحد.

وخمدت نفسي المنتفخة عندما رأيت لوحة كئيبة عليها شخصية إلف الكرتونية وهو يمسك بمجموعة من البالون ويقول مرحباً بك في الوحدة 101 بوكالة الاستخبارات المركزية.

وخلف إلف لوحة تعليمات تطلب من الموظفين الجدد أن يذهبوا لحجرة بالطابق الأول بمبنى الإدارة الرئيسية القديم، وتطلب مني حفظ متاهة الممرات والردهات التي تربط المبنى القديم بالمبنى الجديد أسابيع طويلة، وأحياناً ما كنت أتوه في السرايب

المتشابهة فأذهب لدورة مياه السيدات لألتقط أنفاسي وأستعيد توازني. قضيت الأسبوعين الأولين بالوحدة 101 التي كانت عبارة عن حجرة كبيرة جلسنا فيها وتلقينا عدداً من المحاضرات العامة كان بعضها مشوق مثل شرح كيفية استكشاف

المتفجرات، وبعضها ممل مثل الأنواع والتقسيمات الأمنية وواجبات كل منها وعقوبات الفشل في إنجاز مهامها. وكان أهم

المحاضرات بالنسبة لي تلك التي ألقاها ممثلين لمكتب الأمن وأوضحوا فيها القوانين المتعلقة بمواعدة الأجانب وتكلم في هذه المحاضرة رجلين أشبه بالآلات وامرأة خرقاء قضوا أغلب المحاضرة في سرد الحكايات المحزنة عن عميلات بالوكالة وقعوا في غرام رجال أجانب اتضح فيما بعد أنهم جواسيس، وباعوا بلدنا خلال ما أسموه حب، ولم تكن هناك حاجة لذكر انتهاء الحياة المهنية لتلك النساء بصورة مهينة وبعضهن يقضي عقوبات سجن خلف قضبان السجون الفيدرالية.

وأدركت من البداية التفريق في المعاملة داخل الوكالة بين الرجال والنساء فقد كان الرجال أحراراً في مواعدة الأجنيبات وفعل ما يشاءون، وقال أحد الرجلين : لا حاجة لكتابة التقارير عن ممارسة الجنس مع العاهرات ما دمت لم تعاشر نفس المرأة أكثر من مرة، وأحسست من ظاهر هذا الكلام أن من حق الضابط الميداني — الرجل — أن يتردد على نفس بيت البغاء ويمارس الجنس دون أن يبلغ الوكالة بذلك ما دام يمارس الجنس كل مرة مع امرأة مختلفة. وكان الوضع مختلفاً تماماً بالنسبة للنساء، وأوضحت المرأة ذلك بتوجيه كلامها للسيدات الموجودات بالحجرة وقالت : لا يعني هذا أن تقوموا بالعلاقات بمنتهى الحرية مع المواطنين الأمريكيين لأنكم ينبغي أن

كشف المستور

تحافظوا على سمعتكم والتأثير الذي يمكن أن تعكسه هذه السمعة على مجال عملكم. وكانت رسالة الوكالة واضحة : النساء أكثر عرضة للتملق والخداع والوقوع في شباك الأجانب محل الاشتباه، وأن المرأة تمثل خطرا أمنيا أكبر على الوكالة، وأن النساء ضعيفات. واستهجنّت هذا التفريق في المعاملة بين الرجال والنساء، وكان عقلي يذهب بين الحين والآخر إلى ساشو، وكنت على يقين من أن ساشو ليس جاسوسا إلا أنني كنت على يقين أيضا من أنه مشتبه به ولذلك كان نادرا - إن حدث أصلا - ما أتحدث مع رؤسائي أو زملائي عن صديقي البلغاري، وأدركت أن إستراتيجية تقسيم حياتي على هذا النحو لن تدوم طويلا.

* * * * *

كانت الوحدة 101 تضم الموظفين الجدد بالإدارات الأربعة بالوكالة ؛ الإدارة العامة، وإدارة العلوم والتكنولوجيا، وإدارة الاستخبارات، وإدارة العمليات. وتعرفنا نحن ضباط العمليات على موظفي الإدارات الأخرى وشكلنا رابطة بسرعة وتبادلنا الحكايات عن خلفياتنا المختلفة وكيف انتهى بنا المطاف في هذا المكان، وشبهنا اختبار كشف الكذب بأسوأ الكوابيس التي مرت علينا في حياتنا، وكنا آخر مجموعة من الموظفين التي تلتحق بوحدة التدريب السرية بفصل C.

وعلمنا أن باقي الملتحقين بالفصل C يعملون حالياً بقيادة الوكالة وأنهم ينتظرون قدومنا حتى تكتمل المجموعة ونبدأ التدريب، وكنا نرى بقية المتدربين بمطعم الوكالة أو أثناء تحركنا في الردهات ونميزهم بسهولة من خلال سنهم الصغير وتحركهم في زهو وثقة، وعلى خلاف باقي موظفي الوكالة الذين كانوا أشبه بذكور النحل في تعاملاتهم لم يبد على باقي الملتحقين بالفصل C أنهم تأثروا بالمناخ العام للعمل بمكاتب الوكالة، وبدا عليهم بصورة ملحوظة النشاط الجم فقد كانوا على سبيل المثال الموظفين الوحيديين الذين يذهبون لصالة التمارين الرياضية بالوكالة. ووصفنا باقي الملتحقين بالفصل C بـ " الموجة الأخيرة " لأننا كان يتوجب علينا العمل لتسعة أشهر فقط قبل أن ننقل للتدريب

كشف المستور

بالمزرعة بينما كانوا يشعرون بالذبول والتراخي لاضطرارهم للقيام بالأعمال المكتبية لقراءة عام قبل وصولنا، ونظروا إلينا في فتور وتجمعوا حول دائرة مستديرة بمطعم الوكالة، وبعد فترة ذهب الجمود الذي كان يسود علاقتنا ونشأت بيننا علاقات صداقة قوية وأصبح فصل C مجموعة مترابطة ومتماسكة. وتلي فترة تدريبنا بالوحدة 101 أسبوعين من التدريب بإدارة العمليات من خلال وحدة التدريب السرية، ولاحقتني أول هواجسي بهذا المجال الذي اخترته.

وبدأت أدرك أن الروايات التي قرأتها عن الجاسوسية قبل التحاقني بالعمل بوكالة الاستخبارات المركزية كانت تعكس صورة مضللة تمجد هذه المهنة، وكنت لا أزال أعتقد — بطريقة أو أخرى — أن كوني جاسوسة سيعني سرقة أسرار الدول الأخرى وكسر الخزائن وتسلق حوائط المباني والهروب من خلال شبكات الأنفاق المجهولة لدرجة أنني تساءلت عن الوقت الذي ستفنعني فيه مهاراتي في تسلق الجبال واستخدام الحبال، وكان أهم ما فكرت فيه أن الشخص الذي سأعرضه دومًا للخطر هو أنا. وكانت الحقيقة بالطبع أمراً مختلفاً تماماً عن الروايات. شرح لنا المدربون في اليوم الأول من تواجدها بإدارة العمليات طبيعة العمل فأخبرونا بأن هدفنا الأول في الحياة طوال وجودنا

بهذه الإدارة هو تحديد وتقييم وتطوير وتوظيف الجواسيس الأجانب وهؤلاء " العملاء " أو " الأصول " — كما يسمون في لغة الوكالة — سيبيعون لنا أسماء ضباط عملياتهم وأسرارهم. وتعلمنا تصنيف المعلومات حتى لا نقود بأي حال من الأحوال إلى معرفة الضابط الميداني إذا ساءت الأحوال بأن ألقى القبض على العميل أو الضابط الميداني، وفي هذه الحالة يتم إعادة الضابط الميداني للبلاد مع وضع ملاحظة سلبية بملفه الوظيفي تؤثر على عمله المستقبلي نوعًا ما بينما يلقى بالعمل في السجن لبقية حياته وربما يعدم، ولم نتناقش كثيرًا — إن كنا نتناقشنا أصلًا — في المعايير الأخلاقية التي تتعلق بإقناع شخص بالتجسس على بلاده، فقد كان شعار العمل بإدارة العمليات هو ؛ " اكذب وغش واسرق ؛ لكن لا تسمح بأن يقبض عليك " وتعلمنا كيف نحدد الشخص الذي نعتقد إمكانية تعامله مع معلومات هامة وكيف نقيم معه علاقة وطيدة، وتعلمنا أيضًا البقاء متيقظين وبعيدين عن أي شيء قد يتسبب في سقوطنا في يد العدو مثل الإسراف في تناول الخمر.

وعلى خلاف ما هو شائع فإن عميل وكالة الاستخبارات المركزية ليس هو الموظف الفعلي لدى الوكالة بل الموظف الفعلي لدى الوكالة هو ذاك التعيس الذي جند من قبل ضابط

ميداني بالوكالة للتجسس على بلاده لصالح الولايات المتحدة مقابل الحصول على المال في أغلب الحالات. وتسمى عملية تحديد وتقييم وتطوير وتوظيف الجواسيس الأجانب " دائرة التوظيف ". وبمجرد تحديدنا لشخص يتمتع بإمكانية الوصول لمعلومات سرية والتأكد من احتمالية تجنيده يفترض بنا أن نلعب على نقاط ضعفه وأن نطرح حلول ربما تتمكن " مؤسستنا " من تقديمها. وإذا كان الهدف أو من نسميه بـ " العميل المحتمل " يرغب على سبيل المثال في أن يرسل ابنه للتعلم بمدرسة بالولايات المتحدة فإن بإمكاننا أن نعرض عليه أن نرتب له هذا وأن ندفع له كافة التكاليف، ولو أن ابنة الهدف تموت بسبب مرض نادر فمن الممكن أن نوفر العلاج، ولا يبدو هذا بالطبع شيئاً سيئاً، لكن إذا رفض الهدف أن يكون عميلاً ففي هذه الحالة يتم سحب العرض فوراً، أما إذا قبل ثم عاد بعد ذلك وقرر أنه لا يقدر على المخاطرة بارتكاب جريمة الخيانة العظمى، أو قدم معلومات تافهة لا تفيد الوكالة فيجب أن نوقف فوراً كافة الاتصالات به وأن نقطع المساعدة التي كنا نقدمها له. وإذا كان الهدف المحتمل منيع وغير قابل للسقوط في أيدينا فينبغي في هذه الحالة أن نقدم له الخمر والأطعمة الفاخرة بأرقى المطاعم وأن نغريه بالخمر وبمظاهر الحياة المرفهة فإذا تجاوب مع

هذه الأساليب فمن الممكن تجنيده.

وكان مدربنا يقول لنا مرارًا وتكرارًا : لكل شخص حلم كبير، ومهمتكم أن تكتشفوا هذا الحلم.

وعلمنا أن التقدم في عملنا يعتمد في المقام الأول على عدد العملاء الذين جندناهم وفي نفس الوقت فإن العملاء الذين يصعب الحصول عليهم كالروس والكوريين الشماليين والصينيين يتم اعتبارهم مثل بقية العملاء الآخرين أي أن الكم أهم من الكيف، وأن أبطال الوكالة الأسطوريين هم الذين يحققون أرقامًا قياسية في عدد المجندين.

وبدأت أشعر ببعض الأفكار الغريبة فلم أكن من النوع الذي يتلذذ بإيقاع الآخرين في المتاعب خصوصًا الأشخاص الذين يمرون بأوضاع صعبة، ولم أستسغ فكرة إدعاء صداقة شخص ما من أجل استخدامه للترقي في سلمي الوظيفي، ولم أسترح على وجه الخصوص لفكرة تعريض شخص ما للخطر بأن أطلب منه أن يقوم بفعل شيء لا يمكنني القيام به أبدًا كخيانة وطني. وقدم لنا قدامى الضباط الميدانيين آلاف التبريرات مثل "إننا نقدم معروفًا لهؤلاء الناس، إنهم يرغبون في العمل لصالحنا ويحتاجون إلى المال لتحسين ظروفهم المعيشية، والعديد منهم يعيش في ظل نظم حكم استبدادية وخيانتهم لهذه النظم شجاعة

كشف المستور

وإيجابية ".وبدأت أتفهم وجهة نظر قدامى الضباط الميدانيين وأصبح من السهل على فهم سبب احتياجنا لتوظيف عملاء أجانب، ولم أتوقع من الجاسوسية إلا أن تكون عمل قذر وأحسست بقيمي ومبادئ تشوش ووجدت نفسي أنجرف في هذا التيار، وبعد أن انتهت فترة تدريبنا بإدارة العمليات حددت لنا مكاتب للقيام بأعمالنا الأولى مؤقتًا.

واندمجت في عالم غريب علي لأنني كنت معتادة قبل ذلك على أن أكون إنسانة منفتحة واجتماعية، والآن لم يعد أصدقائي في الخارج يعرفون أين أعمل وأصبحت حواراتي معهم أكثر تكلفاً وغريبة ولم أجد أحداً داخل الوكالة يمكنني أن أثق به خصوصاً وأن المنافسة بين المتدربين أصبحت شديدة الضراوة، وتكالبت علينا مشاعر الطموح والاستقلالية ووحدة الهدف كل هذا بالإضافة إلى عدم القدرة على الاعتماد أو الثقة في أحد غير النفس وكل هذه الصفات لازمة للجاسوس في عمله حتى يصبح ناجحاً، ومن التهور الثقة بأي أحد داخل الوكالة.

واعتدت من فترة لأخرى أن أثير التساؤلات مع زملائي في الفصل عن مدى أخلاقية إيقاع الأجانب في الفخ للتجسس لصالح الولايات المتحدة، ولم ألتقى إلا نظرات خالية من أي معنى أو نظرات تشكك، وفي ذات مرة قال لي أحد الزملاء : لو كانت

هذه مشاعرك ما كان ينبغي لك أن تكوني هنا. وفكرت في أنه ربما كان محققاً، وكنت في هذا الوقت أرغب في عمل شيء مفيد لبلدي من خلال وجودي بوكالة الاستخبارات المركزية، وبدأت أتخلى عن مثالياتي وأن أتقبل المسائل التي لم تكن دائماً محسومة، أو أفعل الأشياء التي لم أكن أشعر نحوها بالراحة النفسية. وباختصار، لم أجد شخصاً أثق فيه لأناقش معه الأمور التي تقلقني فازحت مخاوفي جانباً، ونتيجة لذلك بدأت أفقد إحساسي بنفسي، وبدأت أتغير.

* * * * *

وفي هذه الأثناء بدأت أقلق وأفكر في التصرف الأمثل مع ساشو الذي لم يبق على موعد وصوله إلا أسابيع قليلة، وعلمت من خلال المحاضرات الأمنية التي لا تنتهي أنه بالإضافة للقيود الكثيرة المتعلقة بمواعدة الأجانب فإنه يجب علي الحصول على تصريح خاص لو كان الأجنبي سيقم معي لأكثر من ثمانية أيام متواصلة، وخصوصًا إن لم يكن لديه قيود تربطه بالوطن فكتبت مذكرة لمكتب الأمن أطلب الإذن بالسماح لصديقي البلغاري ساشو تودوروف بأن يأتي لزيارتي والبقاء معي لأسبوعين أو ثلاثة، ولم أكن أعرف — في الحقيقة — الفترة التي ينوي بقاءها. وفكرت أن أحدثه في الزواج لأتجنب احتمالية إبعاده لكني ترددت لعدة أسباب ولم يكن أخطرها احتمالية تعريض ساشو مجال عملي الجديد للخطر.

وتنص لوائح وكالة الاستخبارات المركزية أنه في حالة رغبة أحد الضباط في الزواج من أجنبي — بعد الحصول على إذن الوكالة بطبيعة الحال — فإن هذا الأجنبي سيحصل على الجنسية الأمريكية ويعني هذا بقاء الزوجان داخل الولايات المتحدة لمدة خمس سنوات على الأقل، ويعني البقاء داخل الولايات المتحدة نصف عقد بالنسبة لضباط المخابرات الميداني قتلًا لمجابهة المهني، وعلاوة على ذلك فإن الأجنبي مطالب قبل الزواج

بالتعرض لجهاز كشف الكذب والتحري عنه من قبل الاستخبارات تحريات دقيقة جدًا وفي هذه الأثناء يحظر على ضابط الاستخبارات أن يخبر الطرف الأجنبي بحقيقة مهنته قبل التعرض لجهاز كشف الكذب، ويمكنك أن تتخيل مشاعر الشخص الذي ظللت تكذب عليه طوال فترة العلاقة ثم تأتي بعد ذلك لتضع المزيد من الملح على الجرح وتطلب منه بعد أن خدعته مرارًا وتكرارًا بأن يقوم باختبار كشف الكذب. وليس غريبًا أن أغلب الضباط الميدانيين يتجاهلون هذه التعليمات دائمًا، وقد كان كل الضباط الميدانيين والمتدربين الذين أعرفهم ممن كانوا يواعدون أجانب أطلعوهم على حقيقة عملهم بالاستخبارات قبل إبلاغ مكتب الأمن بالوكالة وبرروا هذا بطريقة مهذبة على أنه "تتبع دقيق" لاقتناص الأجنيبيات في المقام الأول. وعلى الرغم من أنني أرسلت طلب الموافقة على زيارة ساشو قبل وصوله بأسابيع إلا أن الرد لم يأتي حتى أيام قلائل من موعد وصوله، وأخبرني مكتب الأمن أن الطلب يتداول بعدد من المكاتب وقال لي أحد ضباط مكتب الأمن بعدم اكتراث "ربما تمر شهور قبل أن يأتيك أي رد، هذا إن أتاك رد أصلاً. قلت : ولو أنني سمحت له بالبقاء معي دون إننكم فهل سيعتبر هذا تجاوز أمني ؟ !

كشف المستور

قال : طبعًا، ولا أخفي عنك أن هذا سيعتبر مخالفة
جسيمة. وسخّطت على محاولتي الشجاعة لاتباع القوانين
وأحسست أن هؤلاء الموظفين البيروقراطيين يستمتعون بوضع
العراقيل.

وأخيرًا اتصل بي ضابط أمن قبل وصول ساشو بيوم واحد
وطلب مني الذهاب إلى مكتبه، واهتم هذا الضابط بطلبي لأنه
لاحظ — الآن فقط — أنني كتبت بالصفحة الأولى من المذكرة أن
أبا ساشو يعيش بليبيا.

واستقبلني ضابط الأمن بملامح صارمة مثل محققي الجرائم
وسألني : ما الذي يفعله بليبيا ؟

قلت : والده جراح، لكنه لا يكسب قدرًا كافيًا من النقود ببلغاريا
لذلك سافر لليبيا للعمل.

قال : لماذا ليبيا تحديدًا ؟

قلت : أظن لأن هناك جالية بلغارية كبيرة.

قال : حسنًا، هذا الوضع غير مطمئن.

قلت : إنه ليس ليبي.

قال : لا يغير هذا شيئًا من الوضع.

وتركني الضابط وأنا أعاني من احتمالية رفض طلبي، وعدت
للمنزل وأنا أتساءل عما ينبغي أن أفعله، هل أستقيل؟ هل أطلب

من ساشو ألا يحضر ؟ إنه بالفعل أنفق كل الأموال التي ادخرها من عمله لشراء تذكرة الطائرة، ولم أتمكن من النوم تلك الليلة من شدة الكرب الذي ألم بي لعدم تمكني من الاهتداء للتصرف الأمثل وأنا أشعر أن هذه المشكلة هي بداية المآسي.

وقررت تجاهل هذا الموقف تمامًا والسماح لساشو بالإقامة معي، وأنت الموافقة بعد أشهر من إقامة ساشو وانصرافه، والأسوأ من هذا أن مكتب الأمن أخطأ في كتابة اسم والد ساشو وتحري عن شخص آخر يدعي ساشو بودوروف — بدل تودوروف —

وسمح لأجنبي ليس له وجود بالبقاء معي لفترة لا تزيد على عشرة أيام متتالية اوجاعني الرد على المذكرة مكتوب فيه ما يلي :

" تحرينا عن صديق الموظفة وكافة أقاربه ولم نجد أي

معلومات متعلقة به تثير الشكوك. "

واختلطت مشاعري أثناء وجود ساشو معي ما بين البهجة

والحزن، وقضيت معه قرابة الشهر وتسلقنا في العطلات

الأسبوعية مرتفعات غرب فيرجينيا، ووجدت ترفيها مؤقتا في

تخطي صعاب الصخور وفي مشاهدة لمعان الشمس على صفحة

المياه بالنهر الذي ألقينا أنفسنا فيه بتهور من على ارتفاعات

عالية، وكان وجود ساشو معي في هذا الوقت مؤشر لي على

التحول الذي طرأ علي ونكرني ببلغاريا الهادئة وبصيفها

كشف المستور

الممتع، وعندما أصبحت غاضبة وسريعة الانفعال حاول أن يهدئني، ولم تكن لدي القدرة على التحدث في الموضوع الذي يؤلب فكري ولم أعد أعرف ما الخطأ وما الصواب، وكان الكذب المتكرر يسحقني تمامًا.

وكان ساشو يعلم أنني أعمل بـ " إحدى الوكالات الحكومية " في واشنطن العاصمة، وعندما كان يحاول أن يصحبني في طريقي للعمل كنت أراوغ وألتمس الأعذار يوماً تلو الآخر ؛
" سأذهب إلى فرجينيا أولاً لأشتري بعض الحفاضات ".
" اليوم دوري لشراء الكعك للمكتب من عند كرسبي كريم ".
" البنزين أرخص في محطة لانجلي القريبة من فيرجينيا ".
ولابد أن ساشو ظن أن واشنطن العاصمة مدينة بغیضة بشدة حيث لا يوجد بها مكان لشراء الحفاضات أو الكعك أو البنزين بأسعار معقولة.

وأحسست في نهاية المطاف باستحالة استمرار علاقتي بساشو فقد جعلني الكذب المستمر سريعة الغضب وجعل هذا السلوك ساشو يتمزق من شدة الحزن، وأحسست دوماً بالذنب وانعكس هذا الإحساس بالذنب في صورة غضب ونوبات صراخ، وأعتقد أن ساشو احتفظ بحزنه في صدره.

وعندما أتى يوم أخبرت فيه ساشو بأنه ينبغي عليه العودة إلى

سان فرانسيسكو لم يكن من الصعب إقناعه أن هذا هو التصرف الأنسب، ولن أنسى أبدًا عيناه وهما يتفحصاني وقد اغرورقا بالدموع، وعندما ودعنا بعض بالمطار قال لي بنبرة حزينة بها همسة سخرية : " أتمني لك التوفيق في وظيفتك. "

وأدركت أنه علم في قرارة نفسه أن عملي استغرقني ولا بد أنه نظر له على أنه عمل مهين وسخيف.

وظللت لأيام تالية أتعذب من التفكير فيما إذا كان قراري صائب أم لا، وبالطبع لم يكن أحد بالوكالة يفهمني، أو يجعلني أبتسم، أو لمس روحي كما فعل ساشو، وكنت على يقين من أن لا أحد يهتم بي قدر اهتمامه — إن كان هناك من يهتم بي من الأساس —.

وأخرجت ساشو من حياتي ولم أستقيل من المخابرات على الرغم من كل الآلام التي مررت بها، بالإضافة إلى تمتعي بكل الفرص التي تسمح لي ببدء الحياة خارج الوكالة ؛ فقد كنت شابة وأحمل شهادة من جامعة هارفارد ومنحة فولبرايت متاحة لي ويمكنني العودة للتدريس الذي أحببته أو إلى مدرسة بركلي للقانون التي أجلت الالتحاق بها لعامين بسبب التحاق بوكالة الاستخبارات المركزية. والسبب في كل هذا بسيط جدًا وهو تلك الحكمة التي لم تشف بعد والتي تدفعني لرؤية الوكالة من الداخل

كشف المستور

بصورة كلية.

لقد أردت أن أنهى تدريبي وأن أعيش خارج البلاد، ولا زلت
أرغب في أن أصبح جاسوسة، وأردت أن أكون قادرة على أن
ألتفت وأقول — ولو لنفسى — " لقد فعلت ذلك "، وعلاوة على
ذلك فقد كنت على يقين من أن الوكالة تحتاج أشخاصًا على
شاكلى أنكفاء ونشيطين ولديهم القدرة على نفض الغبار الذى
تراكم على هذه المؤسسة الضخمة، ويمكنهم أن يحققوا إنجازًا
كبيرًا، وأيقنت أن كل الأشياء التى ضايقتنى بالوكالة يمكن أن
تتغير لو أن المسؤولية وضعت على عاتق أناس أنكفاء
ويفكرون بمنطق، وربما أكون يومًا ما من هؤلاء الأشخاص.
ولذلك قررت الاستمرار حتى ولو عنى ذلك السباحة ضد التيار
فلا بد وأن أضع قوانينى الخاصة وأحافظ على أخلاقياتي وألا
أدع روى تخمد.

وكنى أردد هذه الكلمات لنفسى كل صباح وأنا أرتدى ملابسى
وأربط شعرى، وأرددها أيضًا وأنا أقود سيارتى يومياً للعمل
محاولة ألا أأيد عن طريقى وأنا أبحث بجيى عن تلك الشارة
الصغيرة الزرقاء.

• • • • •

وصلت منهاتن بعد أسبوع من العمل الرتيب بقيادة الاستخبارات المركزية وكنت قد أخذت ليلة أمس قطار الساعة السادسة الذي يتحرك من واشنطن ليصل لمحطة بن في تمام العاشرة مساءً، وأتيح لي وقتاً كافياً للذهاب لشقة إيما وإميلي أعز صديقتي وتغيير بدلتني الزرقاء بأخرى ملاتمة من خزانة ملابس إميلي والخروج للمدينة قبل منتصف الليل.

وذهبنا في اليوم التالي بعد الظهيرة لإشباع جوعنا بطعام دسم وتوجهنا لتدليك أجسادنا بالحي الصيني، وتسكعنا حتى منتصف الليل ثم توجهنا لحفلة بمنهاتن في شقة على سطح أحد المنازل لشخص يدعى تاكر وكان الجميع ينادونه باسم سراش. ونظر لي سراش بريبة وكأني ضابط شرطة متخفية وكنت على يقين من أنه المورد الرئيسي الذي يمد إيما وإميلي بالمخدرات، وبعد قليل لم أجدهما بجواري ولم أعرف أين ذهبتا وإن كنت أعتقد أنهما ذهبتا إلى الطابق العلوي مع الآخرين، ووقفت بأحد الأركان وأنا ضامة يداي إلى صدري متحجرة كالعامود وأشعر أنني بلهاء والجميع من حولي يتبادلون الغرام.

ولم تكن إيما ولا إميلي يعرفان طبيعة عملي، إلا أنهما كانتا تعرفان أنني توقفت تمامًا عن تعاطي المخدرات منذ بدء عملي

بواشنطن، ولم تتضايق الفتاتان من صرامتي فقد كان من الملائم وجود شخص واحد على الأقل متيقظ في الحفلة، لكنهما ربما تساءلا مثل سراسش عما إذا كنت حقاً ضابط شرطة متخفية. وكنت قد تعرفت على إيمّا وإميلي فيما نسميه بـ " حفلات الاتصال البلغاري "، وعرفت عن إيمّا أنها فتاة أمريكية من أصل بلغاري وصلت لصوفيا عاصمة بلغاريا في بداية التسعينات في نفس الوقت الذي وصلت فيه، وكان والداها فنانان هربا من النظام البلغاري القمعي إلى الولايات المتحدة منذ عشرين عامًا وعادوا إلى بلدهم بعد انهيار الإتحاد السوفيتي بقليل ليقطنوا بفيلا خارج مدينة صوفيا ويعطوا إيمّا فكرة عن أصولها البلقانية.

أما إميلي فكانت تعيش في صوفيا مع زوجها النحيف الذي كان يتقاضى راتباً ضئيلاً مقابل مساعدة الشيوعيين البلغاريين السابقين على التحول إلى الرأسمالية، واستغلت إميلي أيام الفراغ التي قضتها بصوفيا في كتابة رواية أعطتها قدرًا من الشهرة، وانفصلت بعد ذلك عن زوجها وأصبحت أنا وإيمّا وإميلي ثلاثي لا ينفصل عن بعضه، واعتدنا على أن نتقابل شبه يومي بمطعم النادي الروسي — الذي ظل تذكيرًا للحرب الباردة — لتناول الويسكي والكولا وفطائر البييتزا ثم نذهب لصالات الديسكو

البلغارية ونقضي بها بقية ساعات الليل.

وانتقلت الفتاتان من بلغاريا إلى نيويورك تقريبا في نفس الوقت الذي بدأت فيه إجراءات الالتحاق بوكالة الاستخبارات المركزية، وتعمل إيمّا حاليّا في مجال إنتاج الأفلام بينما تعمل إميلي بإحدى دور النشر، وبينهمكان في عملهما بجد شديد طوال الأسبوع ثم ينتقلوا للانغماس في المتع في عطلات نهاية الأسبوع. وأحاول جاهدة في هذه الفترة أن أستمتع بكل عطلاتي الأسبوعية قدر الإمكان لعلمي بأن جدول تدريبي سيزدحم في الفترة القادمة ولن يسمح لي بالذهاب لأي مكان، وعلى الرغم من أنني كنت أتهرب من إجابة الأسئلة التي تتعلق بعملي إلا أن الفتاتان لم تكونا تدركان مدى أهميتهم بالنسبة لي فقد كانتا الرابط الذي يجعلني متصلة بالعالم الخارجي أثناء إبحاري في عالم الوكالة الغريب.

وكانت الفتاتان تذكراني بالوقت الذي لم أكن ملزمة فيه بكتابة تقارير عن كل شيء أفعله، وبالأيام التي لم أحتاج فيها تصريحًا للسفر أو للحديث مع أجنبي، وبالزمان الذي كان بإمكانني فيه أن أتخذ القرارات الخاصة بي، وبالماضي الذي لم أشعر فيه بالوحدة الكثيفة.

وعلا ضجيج الحفلة بشكل غير عادي وكأنه هدير، وأزعجني

كشف المستور

صوت ضجيج الموسيقى الذي يكاد يدمر الساعات فانتقلت من حجرة المعيشة المكتظة بالناس إلى المطبخ خافت الإضاءة فوجدت سراش يقطع رغيفاً فانزعج لرؤيتي وانحنى على ما كان يقطعه وكأنه طالب يخفي ورقة الإجابة عن بجواره حتى لا يغش منه فقلت له وأنا أعود أدراجي إلى غرفة المعيشة : معذرة، كنت أبحث عن صديقتاي.

ووجدت بعد ذلك إيما وإميلي أمام باب دورة المياه تضحكان بصوت عالي وبهستيرية فسألتهما : ما الأمر المضحك ؟ ووضعت إميلي ذراعها على كتفي واحتضنتني إيما من الجانب الآخر، وقالت إميلي وسط نوبات الضحك : لا شيء، كل ما في الأمر أن سراش مرتاب تماماً، ويعتقد أنك ستخرجين شارة ما فجأة وتعتقلين كل من بالمكان.

ولم أجد ما أقوله أو أفعله إلا الانخراط معهم في الضحك، وعلى الرغم من أن الفتاتان كانتا شبه غائبتان عن الوعي إلا أنني أحسست منهن بالحماية في هذه الحفلة الغريبة، وضحكت عندما تذكرت ما يمكن أن يفكر فيه ضباط مكتب الأمن بالوكالة تجاه مثل هذا السلوك، وكانت هذه اللحظة من اللحظات التي جعلتني أدرك مدى الغرابة التي حلت بحياتي.

* * * * *

منعني أكثر من سبب عن التوقف وترك الوكالة عندما بدأت الشكوك تساورني، فقد جعلتنا الوكالة نشعر من البداية كما ولو أننا ليس بإمكاننا الرحيل، أو على الأقل ليس الرحيل اختياريًا، فقد وقعنا على اتفاقيات سرية تعطي الوكالة صلاحيات واسعة في اتخاذ الإجراءات ضدنا، وقال لنا ضباط مكتب الأمن بمنتهى السرور : سنتعقبكم.

وقالت امرأة ضخمة ترتدي بذلة رسمية وتقف خلف منصة تضع قبضتها الضخمتان على سطحها : لقد فعلنا هذا في الماضي وسنفعله مرة أخرى، وأعتقد أن الشخص الذي يحاول أن يستخف بالوكالة يرتكب أشد حماقات وأفظعها، ولا تفكروا في وضع خبرتكم بالعمل بالوكالة في سيرتكم الذاتية فليست هذه مؤسسة أعمال تجارية، وسننكر أي معرفة بكم في حالة تلقي اتصال من أرباب أعمالكم.

وتخيلت نفسي في إحدى المقابلات الشخصية أقول للذي يجري معي المقابلة : " نعم، يمكنني أن أفسر لك يا سيدي العامين الذين لم أتطرق لذكرهما بالسيرة الذاتية لكنني سأضطر لقتلك أولاً. " وبدأت أشعر أن خياراتي خارج الوكالة تتضاءل رويدًا رويدًا، وأنه ربما كان أفضل شيء يمكنني فعله هو الاستمرار في هذا المجال.

كشف المستور

وبعيدًا عن محاولة الوكالة زرع الخوف في قلوبنا تلقينا خدعة جديدة ؛ فقد وعدنا من قبل الوكالة بالسفر خارج الولايات المتحدة خلال عام في عطلة نقضيها بمنازل أكثر رفاهية من تلك التي يستخدمها موظفي البيت الأبيض مع تأمين السرية التامة، وبغض النظر عن كل هذا فإن الإقامة المرفهة لضباط وكالة الاستخبارات المركزية بالخارج والتي تشبه أماكن إقامة نظرائهم من موظفي الرئاسة تمثل كشفًا لغطاء ضباط الوكالة وتمكن السكان المحليين من تحديدنا بمنتهى السهولة.

وأخبرنا مسئولو الوكالة أننا ستتاح لنا كافة التسهيلات للقيام بأعمال تجارية بكل مكان نذهب إليه، وبالإضافة لذلك فإننا سنحصل على بدل مخاطر في حالة العمل في الأماكن التي يمثل العمل فيها خطورة عالية، وصدمت عندما علمت أن صوفيا عاصمة بلغاريا — التي أعرف تمامًا أنها بلدة مريحة وأنها مكان ملائم للمواطن العالمي — تصنف على أنها منطقة عالية المخاطر وأن ضباط الوكالة الذين يعينون بها يتلقون أكبر راتب على الإطلاق.

وكانت المفاجأة عدم وجود أماكن شاغرة بالبلقان، ولم أكن التحقت بالوكالة لأعمل بلندن أو باريس ؛ بل على العكس من ذلك كنت مفتونة بالعمل في المناطق النائية كالمقاطعات الجنوبية

كشف المستور

ببلغاريا، وحسبت أنني لو عملت بإحدى هذه المقاطعات البائسة لدورتين فإن بإمكانني أن أسدد قرض دراستي الجامعية في أقل من خمس سنوات.

وكان أحد إغراءات الوكالة التي جعلتني أفضل البقاء ؛ إستراتيجية التدريب في حد ذاتها التي تقضي بالعمل في ثلاث مهام لثلاث شهور بثلاث إدارات مختلفة، ويلى ذلك الانتقال لتلقي تدريبات عسكرية وتعلم القفز من الطائرات، وأحسست أنني على وشك القيام بالمغامرات المثيرة لذلك أزحت الأفكار المقلقة جانباً وتطلعت للأيام الأفضل القادمة.

كلفني في المهمة الأولى بالعمل بالقسم المركزي لمنطقة الأورو- آسيوي، وكانت المفاجأة التي أذهلتني بعد أسبوع من العمل عدم وجود ضابط مسئول عن مكتب كازاخستان لعدة شهور، ونتيجة لذلك فإن كافة المراسلات التي أرسلها ضباطنا بكازاخ¹ والماتى² تم تجاهلها تماماً.

وقرر رئيس وكالة الاستخبارات المركزية بالماتى استغلال فرصة وجودي بمكتب كازاخستان بالإدارة العامة واقترح ترتيب رحلة لنظرائنا من ضباط الاستخبارات الموجودين بكازاخستان،

¹ عاصمة كازاخستان .

² أكبر مدن كازاخستان بعد العاصمة كازاخ

كشف المستور

وكلفت بترتيب إجراءات زيارتهم وحجز الفنادق ووضع البرنامج الترفيهي الخاص بهم وأهم ما فيه الحانات التي سيقضون بها سهراتهم.

ولم يتوجب علي مقابلة أي من الكازاخيين وجهًا لوجه حفاظًا على سرية شخصيتي ؛ فامتنت لهذا كثيرًا لأنه بدا من صورهم أنهم أشبه بعصابة من السفاحين، وأرسل لي الكازاخيين عشرة دولارات لأشتري لهم هدايا تذكارية من متجر الوكالة فاشتريت لهم عشرات من المكعبات الزجاجية والأقلام التي تحمل شعار وكالة الاستخبارات المركزية.

وكان الترتيب للزيارة عملًا مضمّنًا وليس فيه أي متعة فلم يشغلني إلا حجز الفنادق وأماكن العشاء والحافلات التي ستصحبهم أثناء برنامج الزيارة ومعرفة مواعيد عمل المتاجر التي سيقصدونها، وتأمين أنشطة مضلة لزوجات الكازاخيين لإبعادهم عن أزواجهم في الأوقات التي سيقضونها بالحانات التي تمارس فيها الفحشاء، وأحسست أنني أتأرجح ما بين شخصية فتاة محترمة وأخرى قوادة.

وبعد انتهاء الرحلة أرسل رئيس استخباراتنا بالماتي بريدا إليكترونيا لرئيسي بالإدارة الرئيسية يمتدح فيه مجهوداتي وأخبره أن الكازاخيين سكرّوا وأكلوا الكثير من شرائح اللحم

كشف المستور

واستمتعوا برقصات الحانات بينما كانت زوجاتهم تستمتع بمياه
الحمامات الدافئة وبأكوام الملابس التي اشترينها.

وكتب رئيس الوكالة بكازاخستان قائلاً : " كانت الرحلة ناجحة
بصورة تفوق الوصف لعدم إغفال متدربتك لأي جزء من
التفاصيل، وأتنبأ لها بمستقبل واعد بمنظمتنا. "

* * * * *

وكانت مهمتي الثانية هي العمل كضابط تقارير مختصة بما يتعلق بدول البلقان، وكانت الأولوية في هذا الوقت لما يتعلق بالسياسة الخارجية لدول البلقان، وكانت مهمتي تتعلق تحديدًا بجمهورية مقدونيا اليوغسلافية

(سابقًا) التي كانت دولة صغيرة مجاورة لبulgaria التي أحبها، ولم أزر مقدونيا أبدًا طوال العامين الذين قضيتهما ببلغاريا على الرغم من أنها كانت بلدة تستحوذ كثيرًا على تفكيري لتمتعها بالبحيرة الأسطورية أوهريد أكبر وأعمق بحيرات البلقان التي ينبع ماءها الأسود من أكثر المقاطعات انخفاضًا بألبانيا.

وكانت مقدونيا في هذا الوقت الجمهورية اليوغسلافية الوحيدة التي لم تتدخل بها حروب أهلية أو يحدث فيها تطهير عرقي على الرغم من أن الكثير من سكانها مسلمون ألبان والغالبية العظمى من السكان سلافيين أرثوذكس، وبدا لي هذا أمرًا غريبًا في هذا الجزء من العالم غير المتناعم مع بعضه.

وكانت مهمتي كضابط تقارير هي أن أمحو من الأخبار التي تردنا من سكوبجي عاصمة مقدونيا أي معلومات تقود إلى مصدر الخبر، وبعد هذا ينزع عن المعلومات صفة (سري للغاية) وترسل لمحللي إدارة الاستخبارات لمطابقة هذه المعلومات بالمعلومات الأخرى التي لديهم، وأحيانًا ما يتم إعادة

كشف المستور

صياغة بعض التقارير لترسل إلى بعض أعضاء الكونجرس في
أوقات معينة، وعلى الرغم من أن عملي بالمهمة الثانية لم يكن
مثيراً إلا أنه كان أفضل من حجز حانات البغاء.

* * * * *

كشف المستور

اعتاد أعضاء فصلي التدريبي على التقابل باستمرار بمطعم
الوكالة، ولم تكن رابطة بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة، بل كنا
عبارة عن خليط من العسكريين السابقين والقليل جدًا من
الأكاديميين ؛ فلم تعد الوكالة كسابق عهدها امتدادا طبيعيا للحياة
الأكاديمية ولم يكن هناك إلا شاب واحد متخرج من جامعة ياييل
وآخر من جامعة هارفارد يدعى وارن.
وكان وارن يسبقني بالعمل في الوكالة بعام وعلى الرغم من ذلك
لم نتقابل كثيرًا، ودرس وارن القانون بهارفارد واشتهر بادهائه
أنه ترك مرتبًا من ستة أرقام بشركة محاماة بلندن من أجل
الالتحاق بالوكالة ولم يكن مؤهلًا للعمل بالوكالة بصورة
واضحة جدًا، وليس هذا لانخفاض مستوى ذكائه بل إنه كان
ذكيًا جدًا ويتحدث نصف دسّة من اللغات الأجنبية بطلاقة، وإنما
كان هذا بسبب تبلد مشاعره تمامًا ؛ ولسوء الحظ كانت هذه
ميزة رائعة في الضابط الميداني.
وبغض النظر عن ميله للمبالغة في إظهار ردود أفعاله أو التذمر
من القيام بالمهام البسيطة وتدريبات المحاكاة الأساسية فقد كان
دائمًا ما يحضر للفصل متأخرًا، ويفوت مواعيد كاملة، ويغفو
تقريبًا في كل المحاضرات، والأسوأ من هذا أنه كان يكشف
غطاءنا في بعض الاجتماعات العامة.

ودعانا وارن ذات مرة لحفلة أقامها، ودعا لهذه الحفلة بالإضافة إلى متدربي فصلنا عددًا هائلًا من الأجنيبات تعرف على أغلبهم بصالات المطار، ووقف أغلب مجموعتنا في صمت كئيب بينما وارن يعرفنا بضيوفه على نحو صاخب ويشوه أسماءنا الحقيقية بخلطها بمواقع عملنا داخل الوكالة ثم يتدارك خطأه ويضرب جبهته بيده مقلدًا هومر سيمبسون.

ولم أدري السبب الذي جعلني أحب وارن والأشخاص القليلين الذين أضافوا روحًا لفصلنا الكئيب، وكان وارن الشاب خريج يابل رجلا مقاوما عنده العديد من الحكايات عن فترة وجوده بأدغال أفريقيا للقيام بأبحاث الدكتوراه وقيادة فرق راكبي دراجات من طلاب الثانوية العامة أثناء رحلاتهم، وكان وارن طويلًا أبيض تعكس ملامحه طبيعته الأكاديمية، وأحيانًا ما كان يتحدث بإحدى اللهجات الأفريقية المحلية ولم يكن أحد يعرف ما إذا كان يتحدثها فعلًا أم أنه يدعي ذلك، وأحببت سخرية روب ضابط الشرطة السابق بلويزيانا وتسميته لي بـ "آنسة هارفارد الصغيرة" وكان يتمتع بروح فكاهة عالية جعلتني ألجأ للحديث معه لأضحك حتى أتمكن من التغلب على الكآبة الجاثمة على المكان. أما الغالبية العظمى من زملائي فكانوا عبارة عن خليط من الأشخاص المشتركين في صفة واحدة وهي الغطرسة التي

كشف المستور

لا حدود لها، ولم يكن هذا غريبًا بسبب اعتياد موظفي الوكالة على التمييز في المعاملة بين الضباط الميدانيين وغيرهم من الإدارات الأخرى، ونظرتهم للضباط الميدانيين على أنهم الصفوة وظل الجميع يذكرنا يوميًا بأننا "الأفضل والأذكى"، وسخرت في نفسي من هذه الطريقة في التفكير لأنني درست بهارفارد بين العباقرة والنوابغ، وعرفت حدود إمكانيات ومواهب مجموعة التدريب التي كنت بها ؛ لذلك كنت على يقين من أن تصنيف المسؤولين بوكالة الاستخبارات المركزية لنا على أننا "الأفضل والأذكى" محض هراء.

وعاملنا مسئولو وحدة التدريب السرية كالأطفال المدللين واهتموا بإطعامنا وراحتنا ؛ حتى إننا حين كنا نقوم بالأعمال التافهة كانوا يقنعوننا بأننا نساهم في مهمة كبيرة جدًا، وربما كان هذا أحد الأسباب التي جعلتني أستمّر في العمل بالوكالة.

* * * * *

كشف المستور

اهتممنا أثناء فترة التدريب اهتمامًا كبيرًا بـ " الغطاء " فاستخدم أغلبنا أسماء مستعارة ولم يعرف أحد منا اسم العائلة الحقيقي لأي من الأشخاص الآخرين، ولم نبج أبدًا لأي أحد بأية تفاصيل تتعلق بحياتنا خارج الوكالة.

وعلمنا خلال المحاضرات التي تلقيناها عن الاستخبارات المعادية ؛ خيانة كلًا من جيم نيكلسون Jim Nicholson والدریش أميس Aldrich Ames الضابطان الميدانيان اللذان عملا لصالح الروس ودمروا عددًا من عمليات الوكالة طوال عدد من السنوات، وباع أميس للسوفيت عددًا من العملاء الروس الذين كانوا يتجسسون لصالحنا وأعدمتهم المخابرات السوفيتية KGB الواحد تلو الآخر، أما نيكلسون الذي تم تجنيده من قبل الاستخبارات السوفيتية أثناء قيامه بالعمل كمدرّب بالمزرعة فقد قام بإمداد المخابرات السوفيتية بقائمة بأسماء الضباط الجدد الذين يتم تدريبهم بالإضافة إلى قوائم بأسماء مسؤولي وحدة التدريب السرية والضباط الشبان المقرر ذهابهم لموسكو، ونتيجة لذلك قامت الوكالة بزيادة رواتب المدرّبين بصورة كبيرة ولم يعد الآن مسموحًا للمدرّبين بمعرفة الأسماء الحقيقية الكاملة لطلابهم.

وأدت حالات الإخفاق الكثيرة التي تعرضت لها أعمال الوكالة

كشف المستور

خلال أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات بسبب خيانة نيكلسون وأميس إلى تدني الروح المعنوية للعاملين بالوكالة، واتخذت الوكالة إجراءات لزيادة صرامة المعايير الأمنية وتقسيم المعلومات لدرجة أن الضابط الميداني بإدارة العمليات لا يمكنه أن يطلع على معلومة إلا طبقاً لقواعد الحاجة للمعرفة. ولسوء الحظ فإن هذه التعليمات لا تطبق على الرغم من صلاحيتها للتطبيق، وأغلب الموظفين — بمن فيهم أنا — يعرفون أكثر بكثير مما يحتاجون معرفته.

والأكثر سخرية أننا قيل لنا: إن الموظفين الذين يضعون شارة رمادية مثل عمال المطعم والحراس هم آخر من يحتاج للإطلاع على معلومات الوكالة ولذلك يرتدون زياً رسمياً موحداً للتمييز بينهم وبين ضباط الوكالة، وكنت على يقين من أن هؤلاء الموظفين الذين يتجولون طوال النهار بردهات الإدارات المختلفة للوكالة ويقفون بها لفترات طويلة غير مدركين خطورة المؤسسة التي يعملون بها وسرية المعلومات التي تتداولها. وكان من حق الموظفين والمحليين والعلماء والإداريين أن يخبروا أسرهم وأصدقائهم أين يعملون على خلاف من سيصبحون في المستقبل ضباط ميدانيون ولذلك كنا شديدي الاهتمام فيما يتعلق بغطائنا، وأحسست بالإثارة عندما أخطأت

مجلة خريجي هارفارد في نقل البيانات التي أعطتها لها زميلتي في السكن أثناء الدراسة بأني أخطط للعمل في وزارة الخارجية فكتبت المجلة أنني أخطط للعمل بالغابات، وكان البعد عن الحقيقة أفضل بكثير واستخدمت هويتي الجديدة كحارس غابة.

ولم يكن أغلب سكان واشنطن العاصمة أغبياء فعندما كنت أحضر حفلًا وأسأل عن عملي وأجيب بأني أعمل " في الحكومة " كانت تأتيني الإجابة الفورية والثابتة : " آه، تعنين أنك تعملين بوكالة الاستخبارات المركزية.

وعلمنا أننا بتقدمنا في مجالنا يتآكل غطاءنا بصورة طبيعية. وقال لي أحد رؤسائي الأوائل : يمكنك أن تحددى ضابط الوكالة في أي حفلة ؛ فدائمًا ما يكون هو الذي يقف بعيدًا عن الآخرين بينما يتجمع الحرس الرئاسي بأحد زوايا المكان. وعلى الرغم من تأكدنا من أن غطاءنا واهٍ إلا أننا تمسكنا بالدفاع عنه بقوة في البداية، وتعودنا أثناء وجودنا بفصل وحدة التدريب السرية على التفكير الجماعي ونقصتنا القدرة على مناقشة أي أمور بعيدة عن عمل الوكالة.

وأقصينا أحد شباب مجموعتنا عن حواراتنا عندما اكتشفنا أنه أخبر صديقته بحقيقة عمله بالوكالة، وصاح أحد المهووسين بالغطاء قائلاً : " لقد عرضنا جميعًا للخطر ". وتبعه الآخرون في

غضب، وصاح أحد المتعصبين : " ما أدرانا بحقيقة هذه الفتاة ؟
وعنى الحفاظ على الغطاء بالنسبة لي البقاء في عزلة
ويقظة. وأثناء تناول العشاء في عيد الشكر مع أقاربي كنت قد
رتبت نفسي للإجابة على تساؤلاتهم حول طبيعة عملي، وبذلت
قصارى جهدي لأبدو طبيعية وأنا أشرح لهم كيف أذهب للعمل
كل صباح وهل تطل نافذة مكنتي على منظر خلاب أم لا.
واستخدمت خيالي في صياغة قصة عن طبيعة عملي بأحد
المباني الحكومية بوسط البلد بواشنطن العاصمة، ولم أتذكر
المبنى المقابل للمبنى الذي يفترض أنني أعمل به فبررت هذا
بمبررات غامضة مثل " أذهب مع أحد زملاء العمل بسيارته "
و " مكنتي بالقرب من الردهة الزرقاء " مشيرة إلى لون ممرات
المؤسسة التي أدعي أنني أعمل بها، لكن غالبًا ما كان الناس —
خصوصًا أقاربي — ما يلحون طلبًا للمزيد من المعلومات
التفصيلية، وفي نهاية المطاف أخبرتهم أنني أعمل بأحد وكالات
الحكومة بفيرجينيا، وأنا متأكدة من أنهم فسروها على أنها وكالة
الاستخبارات المركزية.

وأمدت الوكالة كل مقرب برقم هاتف لمكتب بواشنطن العاصمة
ليعطيه للأصدقاء وأفراد الأسرة كنوع من التمويه، وكان اسم
مكنتي البديل " القضايا الإقليمية " واعتبرت هذا الغطاء مهلهلًا.

كشف المستور

وطلبت من أمي ذات يوم أن تتصل بهذا الرقم وتسال عني
بالاسم كمجرد اختبار، وقالت لي أمي أن الهاتف ظل يرن
لحوالي خمسة عشر مرة قبل أن يجيب رجل قال في سخط "
مرحبًا"، وعندما سألت أمي عني تردد الرجل كثيرًا قبل أن
يطلب من أمي أن تقدم رقم تأميني الاجتماعي، ثم تركت أمي
معلقة على الخط لبضعة دقائق سمعت فيها أصوات أشبه
بأصوات مزاح في مكان فسيح وكأنها اتصلت بهاتف موجود
بأحد السجون. وبعد ما بدا وكأنه بحث لا نهائي عاد الرجل ليخبر
أمي أنه على الرغم من أن ليندسي موران تعمل بـ " مكتب
القضايا الإقليمية " إلا أنها غير موجودة بمكتبها، ويمكن لأمي
أن تترك لي رسالة إن كان الأمر طارئًا. وكانت هذه هي المرة
الأولى والأخيرة التي أعطيت فيها أحدًا رقم هاتف مكتب
القضايا الإقليمية.

وأصبحت أمي لا تعرف ما الذي تقوله لصديقاتها فكانت تردد
لهم : " لو أنكم أردتم معرفة ما تقوم به ليندسي فاسألوها ! "
وكانت تتردد عندما يوجه لها هذا السؤال حتى إن أحد جيرانها
خمن من حضوري وانصرافي في أوقات غريبة وتهربي من
الإجابة أنني حتمًا عاهرة، ولم تملك أمي إلا أن تهز كتفيها وتقول
: " كيف لي أن أعرف ؟ أنا لست أكثر من أمها. "

وتعرضت لاستجوابات قاسية من قبل زملائي خارج الوكالة عن طبيعة عملي، وبمرور الوقت حسنت من ردودي حول ما يتعلق بغطائي حتى صرت أتقبل تلميحات أكثر تهذيماً من قبل، وبحلول عيد الشكر من العام التالي صرت أكثر براعة في الحديث عن غطائي وإعطاء تفاصيل دقيقة عنه لدرجة أن أمي قالت لي أخيراً: إنها بدأت تصدق فعلاً أنني أعمل بمكان آخر.

وعلى الرغم من ذلك لم أشعر بالراحة لكثرة تربيدي الأكاذيب، واختلف الأمر الآن عنه أثناء الطفولة، لأنني كنت أكذب في مرحلة الطفولة للمزاح واللهو أما الآن فأنا أكذب لأن الكذب حتمي ويتخلل كل معاملاتي، وفي ذات مرة قالت لي ضابط ميداني: " احترسي فقد بدأت الآن تكذبين بشأن وظيفتك وقريباً سيزول هذا الحد وستكذبي فيما يتعلق بكل شيء "، وكانت هذه المرأة تزوجت ثلاث مرات من داخل الوكالة، وقالت لي: " احفظي مني هذه الكلمات ؛ سينتهي بك المطاف زوجة لأحد هؤلاء الحمقى ".وآلمني هذا كثيراً لدرجة أنني صرت أنبل كل يوم أكثر من سابقه، ولم يبد على أحد الرجال الذين يعملون معي أي اهتمام بي خلافاً للصورة التي رسمتها هوليوود في أفلام الجاسوسية مثل فيلم " لعبة الجاسوسية " أو فيلم " التوظيف " حيث البطل مهتم بمشاعر الآخرين ويعاني من الصراع الداخلي

بسبب تعارض رغباته مع بعض مصالح العمل، وكان الواقع من حولي على خلاف هذا تمامًا فقد كان رجال الوكالة مبتدئين وثقافتهم ضحلة بصورة غير عادية ويقضون ساعات طويلة بمطعم الوكالة يفكرون في الطريقة الأمثل للترقي. وكنت وحيدة بصورة قاسية وافترقت ساشو وصديقتي، وقضيت أغلب فترة التدريب الثالثة بمكتب في ركن بعيد داخل قسم " الاستخبارات المضادة " وضيعت الوقت في تبادل الرسائل من خلال شبكة الكمبيوتر الداخلية مع زملائي في التدريب والاستماع للحوار المستمر بين السيدة بي والسيدة روزنفيلد اللتان قضيتا بالوكالة فترة طويلة، ولم يكن هذا الحوار بالكلمات بل بإطلاق الغازات طوال اليوم بصورة مقرفة وتساءلت عن السبب الذي أدى بي في نهاية المطاف إلى هذا المكان البشع.

* * * * *

أحسست بالخوف الشديد من أن أترك وحدي بإحدى الغابات فتأكلني الذئاب حية ثم تترك بقايا جثتي لتتحلل من شدة الحرارة ؛ وهذا هو ما دفعني للتركيز في أول الأيام التي بدأت فيها تلقي التدريبات العسكرية بمحاضرة عن معرفة الاتجاهات بعد محاضرة أخرى عما اعتبرته " بعض التحذيرات النظرية " ، وأعطى لكل منا بوصلة وعصاّتان مضيئتان، وبعد عدة ساعات حملتنا شاحنة قذرة لحافة إحدى الغابات المخيفة وحدد المدربون لكل متدرب إحداثيات موقع يبعد ميلاً على الأقل عن طرف الغابة، وكان المطلوب أن يشق كل منا طريقه للنقطة التي حددت له بالجانب الآخر من الغابة وبدأنا التحرك عند منتصف الليل. أطلقت اللعنات المرة تلو الأخرى كلما وجدت نفسي عالقة في أفرع الأشجار وتوقفت بين الحين والآخر لأنظر ببوصلتي، وسمعت بكل مكان حولي أصوات أوراق الأشجار والغصون تتكسر تحت ما ظننتها أرجل حيوانات مفترسة تتربص بي في ظلام الليل، ولم أكن لأفاجأ لو أن واجهني فجأة خنزير بري أو التف حول قدمي ثعبان كما تخيلت احتمالية ظهور أسد.

وحدد لنا المدرب ساعة واحدة للوصول إلى الجانب الآخر من الغابة، وأحسست وكان ساعات طويلة مرت علي فبدأت أياس

من احتمالية الوصول للجانب الآخر، ونظرت حولي بآلم بحثاً عن مكان نظيف أجلس لأبكي فيه، ثم تخيلت السخرية والاستهزاء الذي سأعرض له إن لم أتمكن من الوصول للجانب الآخر فاستجمعت ما تبقى من طاقتي ونهضت وبدأت التحرك. وعانيت كثيراً أثناء تخطي الأغصان المتشابكة حتى وصلت لمكان فسيح وجدت فيه المدرب جالسا على كرسي من النوع الذي يستخدمه مخرجي الأفلام وهو يدخل غليون ويدندن في هدوء، وتوقف عن الدندنة ليخرج نفساً كبيراً من الدخان تصاعد في الهواء وهو يقول : " ما الذي أخرج كثيراً يا سيدتي الصغيرة، لقد كنت موشكا على النوم ".

وقلت : هل أنا آخر من وصل ؟

وسمعت صوتاً من جهاز اللاسلكي الذي معه لأحد المدربين بمكان آخر بالغابة يعطي إشارة بوصول طالبه أيكي، وسمعت صوت أيكي في الخلفية، وقال لي المدرب : " لا يا عزيزتي لست آخر من يعبر "، ثم التفت لي وقال : " أنت في الحقيقة من أوائل من وصلوا، والآن اذهبي خلف المبنى وافحصي نفسك جيداً لتتأكدي من خلوك من القراد الذي أراهن أنه يغطيكم تماماً فانطلقت متجهه نحو أضواء بطرف الغابة وقابلت في طريقي كل خمسة وعشرين ياردة مدرباً ينتظر وصول طالبه.

كشف المستور

ووصلت أخيراً لشاحنة متهاكة وجدت أيكي وطالب آخر ذو
طاقية خضراء يدعى ديريك جالسين بها، ووقف المدرب أيد
الذي لا زلت أذكر اسمه بسبب شهرة غرابته الشديدة التي سبقته
بيني وبين الشاحنة مباعداً بين ساقيه وضامماً يده إلى صدره
فبدا أشبه بضابط بإحدى القرى الصغيرة يتولى مسؤولية رحلة
هامة.

وقال : أحسنت يا طفلي.

ثم غير من وقفته القتالية ليسمح لي بركوب الشاحنة فارتفعت
على أرضيتها بين أيكي وديريك، وأوماً لنا أيد وهو يغلق الباب
خلفنا وقال : سأعيد السيدات إلى المعسكر بالسيارة.

وبينما السيارة تتأرجح بنا على الطريق الوعر غير المعبد
تبادلت مع أيكي تفاصيل مغامرة الليلة بينما جلس ديريك يحملق
في الظلام وهو صامت فأحسست أنه متضايق لأن امرأة أنجرت
مهمتها قبله، وشعرت بنوبة من الفخر والسعادة ونظرت إلى
السماء الممتلئة بالنجوم التي لا ترى بواشنطن العاصمة بسبب
أضواء المدينة الكثيفة التي تحجبها.

وكان الجو حاراً ورطباً وأحسست بجسدي يئن عند كل مطب أو
حفرة بالطريق، وعلى الرغم من معاناتي من هذا الطريق الوعر
إلا أنني شعرت بنوع من الراحة لتخلصي من أحد مخاوفي،

ونمت على ظهري وتركت الظلام يلغني وأنا في منتصف الليل،
وفي منتصف لا مكان، ومضى وقت طويل قبل أن أدرك أنني
حية.

* * * * *

فسخت عقد إيجار شقتي في فصل الربيع وحزمت أمتعتي
وركبت مع باقي زملائي بفصل C بوحدة التدريب السرية حافلة
مدرسة صفراء انطلقت بنا جنوبًا إلى موقع مملوك لوكالة
الاستخبارات المركزية قرب ويليامسبرج بفرجينيا يدعى "
المزرعة"، وتعين علينا قضاء بقية العام فيه ونادرًا ما كنا نعود
لواشنطن حتى في العطلات الرسمية.
واضطرت أن أخلق قصة كاذبة مقنعة لتبرير غيابي المثير
للشكوك طوال أشهر التدريب فقلت: " أرسلتني الحكومة إلى
قاعدة عسكرية في نورفوك بفرجينيا وعينت في إحدى المهام
العسكرية الدبلوماسية التابعة للبلقان".

واستغللت في هذه القصة الوقت الذي قضيته ببلغاريا كدليل على
صدق روايتي، وبررت بالجانب العسكري من القصة سبب
ارتدائي حذاء برقبة طوال الأشهر الماضية، وقلت مبررة عدم
تواصلي مع أي أحد طوال فترة التدريب: " من الصعب جدًا
إجراء مكالمة من قاعدة عسكرية"، وكنت في الحقيقة خائفة من

كشف المستور

أن تؤدي قصتي إلى إثارة المزيد من التساؤلات فلم أكن قد ذهبت من قبل إلى نورفوك، ولا أعرف حتى كيف أصف طريقة الوصول إليها من واشنطن العاصمة، ولا الوقت الذي يستغرقه الوصول إليها.

تطلب برنامج التدريب العسكري في الأشهر القليلة الأولى ؛ التدريب على القفز من الطائرات والتأقلم مع طبيعة معسكرات الأسر، واستمتعت كثيرًا بهذا التدريب وكان بالنسبة لي الشيء الذي أحتاجه بشدة لاستعادة حماستي وقواي الذهنية. وقسمنا خلال برنامج التدريب إلى تسعة مجموعات تدريبية كل مجموعة مستقلة في كافة الأشياء عن المجموعات الأخرى، وربما كان ديريك هو أقوى من بمجموعتي، لكن لسوء الحظ فإن غضبه لوجوده بين متدربين مبتدئين عاثرني الحظ منعه من أن يكون مفيدًا لنا.

وكان مارك — زميلي في الفريق الذي خدم أيضًا بالجيش من قبل — أشبه بحلقة وصل بين ديريك وباقي أعضاء الفريق وخصوصًا المرأة التي كنا نسميها سالي العاصفة لأنها كانت عاصفة عاتية من الطاقة والأخطاء في ذات الوقت. واستاء ديريك بشدة من أداء سالي في التمارين التي كنا نقوم بها مثل ؛ القفز من الارتفاعات العالية، والزحف في المواسير،

والهبوط بالحبال إلى الأودية العميقة، والعديد من الصعاب الأخرى التي تطلب منا برنامج التدريب تخطيها. وكان تخطي سلسلة من العوائق القائمة أفقيًا هو أصعب ما مررت به، أما بالنسبة لمارك وديريك وروب وجونج وأيكي وأمثالهم ممن يبلغ طولهم أكثر من ستة أقدام فكان هذا التدريب نافيًا. وتمثلت المشكلة بالنسبة لي في أن حجم العائق الذي يجب على تخطيه يصل إلى صدري ومتقارب مع العائق الآخر لدرجة أنني لو نجحت في القفز على العائق الأول بسرعة — بطريقة ما — فإني سأواجه عائقًا آخر يقف في مواجهتي ويتطلب الأمر مني أن أتخطي خمس أو ست عقبات متتالية، وتجمع الشباب من الفرق الأخرى حول العوائق للاستمتاع بمشاهدة النساء وهن يحاولن تخطي العقبات، ففكرت في تكنيك يمكنني من تخطي العقبات الواحدة تلو الأخرى دون توقف ودون أن أسمح لأحد بالسخرية مني ؛ ونجحت.

ولم يتم احتساب وقت الفريق إلا بعد انتهاء الشخص الأخير من تخطي كافة العقبات والابتعاد عن العقبة الأخيرة بربع ميل، واتفقنا كفريق على أن نصل إلى خط النهاية في وقت واحد، إلا أن سالي لم تتعاون معنا كعادتها ووصلت بعدنا وهي تتعثر في رباط حذائها وتحاول إخفاء دموعها، وأدار ديريكي وجهه عندما

تعثرت قبل خط النهاية ببوصات قليلة ووجهها محمر من الخجل، وكان ديريك بذنباً في سلوكه معها فقال بصوت خافت : " العاهرة الباكية "، فغضبت بشدة من أسلوبه وقلت بصوت خافت أيضاً لكنه كان مسموعاً من الجميع : " الحمار المتعجرف "، وتسبب حبي لسالي وبغض ديريك لها في نشوء نوع من الجو العام الذي ساعد على تماسك الفريق.

* * * * *

وازدهم برنامج الأسبوع الأول بتدريبات التحدي حيث أعطي كل منا خريطة وبوصلة وطلب منه الوصول لنقطة معينة في الغابة وجد عندها تعليمات أخرى وهكذا حتى يتجاوز عشرة مراحل قبل أن يصل لنقطة النهاية بعد حلول الظلام ؛ وكنا قد بدأنا هذا التدريب منذ طلوع الشمس وأحسست بالتعب وقت الظهيرة، ونجحت في الوصول لكل نقاطي بعد عناء كبير وأحياناً ما كنت أتجول حول النقطة لمسافة ميل في كافة الاتجاهات قبل أن أتمكن من تحديدها، ولاحظت في طريقي عددًا من الغزلان لكنني لم أقابل أي شخص.

وفكرت لساعات طويلة في التوقف لتناول وجبتي، لكنني كنت مدركة أن هذا التدريب يعني التحدي وأن ديريك وروب وجونج وأيكي لن يضيعوا وقتًا في الاستراحة لتناول الغداء، وأقنعت نفسي أنني لو توقفت لتناول الغداء فسأجدد طاقتي وسأشعر بالشبع لباقي اليوم لو أنني أكلت المكرونة ذات الصلصة الرائعة، وشققت طريقي طوال الساعات التالية بين الغابات الكثيفة حتى وصلت نقطة التجمع قبل حلول الظلام بعد ديريك مباشرة، ولم أندش بسبب تضايقه من تقارب وقت وصولنا فقد كان تعصبه الذكوري هو أحد الأسباب التي أمدتني بالحماسة، ولم يسرني شيء قدر سروري برؤية وجهه مكفهر من شدة الغضب بسبب

نجاحي الذي كان يمثل نوعًا من النجاح لسالي التي ينظر ديريك لها باعتبارها غير مناسبة وسخيفة.

ولم يتمكن عدد كبير من المتدربين من إنهاء يومهم التدريبي ؛ فمثلاً أوفيليا — الفتاة الضئيلة شديدة العزم — استسلمت مبكرًا وجلست على جانب الطريق تنتظر لخريطتها في اكتباب حتى وصل أحد المدربين وأعادها للمعسكر، وعلق وارن المسكين في الغابة لساعات قبل أن يتمكن من أن يعود أدراجه للطريق وينتظر مدربه لينقله للمعسكر، أما سالي فوجدت قرب حلول الظلام شبه عارية في مستنقع وهي محطمة بسبب عدم قدرتها تحديد طريقها، وقررت فجأة أن تستحم واستخدمت طبيعتها الجريئة كوسام شرف، وضحكنا على نزعتها الاستعراضية. وأصبح الفصل C بوحدة التدريب السرية أكثر ترابطًا بمرور الوقت، لكن المنافسة استمرت على حدتها، وربما كان أشد المتنافسين بفصلنا ضراوة امرأة كورية — أمريكية تدعى جين سوك، وكنا نقوم يوميًا بتدريبات بدنية تبدأ في الساعة صباحًا وتختلف طبيعة التدريبات من يوم لآخر فأحياناً ما تكون عبارة عن جري مسافة خمس أميال داخل الغابة أو ساعة من السباحة، واعتادت جين سوك أن تستيقظ في الساعة الرابعة صباحًا تمارس العدو أو تمارين الضغط، وفي يوم اختبار اللياقة البدنية

كشف المستور

كان الاختبار عبارة عن ممارسة لتمارين الضغط والقيام والجلوس لمدة دقيقتين بأسرع ما يمكن والجري مسافة ميلين في وقت قياسي، واغتازت جين مني بشدة في صمت وبصورة واضحة عندما تمكنت من القيام بعدد أكبر من تمارين الضغط والقيام والجلوس السريع بصورة أذهلتها، ومن هذه اللحظة صرت المنتقمة لا إرادياً من جين، وساهمت طبيعة شخصياتنا المختلفة في أن يحدث بيننا تقارب وتنافر مستمر.

* * * * *

بدأنا بعد ذلك برنامج تدريب على قيادة السيارات تحت مسمى "اصدم واحرق" واستمر هذا البرنامج لأسبوعين، وتدربنا في اليوم الأول على القيادة السريعة في وقت زمني محدد، والانعطاف عدة مرات أثناء القيادة بأقصى سرعة والالتفاف حول الأقماع المرورية ثم العودة للالتفاف حول نفس الأقماع بطريقة عكسية، ولم أكن بارعة في القيادة لذلك حطمت مضمار السباق في قيادتي الأولى ودهست كافة الأقماع مما أدى إلى معاقبتي بإضافة ثواني أخرى لوقتي المتأخر أصلاً بصورة مضحكة، وكان أدائي هو الأسوأ في الفصل كله واكتسبت بسبب هذا لقب " الأنسة زهرة الربيع " مما جعل جين سوك تبتهج بشدة. وقضينا الأيام الخمس التالية من الصباح حتى المساء في التدريب على أساليب المراوغة في القيادة على مضمار السباق وحول الأقماع، وتمثل جزءاً من مشكلتي في الخلفية المرتفعة للسيارة التي كانت تعوقني عن رؤية الطريق من الخلف عند القيادة العكسية بسبب قصري، وقال مدربي عندما قلت له هذه الملحوظة لأوضح له سبب أدائي المتدني : " ليست هذه مشكلة، ينبغي أن تتم القيادة العكسية دون النظر إلى الخلف، وكل ما عليك هو استخدام المراة التي أمامك " .

ومنذ هذه اللحظة صرت أنظر في المراة بغضب أثناء قيادة

السيارة إلى الخلف وأقطب جبيني من شدة الغيظ حتى تظهر عروق وجهي، وأحسست أنني أتنافس مع الآخرين بطريقة جين سوك، وتسبب لي مضمار القيادة نوعًا خاصًا من الغضب فقررت ألا أسمح للخوف بأن يشلني.

وعلى الرغم من ذلك لم أرتح لقيادة السيارة في دوائر بسرعة تبلغ مئات الأميال في الساعة وكانت معدتي تتوَعك بشدة حتى أصبحت على وشك التقيؤ، وأثناء قيادتي ذات يوم حيث يفترض أن أقود السيارة للخلف بهدوء ثم أتحرك في خط ملتوي بين تشكيل من الأقماع المرورية ارتبكت في القيادة وزاد اضطرابي بشدة وقفز المدربون المرتاعون بعيدًا عن جانب الطريق باحثين عن مكان يختبئون فيه بالغابة خلف الأشجار الكثيفة.

ونتيجة لذلك تعرضت لبعض التوبيخ البسيط الذي لم يكن مثل الإهانة التي تلقّتها جين سوك عندما قادت سيارتها إلى حفرة فانفتحت حقيبة هواء السيارة، ولم تتضايق جين من الحروق التي ظل أثرها بوجهها لأسابيع تالية قدر تضايقها من الفشل العلني، وحطمت سالي العاصفة سيارتين من سيارات التدريب، لكنها كانت راضية إلى حد ما عن النتائج التي سجلتها.

وفي اليوم الأخير من الأسبوع الأول لبرنامج التدريب "اصدم واحرق" أعيد اختبارنا في القيادة، وتشبّثت أصابعي المعروقة

بعجلة القيادة انتظاراً لدوري، وقال لي بعد ذلك المدرب الذي أجرى لنا الاختبار أنه لم ير في حياته من قبل نظرة الإصرار التي رآها بعيني وأنا أجعل عجلات السيارة تكاد تذوب من شدة احتكاكها بالأرض عندما أطلقت إشارة البدء، وانطلقت بسرعة جنونية، وعلى الرغم من هذا كان ترتيب الوقت الذي استغرقته هو الأبطأ، ولم أسقط قمعاً واحداً، واكتسبت لقب " المتحسنة ". وتضمن برنامج الأسبوع الثاني من تدريب " اصدم واحرق " التدريب على كيفية استخدام سيارات الكاديلاك والمونت كارلو لتخطي العوائق ؛ مثل السيارات التي تعوق الطريق والأسوار الخشبية والحوائط الصلبة، وكان المدرب ينزل راية — مثل ناتالي وود في فيلم " ثورة بلا قضية " — ويتوقع من الطالب أن يضغط على دواسة الوقود وينطلق في اتجاه العائق دون أن يظرف له جفن، وهدف هذا التدريب هو أن يثبت إمكانية تخطينا عدد من العوائق المختلفة ونبقى أحياء.

وعندما جاء دوري لأنطلق في اتجاه سيارتان تقفان في طريقي ؛ أغمضت عيني لحظة التصادم ثم فتحتهما بعد ثانيتين فذهلت لبقائي على قيد الحياة سليمة تماماً وخلفي حطام السيارتين.

وبعد التدريب لأربعة أيام تالية على اقتحام العوائق الصعبة، أخبرنا المدربون بأن نعد أنفسنا للتدريب الليلي، وكنت أتشائم

كشف المستور

وأشعر بالتعاسة من أي أنشطة تتم ليلاً ولا تحتوي على شرب
الخمور لأن القاعدة كلها كانت تخشى من أن يتعرض الأشخاص
الضعاف جسمانيًا مثلي للقتل أو الاغتصاب أثناء تفرقنا ليلاً،
بالإضافة إلى أنني لم أكن متأقلمة مع طبيعة التدريبات القاسية
التي تتم في الليل.

وتجمعنا في المساء بفصل قرب أحد النيران الكبيرة الموقدة
بالمعسكر لنأخذ اختباراً يتعلق بمدى معرفتنا بالمتفجرات التي
أخذنا فيها محاضرة واحدة في بداية هذا الأسبوع.

وأثناء إجابتنا على اختبار المتفجرات كان يدخل علينا ثلاثة
مدربين كل فترة ليختاروا طالباً من بيننا يأخذه معهم ويرجع
بعد حوالي عشرين دقيقة ليكمل اختبارهم مع تعليمات شديدة بالآلا
يتفوه بكلمة، وخفت عندما لمحت سالي العاصفة خارج الفصل
معصوبة العينين وهي تترنح ببطء.

وعندما جاء دوري تسارعت دقات قلبي، وأجلست وأنا معصوبة
العينين على المقعد المجاور للسائق بإحدى السيارات الخربة،
وجلس المدرب بجواري وقاد السيارة بسرعة جنونية لدقيقتين
وتوقفت السيارة وسمعت الأبواب تفتح والمدرّب ينزل ثم أتاني
صوته يأمرني بالجلوس على مقعد السائق وانتقل هو ليجلس
بجواري على المقعد الذي كنت أجلس فيه، ثم قال لي : " حسناً،

كشف المستور

والآن انطلقى. " وضغطت على دواسة الوقود ببطء والمدرّب يعطيني إرشادات الانحراف إلى اليمين واليسار، وأخيراً أمرني بالتوقف ونزع العصا من على عيني فوجدت نفسي بمكان أشبه بالحدود والمدرّبين يرتدون أزياء حرس الحدود ويحملون أسلحة وكشافات ضوئية، وتقدم مني أحد المدرّبين - الذي قضى أغلب حياته الوظيفية بأمريكا اللاتينية - وسلط ضوء كشافه في عيني وطلب مني شيئاً ما بالأسبانية التي لا أتكلّمها أو أفهمها، وخمنت من خلال ملابسه وطريقة كلامه أنه يطلب مني جواز سفرى فأخرجت له تصريح دخول المعسكر الذي أخبرنا المدرّبون منذ أسابيع أنه سيقوم بدور الهوية في أي مواقف محاكاة للمواجهات أو التعرّض للأسر.

وفي هذه الأثناء تجولت ببصري حولي في احتياج شديد باحثة عن مفر كان أحطم سيارة مثلاً لأفتح لنفسى طريق هروب، ثم تذكرت أننا تلقينا العديد من التعليمات التي تؤكد على ضرورة الحفاظ على رباطة الجأش واستخدام لغة الحوار في المواقف الصعبة بدلاً من الهروب أو القيام بالمناورات غير الضرورية لأن تعلمنا طرق الهروب لا يعنى أننا ينبغي علينا اللجوء إليها في كافة المواقف.

وبدا لي هذا الموقف أشبه بتلك المواقف التي ينبغي على

الخروج منها دون إثارة المتاعب أو الهروب بهدم الحوائط، واستمر جورج في الصياح في بعصية شديدة وهو يقول بالأسبانية كلاما كثيرا لم أفهم منه إلا كلمات " جواز سفر " و " ممنوع " وشيئا آخر أشبه بـ " مخدرات " وفي نفس الوقت تحرك مدرب آخر أمام سيارتي ليفحص مصدها الأمامي و غطاء السيارة، وعلى الرغم من هذا ظللت على يقين من أن الهروب ليس هو الحل الأمثل.

وفهمت من كلام جورج الذي رفع أمامي حقيبة مليئة بالأوساخ والبصل أنني أواجه اتهام بحيازة مخدرات، ولم يكن معي أي مال يمكن أن أرشوه به وفكرت في أن التلميح لمثل هذه الفكرة ربما يتسبب في المزيد من المتاعب فكررت بلغة أسبانية ركيكة " أمريكية، دبلوماسية أمريكية " وفهمت من كلام أحد المدربين مع جورج أنه يحاول إفهامه طبيعة موقعي.

ثم أمرني جورج أن أفتح أبواب السيارة وفتش هو ومن معه السيارة من الداخل ولم أتفاجأ عندما أخرجوا المزيد من الحقائب التي تحتوي على مسحوق أبيض، وأنكرت بمنتهى الهدوء معرفة أي شيء يتعلق بهذه المخدرات.

ويمكنني أن أقول أن دفاعي لم يكن مقنعا بالقدر الكافي لأنني قلت لنفسي : " هذا مجرد تمرين "، وانتابتي فجأة العديد من

كشف المستور

الأفكار، وأدركت أن المزيد من تلك الاختبارات سيهيئني بصورة أفضل للحياة العملية وسألت نفسي : " هل أنا حقاً قادرة على الاعتناء بنفسى فى حالة التعرض لمثل هذا الموقف فى الحياة الحقيقية إذا وجهت بدليل لعين سواء كان حقيقياً أو مدبراً من قبل الأعداء ؟ هل سأتمكن فعلاً من الحفاظ على رباطة جأشى ؟ أم أنى سأنهار وأكشف غطائى فى رعب وأصرر بإلحاح على مقابلة السفير أو — الأسوأ من هذا — مقابلة رئيس وكالة الاستخبارات المركزية بالمنطقة التى أتواجد بها لينقذنى من الأسر.

وأخيراً سمح لى جورج بالعبور وأعاد لى جواز سفرى، وأزال العائق الخشبى من أمام السيارة. وأظن أنه فعل هذا بسبب ملله من أدائى أو يأسه من احتمالية اعترافى بالتهريب أو الاندفاع بتهور لاختراق الحدود. وعلمت بعد ذلك أن بعض الطلاب — ومن بينهم سالى ووارن — قرروا الهروب بمجرد أن أزيحت العصابة من على أعينهم وتخطوا الحواجز فأسرع جورج وباقى المدرسين فى أعقابهم.

وطلب منى مرة أخرى أن أضع عصابة على عيني وأن أقود السيارة وأنا معصوبة العينين، وبعد دقائق أمرنى المدرب بالتوقف وسحب العصابة من على عيني فوجدت نفسى أقف

بالسيارة في نهاية رواق ضيق طول حوائطه ستة أقدام وبدأت عصابة من الرجال الملتئمين تقفز من على الحوائط وهي تطلق صيحات قتالية، وقفز عدد منهم على غطاء السيارة، ولحسن الحظ فإني كنت قد أغلقت الباب بعد خروج جورج من السيارة، وطالبت العصابة بالمخدرات وحاولوا فتح الأبواب دون جدوى وظلوا يطرقون على غطاء السيارة ويصيحون بطريقة غير مفهومة ويقربون عيونهم الشرسة من زجاج السيارة، ولاحظت أنهم يحيطوا بالسيارة من كل جانب باستثناء المؤخرة ففهمت بسرعة الهدف من هذا التمرين فنظرت في المرآة لأرى الطريق خلفي ثم انطلقت للخلف مسافة كافية تسمح لي بالالتفاف ثم أسرعت مطلقة الغبار خلفي.

وبمجرد أن التقطت أنفاسي أعيد وضع العصابة على عيني، ودعوت الله أن نكون هذه المرة في طريق عودتنا للفصل لأتمكن من إنهاء اختبار المتفجرات ثم أعود إلى الثكنة وأرتمي على سريي فقد كنت في غاية الإرهاق والتعب بعد أسبوعين من الجلوس على مقعد السيارة والقيادة بسرعة جنونية والمناورة بعجلتين فقط والتوقف المفاجئ ولوي عنقي لتفادي إيقاع الأقماع، وكنت فخورة لأن مهاراتي الحقيقية تختبر وأناي أهيا لمواجهة كافة المواقف، لكنني تساءلت : " ما الذي أفعله في

نفسى بحق الجحيم ؟ أليس كل ما أريده هو العثور على شاب لطيف والاستقرار ؟ "

وأزحت كل هذه الأفكار جانبًا وأنا أقود السيارة وسط الغابات معصوبة العينين وأمرني المدرب بالتوقف وبمجرد أن رفعت العصابة من على عيني وجدت مجموعة من قطاع الطرق ظهرت فجأة من وسط الظلام وهي تمسك بهراوات وتصيح بالبذاءات وأحدهم يطلق أعيرة نارية في الهواء من شدة الابتهاج، ولم أشعر الرعب قدر شعوري بالاستمتاع وعلمت بعد ذلك أن أحد المتدربين بلل سرواله من شدة الرعب، وأحسست أن المدرب يستمتعون بهذه التدريبات أقصى استمتاع، وبدأت لي المزرعة أشبه بلعبة متقنة مصممة لرجال لم ينضجوا أبدًا وأن عالم الجاسوسية ربما لا يكون أكثر من لعبة عالمية يلعبها أمثال هؤلاء الحمقى.

وأدركت هذه المرة أن السيارة محاطة من كل جانب باستثناء المقدمة التي وقفت أمامها سيارتين كعائق يمنعانها من التقدم، وفي هذه الأثناء تمكن أحد قطاع الطريق من فتح باب السيارة، وبدأ يدخل السيارة عندما ضغطت فجأة على دواسة الوقود بشدة وانطلقت بسرعة نحو النقطة الضعيفة بالعائق — كما تدربت طوال الأسبوع — فاخترقت العائق والتفتت خلفي لأنظر

كشف المستور

للسيارتين اللتين حطمتهما ثم ضغطت على دواسة الوقود بأقوى ما يمكن فتنبه المدرب لتصرفي وصاح : " ماذا تفعلين ؟ ! " وقلت لنفسي : " ربما تكون هذه اللعبة سخيفة لكني أبلّي فيها بلاء حسنا. "

وقيل لي بعد ذلك: إن أدائي كان رائعًا تمامًا في كافة اختبارات اصدم واحرق "، لكني رسبت في اختبار المتفجرات

* * * * *

لم يمتعني موضوع المتفجرات على عكس الرجال بفصلنا الذين افتتوا بهذا الموضوع، وتحتم علينا أن ننقل بعد الظهيرة إلى مبنى ملئ بالروائح الكيميائية لتعلم كيف نصنع قنبلة باستخدام مادتي الـ 4 - C والكلوروكس وشاهدنا انفجاراتها في المنطقة العراء الموجودة أمامنا، ودائمًا ما كنت أشعر بعدم الارتياح بسبب أصوات الانفجارات التي يتردد صداها بكافة أرجاء المعسكر.

وكان من الصعب على أن أتصور قيامي بفحص سيارتي كل صباح بناءً على تعليمات المدربين الذين أخبرونا بأن هذا إجراء احتياطي لازم اتباعه أثناء الإقامة خارج البلاد، وسمعنا العديد

من الشائعات عن الضباط الميدانيين الذين أصيبوا بجنون
الارتياب والخبل بسبب هذا الإجراء، وأدركت أن الجنون يبدأ
من هنا. وتعلمنا كيف نجمع ونفكك أسلحة الدمار المحدود
وأسلحة الدمار الشامل، ولو أنني اضطررت في الواقع أن أفكك
قنبلة فإنني لن أفكها أبدًا بالطريقة التي كنا نتدرب بها.
وقضيت أغلب أوقات المحاضرات الصباحية عن المتفجرات
أسرح بخيالي وأحلق في مستنقعات فرجينيا وأنتظر المدرب
حتى ينتهي من تفجير سيارة على بعد مسافة منا.
وبعد ذلك توجب علينا أن نسافر بضع ساعات جنوبًا لقضاء
أسبوع كامل من التدريب على المتفجرات، ومثل هذا عذابًا
فظيعًا لي باستثناء أنني أحببت الجو الغريب لمعسكرنا الجديد
حيث كنا ننام في حجرات أشبه بحجرات الفنادق بدلًا من التكنات
بالإضافة إلى أن السيدات بمطعم المعسكر قدموا لنا العديد من
الأطعمة المنزلية كالديجاج المحمر والبسكويت المصنوع بالزبد،
والتفاح المحمص الذي تعلوه القرفة، وكان الجو حارًا بصورة لا
تطاق وملئ بالحشرات الطائرة، واعتدنا أن نتناول الجعة مساءً
ونسبح في ضوء القمر، ووددت لو أن بإمكانني أن أظل أسبح
حتى أصل للنقطة التي يتقابل فيها ظلام السماء مع ظلام البحر.
وأثناء أسبوع التدريب على المتفجرات أصبحنا على معرفة بكل

العناصر البيولوجية، وكان عنصرًا واحدًا منها هو الملائم لأغراض التدريب، وسرنا في أحد أيام التدريب في طابور واحد ويدانا خلف ظهرنا حتى وصلنا غرفة وجدنا المدربين فيها وهم يضعون على وجوههم أقنعة الغاز وهجموا علينا بزجاجات بها رزاز الفلفل ورشوها علينا وهم مبتهجون.

وأحسسنا بالألم الشديد واحمرت عيوننا، وصحنا في غضب واحتجاج وصببنا عليهم اللعنة وطلبنا ماء فأخبرونا أن الماء سيزيد من الألم، ولم يتمكن بعضنا من الصبر فجروا إلى دورات المياه ونضحوا وجوههم بالماء، والتفت حولي دون أن أرى شيئًا ومفاصل يداي تغطي عيناى أملًا في أن يذهب الألم، وتصرفت جين سوك مع الموقف برزانة فتراجعت من الحجرة وسارت قليلًا حتى وصلت إلى شجرة فجلست تحتها متربعة القدمين وعيناها مغلقتان وكأنها تمارس أحد تمارين اليوجا.

وتلا هذا الأسبوع أسبوع تدريبي آخر تحت مسمى " الاستجابات أثناء السفر تحت اسم مستعار " وأعطيت لنا هويات ووثائق يفترض أن نحفظ كافة تفاصيلها، وأخبرنا أيد أننا سنقابل غدًا عملاء حقيقيين سيسألوننا عن هوياتنا، وقال لنا أنهم سيحاكون الواقع لكن بصورة أشد واقعية من الواقع نفسه وهم محترفون تمامًا وقادرون على انتزاع الحقائق لذا فمن الأفضل أن يحفظ

كشف المستور

كل شخص قصته تمامًا.

ودرس تفاصيل شخصيتي المستعارة تمامًا حتى إنني عرفت
برج كل فرد من أفراد أسرتي الافتراضية، وكان هذا التدريب
بمثابة ترفيه لي بينما واجه بعض زملائي متاعب مع
شخصياتهم خصوصًا من استعدوا بشراسة لمواجهة العملاء
الذين سيستجوبوننا، وعندما قابلتهم اكتشفت أنهم من أطف
الشخصيات التي قابلتها أثناء التدريب.

وذكرني العميل الذي تحدثت معي بساشو الذي لم أراه أو أتحدث
معه منذ اليوم الخريفي الذي قدته فيه لمطار دولس، وتذكرت
كيف اغرورقت عيناه بالدموع وهو يتفحص لوحة مواعيد
المغادرة لمعرفة موعد طائرته العائدة لسان فرانسيسكو، ولم أبك
وقتها لكنني بكيت طوال الطريق إلى المنزل ولم أعرف إن كنت
أبكي عليه أم على نفسي. وصار التفكير في ساشو في هذا الوقت
مؤلمًا، فعلى الرغم من جمال ذكرياتي معه إلا أنها بدت أشبه
بذكريات من حياة إنسانة أخرى، ولم أمنع عقلي من تذكر ساشو
وهو يبتسم لي وأنا أنظر إليه أثناء تسلقي أحد المرتفعات،
وتذكرت يده القوية وهي تمسك لي الحبل بقوة وتسحبني لأعلى
وروحى بين يديه، وتخيلت شفتاه وهي تغرق جبهتي بالقبلات
عندما كانت قدماي تصل إلى الأرض.

أزحت هذه الذكريات جانباً، وعلى الرغم من شدة افتقادي له
فإنني أبقيت نفسي على قناعة بأنني تصرفت التصرف الأنسب،
وفكرت في النجاح الذي حققته منذ بدأت تدريباتي العسكرية
وفي تلك المهام التي تعلمتها بالإدارة كالتعقب وصياغة الرسائل
وتقسيم الأنظمة، وأحسست أنني أبلي بلاءاً حسناً وأنني على
الطريق الصحيح لأصبح جاسوسة ناجحة.

وفكرت كيف أن ساشو شوش أفكاري وأعاق تقدمي، فلم أكن
لأتمكن من تحقيق نجاحاتي التي حققتها لو أن علاقتي استمرت
معه وظلت عيون الوكالة المتشككة تلاحق صديقي الأجنبي، ولم
يكن ساشو ليتوافق معي في حياتي الجديدة فقد كان إنساناً بمعنى
الكلمة بينما كنت أنا أتحول لإله، وكان ساشو أميناً بطبيعته بينما
أنا أبدأ بناء حياة من الأكاذيب، ومثل لي ساشو الحرية التي
بدأت مشوار التخلي عنها، وكان التفكير في ساشو مؤلم للغاية
لذلك ركزت تماماً في التدريب وتركت صورته تتبخر من
عقلي.

* * * * *

كشف المستور

تلا التدريب على المتفجرات العودة للمزرعة لمدة أسبوع للقيام ببعض التدريبات البحرية، وكان هذا التدريب مثل اصدم واحرق، لكنه هذه المرة يتم في المياه التي تلمع على صفحاتها الشمس.

وتعلمنا في هذا التدريب بعض المهارات مثل معرفة القياسات البحرية واتجاهات الملاحه وأحوال الرياح والمد والجزر بالإضافة لمستوى من الاحتراف في قيادة القوارب السريعة، وتعلمت الأساسيات ثم ركزت على الإحساس بالرياح وهي تجعل شعري يتطاير ونحن نخترق الأمواج ونسابق الشمس. وكنا نغسل القوارب في نهاية كل يوم ونحن نستمع لألحان الموتاون¹ ونرش بعضنا بالخراطيم، وامتأل الجو العام بالمرح وبدا أشبه بإعلانات ماونتن ديو² التجارية. وسررت لذلك وتجاهلت تحفظاتي السابقة فقد قررت أن أعيش هذا العالم بكل جوانبه، وعلى الرغم من كل شيء كنت سعيدة بتكوين صداقات جديدة، وتحولت نظرتي لزملائي في الفريق فلم أعد أراهم مهووسين بالذات ومنغمسين في الملذات وأصبحوا الآن يشكلون رابطة من الرفقاء.

¹ الموتاون هي إحدى الفرق الموسيقية الشهيرة بالولايات المتحدة .

² أحد أنواع المشروبات الغازية التي تنتجها شركة بيبسي .

وصرت أتناول الوجبات مع سالي العاصفة ومارك الطيب
وديريك ذو الطاقة الخضراء واعتدنا على المرح وتبادل النكات
وأن نسخر من المدربين أو نخطط إستراتيجيات التقدم على
الفرق الأخرى، وأصبحنا مع مرور الوقت أشبه بالعائلة.
وبينما قضينا الأيام في الماء قضينا الليالي في الهواء، واعتدنا
أن نجلس بعد الانتهاء من التمارين البحرية الصباحية وقت
الظهيرة في مناطق الإسقاط بين سحب الناموس والرطوبة
الخانقة، ونضع العصيان المضيئة فوق الأعشاب بطريقة تسمح
للطائرات برؤيتها فتلقي لنا بصناديق معدات التدريب.
و ذات ليلة وكلت لي مهمة تحريك قفص خشبي ضخم ملأناه
سابقاً بأحجار أسمنتية أسقطتها لنا الطائرة وأخفقت في مهمتي
لتأخري ثانية تسببت في إسقاط طائرة التدريب صندوق المعدات
في مكان مختلف تماماً عن مكان الإنزال الحقيقي، وتسبب هذا
في أن يضرب الصندوق كابل الكهرباء فيقطع الكهرباء عن
القاعدة بالكامل لساعات تالية، وذاع خبر إخفاقي واستمر
الحديث عنه لعدة أيام حتى أطلق وارن النار على قدمه أثناء
التدريب على استخدام الأسلحة النارية.

* * * * *

كشف المستور

تدربنا في الأسبوع التالي على استخدام كافة الأسلحة الخفيفة من مختلف أنواع المسدسات والبنادق وكان المدرب يحدد لنا الهدف بوضع صورة لصدام حسين أو أسامة بن لادن الذي لم يكن العدو رقم 1 جماهيريًا في ذلك الوقت من عام 1999 إلا أنه كان كذلك بالنسبة لوكالة الاستخبارات المركزية.

واعتاد وارن على تجاهل التعليمات باستمرار وإطلاق النيران في أي اتجاه ممثلًا خطرًا على كل من بالمكان، والأمر المزعج جدًا هو أن تقييم مستوى إطلاق النيران لم يتم في نهاية الأسبوع باستخدام الأسلحة بل تم في صورة امتحان على أوراق تتضمن أسئلة ضع علامة صح وخطأ، واختر الإجابة الصحيحة، وحقق وارن أعلى درجة !

وتلا أسبوع التدريب على الأسلحة تدريب لمدة خمسة أيام على الاشتباك بالأيدي وصحبه التدريب الطبي، وقضينا مساء كل يوم نعالج الجروح والكدمات التي سببناها لبعض في الصباح. وفشلت في تدريب الاشتباك بالأيدي، ولكوني أنا وصديقي إيثنان الوحيدان اللذان يستخدمان أيديهما اليسرى ؛ دائمًا ما كان يأتي الدور علينا لنتصار معًا، ولم أكن أنا ولا إيثنان بارعان في اللكم ولا الركض لذلك كنا نرقص في دوائر حول الحلبة محاولين أن نوجه اللكمات إلى بعض فكانت اللكمات تأتي غير مؤثرة

كشف المستور

على الإطلاق.

وامتدح مستشار تدريب الاشتباك بالأيدي جين سوك عندما
ركلت أحد المتدربين بعنف في قصبة ساقه لدرجة أنها أوشكت
على تحطيمها ثم فاجأته بلكمة أسفل نقه

* * * * *

كشف المستور

واندهشت أثناء التدريب العسكري عندما تذكرت أنني لم أفقد البيت إطلاقاً وأن حياتي صارت تتمحور حول المزرعة والعلاقات التي ملأت حياتي هي علاقتي بزملائي في الفريق ومدرسيني، واستمرت الحياة على نحو مريح ؛ ففي الصباح نتناول البيض وشرائح لحم الخنزير بصالة الطعام ثم ننقل للتدريب لثلاث أو أربع ساعات ويلى ذلك تناول شطيرة في وجبة الغداء ثم القيام بأنشطة ما بعد الظهر التي تتم غالباً خارج المزرعة، ووقت العشاء نتناول دجاجاً محمراً أو مكرونة ثم نقوم بالتمارين الليلية، وإذا كنا محظوظين وكانت الليلة خالية من أي أنشطة أخرى فإننا نشرب الجعة ونلهو بحانة المعسكر، وقبل أن نلقي بأنفسنا على أسرتنا نفحص بعضنا للتأكد من خلو أجسامنا من القمل والقراد.

وساهمت الأنشطة المتتالية في صرفي عن التفكير في أي شيء يتعلق بحياتي الحقيقية مثل ؛ قلق أهلي من إمكانية تأقلمي مع طبيعة الحياة بالوكالة، وتدهور الحالة الصحية لإحدى جداتي التي لم يعد عندي وقت لزيارتها، وحقيقة اقترابي من سن الثلاثين دون أن يكون لي زوج أو صديق، وأرحت نفسي بالتفكير في التدريب العسكري كنوع من المعسكرات الصيفية للراشدين، وبمرور الوقت نجحت في هذا لدرجة أنني كنت

كشف المستور

أشمنز من فكرة مغادرة المزرعة.

ونقلتنا حافلة في عطلة نهاية الأسبوع لواشنطن لقضاء بضعة أيام بعيدًا عن المزرعة، وأحسست بالملل وعدم الراحة في بيت أمي، وبالضيق والاختناق في المجمع التجاري عندما ذهبت للتسوق، وبالضجر الشديد بسبب أي شيء بسيط كالتوقف المعتاد في إشارة المرور، ولم يحاول أي من أصدقائي بالخارج أن يتصل بي لذلك كانت الساعات الثمانية وأربعين التي عدتها للمجتمع مليئة بإحساس الوحدة فانتهرتها فرصة للاستراحة من إرهاب التدريب وتلميع أحذيتي استعدادًا لأسبوع "معسكر القفز بالمظلات".

ولم تكن طبيعة أعمالنا المستقبلية تتطلب — في الحقيقة — التدريب على القفز بالمظلات ولا على أي من التدريبات العسكرية الأخرى، ولم تكن هناك أسباب كافية للتدريب على اختراق الغابات دون حمل أي شيء باستثناء البوصلة، أو القيام بالدوران السريع أو التوازن على العجلات الخلفية أثناء قيادتنا للسيارات الدبلوماسية. ومثل القفز من الطائرات أكثر التمارين الغير مبررة، فلم نكن سنذهب لمهامنا الأولى خارج البلاد عن طريق الإسقاط جواً كما هو الحال في أفلام هوليوود، وربما يتم اختيار عدد قليل منا مثل روب الشرطي السابق أو أيكي أو

كشف المستور

ديريك للقيام بعمليات خاصة، إلا أن باقي مجموعة التدريب سينحصر عملها في القيام بالأعمال المكتبية في النهار والذهاب لحفلات الكوكتيل الدبلوماسية بالليل، وأدركنا أن الهدف من القفز بالمظلات مقصود به تعزيز ثقتنا في أنفسنا.

وكان ديريك مهيناً بطبيعته على القفز من الطائرات فلم يبد عليه أي اضطراب بينما كانت بقية المجموعة تشعر بالرعب الشديد دون أن تبوح به، ودارينا خوفنا خلف ستارة من التظاهر بالجرأة. وقبل أن يبدأ التدريب الفعلي على القفز بالمظلات تلقينا تدريباً نظرياً لمدة أسبوع تعلمنا فيه كيفية الهبوط (التوقف، السقوط، الدوران)، وتعلمنا كيفية الالتفاف في دوائر أثناء الهبوط، وجمع المظلة بسرعة فور الهبوط حتى لا نجر على الأرض بفعل الرياح، وما الذي يجب فعله في حالة الهبوط على الماء أو الأشجار أو الأسلاك الكهربائية.

وشغلت هذه الجزئية الأخيرة عقلي للأيام التالية لقفزتنا الأولى، وكنا نتناقش أثناء تناول الطعام عن أي هذه الأنواع الثلاثة من الهبوط هو الذي يمثل الحظ الأتس للهابط ؛ واتفقت أغلب الآراء على أن الهبوط على المياه لن يكون الأسوأ فكل ما عليك فعله هو أن تخلع حقيبتك وحذاءك وتملاً جزء من المظلة بالهواء لتستخدمها كأداة طفو.

كشف المستور

وقال لنا أحد المدربين : يمكنكم أن تستخدموا أسلوب الطفو بالسروال كبديل.

ويتطلب هذا الأسلوب القيام بربط طرفي رجلي السروال وملأه بالهواء ثم ربط السروال من الطرف الآخر، ولم أري أحدًا نجح في تنفيذ هذا بشكل جيد طوال فترة التدريب، وكان رأيي الخاص أن الهبوط على الماء هو أسوأ أنواع القفز ويلي في درجة السوء عدم انفتاح المظلة على الإطلاق.

وتوجب علينا القيام بخمس قفزات من بينهم قفزة بمعدات لإثبات النجاح في اكتساب مهارة القفز بالمظلات، والقفز بالمعدات هو عبارة عن القفز بحمولة تزن سبعين رطلاً تربط تحت صدر القافز في أعلى قدميه، ويتوجب عليه فصلها عن جسمه قبل الهبوط، وإذا لم ينجح في ذلك فيمكنه الهبوط بها، لكن مع احتمالية كبيرة لكسر ساقيه.

وعندما تلا المدربون علينا أسماء من سيقفزون بالترتيب العشوائي علت صيحة من الجميع لسماع اسم وارن يتلى أولاً فظن المدربون أنه أحقق وزادت معرفتهم حصوله على شهادة جامعية من هارفارد ظنونهم. ولم يلتفت أي أحد طوال الأسبوع إلى الرعب الكبير الذي سيطر على وارن ولا صياحه في فرع كل مرة يهبط فيها على الرغم من ربطه بحبل مع بيتر بان في

كشف المستور

برج التدريب الذي يبلغ ارتفاعه ثلاثون قدماً، ولذلك لم تكن تسميته له " رائد السماء " مجرد صدفة.

وحملت طائرة التدريب تسعة متدربين في كل إقلاع ودارت في السماء ثلاث دورات حول منطقة الهبوط وفي كل دورة دفع المدرب ثلاثة طلاب، وتجمع بقية الطلاب على الأرض للاستمتاع بمشاهدة التدريب، وكانت السماء صافية يوم التدريب وليس بها إلا بقعاً صغيرة من السحب البيضاء التي رصعت زرقتها الجميلة، واستمتعنا بهذا اليوم كثيراً، وقفز قلبي من شدة الفرحة في اليوم الأول من التدريب العملي عندما سقطت بقعة صغيرة من الطائرة وتلاها انفتاح المظلة المفاجئ وتبختر وارن بالهواء في تباهي وابتهاج حتى لمس الأرض، وأطلق الجميع — بمن فيهم من كان يزوري وارن — هتافات الابتهاج.

وكنت في المجموعة التي ستقفز في الدورة الثانية من الإقلاع الثاني، وكان ديرك في الدورة الأولى وحذرنى قبل أن يقفز من أن " لا أسرق هواءه " أثناء هبوطي بعده.

ووقفت أمام الباب المفتوح قبل القفز وأنا مستعدة تماماً وكل ما أمكنني التفكير فيه في هذه اللحظة هو عدم استعدادي للموت، وراودتني مشاعر كثيرة مختلطة ؛ فحزنت على أنني ليس لي صديق يحزن على وفاتي، وتساءلت " هل ستزيد عنوستي من

كشف المستور

مأساوية مشهد وفاتي بالنسبة للمعزين الذين سيحضرون جنازتي ؟ " وخمنت أن وكالة الاستخبارات المركزية ستفسر لوالدي سبب وفاتي بأنه تم أثناء القفز بالمظلة في مكان مجهول ؛ بينما الباقون يظنون أنني كنت أقوم بأعمال إدارية في أحد الإدارات الحكومية.

وأحسست بجمال المنظر من الطائرة فتمنيت أن أبقى لأشاهد زرقة السماء اللامتناهية، لكن لم يكن لدي الكثير من الوقت لأفكر في هذا فقد صاح مدرب القذف قائلاً : " اذهبي " ، ثم دفعني خارج الطائرة.

وأحسست بالراحة عندما انفتحت مظلتي ونظرت فوقى فشاهدت انتفاخ المظلة فبدت لي وكأنها شمسية ضخمة وأمسكت بحبال المظلة وبدأت أحدد اتجاه هبوطي والهواء الصامت يحيط بي فأحسست بأني ملكة الحرية، وأدركت فجأة بأني سأكون على ما يرام.

وهبطت أبطأ من بقية زملائي لأنني من أخف القافزين وزناً، وباقترا بنا من موقع الهبوط صاح وولف — الذي كان من المحاربين بفيتنام ومظلي سابق شديد الشبه بالمثلث ويلي نيلسون — في مكبر صوت قائلاً : " اتجهي إلى اليمين أيتها الدمية الكبيرة " ، " احني ركبتيك أيتها الدمية الكبيرة " ، قودي المظلة

جيدًا أيتها الدمية الكبيرة ."

ولم تحتو قفزاتي الأربعة الأولى على أي شيء مثير على الرغم من أنها أبهجتني، وعندما أتى وقت القفز بالمعدات عاد الرعب يملكني، وفكرت في أنني أفضل الموت على أن تتحطم ساقي، وراودني إحساس غريب بأني سأواجه صعوبات في نزع المعدات عني قبل لمس الأرض، وأثناء هبوطي بالمعدات مددت يدي لسحب الخيط الذي يفترض أنه يجعل المعدات تتفصل، فوجدت الخيط معقود ولم ينسحب وأحسست بالثقل الذي ظل يتدلى من قدمي اليسرى وكأنه هلب، وصحت : " يا إلهي لا تدع قدمي تتحطم "، ثم خجلت من تديني المفاجئ، ولم تكن المشكلة في تحطم قدمي فقط فليست هذه هي المصيبة الكبرى، بل خفت أكثر من احتمالية عدم تمكني من إكمالي التدريب وانتقالي بطائرة إسعاف لواشنطن لتلقي العلاج لفترة قد تستغرق على الأقل كامل مدة التدريب على الطيران، وكانت فكرة ابتعادي عن التدريب للعلاج واستمرار زملائي ونظرائي في تقدمهم أكثر مما يمكنني احتماله.

وسحبت الخيط بشدة فلم يزد هذا إلا تعقيدًا واقتربت من الأرض التي بدا مظهرها لي كئيب بشدة، ثم ارتفع الأدرينالين بدمي وأحسست بقوة هائلة جعلتني أشد الخيط بكلتا يداي حتى انفصلت

كشف المستور

حقيبة المعدات وسقطت على الأرض في دوي شديد مخلقة
سحابة من الغبار، وركزت بعد ذلك على قيادة المظلة، وسمعت
صوت وولف الذي كان يصيح في هذه اللحظة : " تعالي أيتها
الدمية الكبيرة ".

* * * * *

وفي الأسبوعين الأخيرين قمنا بعدد من المهام التي ينبغي أن نطبق فيها كل ما تعلمناه خلال فترة التدريب العسكري، وكانت مهمتنا الرئيسية هي إنقاذ عدد من الرهائن الأمريكان من إحدى المقاطعات التي يسيطر عليها العدو، وأخبرنا المدربون بأننا سنطالب بتنفيذ عدد من المهام أثناء الطريق.

ووقف أيد أمام باب الفصل ولخص لنا تفاصيل المهمة قائلاً : ستسقط الطائرة الهليكوبتر كل مجموعة بموقع مختلف وأمامكم خمسة أيام للوصول لمنطقة احتجاز الرهائن وإنقاذهم والحضور بهم إلى هذه الحجرة التي ستكون مقر القيادة، وخلال هذه الفترة فإنكم ستنامون بالغابات وتبنون مأوي من أي شيء يتاح لكم. وبدا على وارن الزعر الشديد بينما أمسكت جين سوك بورقة وقلم ودونت الملاحظات باهتمام شديد.

واستمر أيد في حديثه قائلاً : وستمرون خلال طريقكم بعائق مائي واحد على الأقل وسيزود كل طالب بسلاح AK - 47 للاستخدام في حالة مقابلة قوات المختطفين في الطريق. وغمزت لي إيثنان من طرف الحجرة وقالت لي بفمها في صمت : " من أجل اللهو .. "

وحصلنا على جهازي اتصال لاسلكي قديمين لاستقبال الأوامر من القيادة بالإضافة إلى خريطتين وجهاز تحديد مواقع، وحزمنا

كشف المستور

وجبات التغذية التي ستلقى إلينا بطائرات الهليكوبتر في مناطق الإسقاط التي سنكون فيها ونحدد لها للإدارة من خلال الرسائل المشفرة.

وقال لنا أيد كلماته الأخيرة محذراً : يفترض بكم أن تتحركوا في سرية عبر الغابات وليس من خلال الطرق المكشوفة، وليس لكم الحق في التواصل مع أي مجموعة أخرى، ويجب أن تحافظوا على أنفسكم بعيداً عن الوقوع في الأسر.

بدأنا تنفيذ مهمتنا في ليلة ممطرة فأخذت المروحية الهليكوبتر مجموعتنا المكونة من تسعة أفراد وأسقطتنا في مكان بعيد عن المعسكر أشبه بالرمال المتحركة، وبمجرد أن تمكنا من الخروج من الحفر الطينية التي سقطنا بها كان زينا المموه قد امتلأ تماماً بالأوحال.

وتحركنا حتى وصلنا منطقة بدت صالحة لتكون منطقة إنزال فوضعنا على الأرض العصيان المضيفة في تشكيل متعارف عليه لتراه الطائرة التي ستسقط لنا الوجبات الميدانية التي حزمناها سابقاً بمقر القيادة. ثم قمنا بإبلاغ القيادة بإحداثيات موقعنا لترسل لنا الطائرة.

تشكلت أثناء الشهور التي قضيناها معاً روابط بيننا على الرغم من أن ديريك وسالي كانوا لا يطيقون بعضهما، وكان ديريك

كشف المستور

مغتاضاً من كثرة الإسراع لنجدة سالي، وأزعج مارك الآخرين بكثرة حديثه عن مواهبه وقدرته على صيد الذباب " موهبته الأولى "، وكنا مترابطين على الرغم من اختلاف درجات مهارتنا.

وساهمت صداقتنا الوطيدة في أن تسير مهمتنا على أحسن حال، وارتعبنا في الليلة الأولى من السيارات المموهة للثوار التي كانت تسير بالقرب منا وعليها مدافع رشاشة، ولو أنهم رأونا لأطلقوا النيران علينا.

ولم تصل لنا الإمدادات الأولية من الأطعمة نتيجة لما اكتشفنا بعد ذلك أنه خطأ من ديريك في تحديد إحداثيات منطقة الإسقاط، وبعد أن تأكدنا من أننا لن يصل لنا طعام في هذه الليلة أصبنا بخيبة الأمل وبدأنا في تجهيز أماكن نومنا باستخدام المعاطف الواقية من الأمطار، ونمنا وتبادلنا نوبات حراسة ظل فيها حارسان على الأقل متيقظين في كل نوبة، وظلت أصوات الانفجارات وإطلاق النار العشوائي ترد إلى مسامعنا من المعسكر طوال الليل.

وتوجب علينا أن نتصل بالقيادة في الصباح لنأخذ منها رسالة مشفرة، وتولت سالي هذه المهمة في البداية لكنها عندما حرفت الرسالة الأولى ظلت تتفحص ورقة مفتاح الشفرة وتعيد الاتصال

بالقيادة، وعندما كررت هذا ست مرات دون جدوى أخذ ديريك جهاز اللاسلكي منها وسلمه لي.

وفهمت من الرسالة التي تلقيناها من القاعدة أننا ينبغي علينا أن ننقل لموقع على الجانب الآخر من المعسكر ثم ننتظر هناك لتلقي التعليمات التالية، وبعد ساعات من الجري في الغابات والعديد من المرات التي فررنا فيها من نيران الثوار وصلنا لمنطقة فسيحة بها قاربان مطاطيان وعلى جانب أحد القاربين ورقة عليها تعليمات بالتحرك بضعة أميال في اتجاه مصب النهر حيث يوجد المكان الموجود به مجموعة الأمريكان الذين يتوجب علينا إنقاذهم. وتوليت أنا وسالي قيادة القاربين مع تعليمات مشددة بالألا نحيد عن اتجاهاتنا، وبينما كنت ألعن ديريك وأتذمر دائماً من تعليماته إلا أنني كنت على يقين من أنه أكفاً المتدربين وبدا دائماً على وعي تام بما يجب أن يتم ومتيقظاً لما يجب الاحتراز منه أفضل من بقية المتدربين.

وانقسمنا إلى مجموعتين وأخذت كل مجموعة قارب وأربعة مجاديف، وعند محاولتنا الأولى للإبحار دار بنا القارب بشدة وكأننا نركب أكواب الشاي الدوارة بملاهي ديزني لاند، واقترح ديريك أن يستخدم أحدنا المجداف كدفة ويجدف الآخرون ؛ وأخذت موقع قيادة الدفة وتمكننا بعد محاولات مستميتة من بدء

التحرك ببطء في الاتجاه الصحيح، واتضح لي أنه كان ينبغي علي أن أركز أكثر أثناء تدريبات الملاحة البحرية. وظللنا نجدف ونجدف وسط الممر المائي البشع الذي امتلأ بحشرات اليعسوب التي انتشرت على صفحة المياه وبطيور مالك الحزين التي كانت تفاجئنا من حين لآخر وهي تنقض على سطح الماء وأحسست أنني أصبحت أشبه بالغوريلا. واقتربنا بعد ساعات من نقطة الوصول ولمحت رجلين يختبآن خلف أحد الصخور على جانب النهر ووجوههم مموهة بخطوط خضراء وسوداء مثلنا، وهمست لمارك الذي كان يجدف جوارى : لا تنتظر إننا مراقبون.

وتوقفنا عن التجديف انتظاراً لوصول القارب الآخر، وكانت سالي في هذه اللحظة تطلق الصيحات حول كافة ملاحظاتها وكأنها دليل ملاحه نهري وتقول : " أوه، انظروا إلى تلك العصافير، أرايتم هذه السمكة ؟ واو، ثعبان ! " فأشرت إليها لتصمت، وبمجرد اقتراب القارب الآخر أخبرت ديريك أن هناك أعداء ينتظروننا عند ضفة النهر، وكنا متأكدين من أننا على وشك التعرض لهجوم، لذلك كنا نرغب في أن نستمر في التقدم في النهر بدلاً من التوقف بالمنطقة المحددة مسبقاً، لكن ديريك أصر على وجوب تقدمنا طبقاً للخطة المرسومة، وقال : " إذا

كشف المستور

هاجمونا افتحوا عليهم النيران ."

وكنا متأكدين تمامًا من أننا — بعد أن ننتهي من سحب قواربنا من النهر — سنسمع صوت صيحة قتالية من أحد المختبئين ويبدأ بعدها الهجوم. وعندما تحقق هذا وقف شعر ذراعي من شدة الانتباه وقفزنا نحن التسعة نهياً أسلحتنا للقتال وأحسست بنفس الإحساس الذي كنت أحسه وأنا طفلة عندما كنت ألعب لعبة رعاية البقر والهنود الحمر لأن أمي لم تكن تسمح لنا بأن نحمل المسدسات اللعبة ولذلك كنت دائماً ما أقوم بدور أحد الهنود غير المسلحين وأنتظر في سلبية الوقوع في الأسر أو أي مصير تعيس.

وخلال ثواني كنا جميعاً نطلق النار عشوائياً على الأشجار، واندحشت لانغماسنا في هذا الحدث ونحن نطلق النيران بغزارة حفاظاً على حياتنا وكأنها معركة حقيقية، وتأكدت بما لا يدع مجالاً للشك أن لو كانت هذه معركة حقيقية لمات على الأقل نصفنا — إن لم يكن كلنا — بنيران صديقه.

وتوقف إطلاق النيران وساد هدوء غريب، وكنت على يقين من أن مدربينا الذين يقومون بدور الأعداء لديهم ثلاث مجموعات أخرى ليقوموا بإزعاجها وأنهم لا يرغبون في إهدار كل ذخيرتهم وطاقتهم علينا، فجلست على الأرض لألتقط أنفاسي.

كشف المستور

وقلت لديرِك الذي لاحظت فجأة أنه راقِد على بطنه على بعد
قَدَم مني : أعتَقِد أنهم ذهبوا.

فقال : أعتَقِد أنك محقة.

وقفز ديرِك من على الأرض بخفة في حركة أكروباتية،
وخرجت سالي من خلف مجموعة من الأشجار ووجهها مغطى
بالأوحال وشعرها مبعثر وكأنها نجت للثو من تحطم طائرة
وتلفتت حولها في شبه ذهول وهي تتظر لحزام ذخيرتها التي
أسقطته في بداية المعركة، واقترح ديرِك أن نعيد تَجمعنا
ونتحرك لِمكان آمن لنرسل إشارة للقيادة.

• • • • •

كشف المستور

وجاءتنا التعليمات التالية تأمرنا بالتحرك ليلاً لاختراق عدة أميال داخل أرض العدو بحثاً عن مكان يستخدم من قبل خلية إرهابية كنقطة انطلاق لعملياتها. وبمجرد وصولنا يتوجب علينا جمع المعلومات الاستخباراتية عن العدو قدر المستطاع.

وتعبنا بشدة لكننا كنا على يقين من أنه ليس أمامنا خيار آخر، وتمكنا في تلك الليلة بمعجزة من أن نخفي تحركاتنا عن الأعداء على الرغم من أننا كنا نسمع دورياتهم تتحرك بجوارنا بشاحناتها ذات الضجيج العالي ونسمع أصوات اشتباكاتهما بالنيران مع المجموعات الأخرى.

وبعد ساعات طويلة من التقدم وصلنا إلى كوخ بالغابة مضاء من الداخل، وعرفنا من خلال استطلاعنا للكوخ أنه مركز عمليات المجموعة الإرهابية واختبأنا خلف أحد الحوائط حتى سمعنا صوت شخص يصيح بأنه لاحظ حركة في الغابة فانبطحنا أرضاً، وأعتقد أن ديريك لم ينتبه لي عندما سألته عما إذا كانت هذه التدريبات تذكره بالأيام الخوالي بالقوات الخاصة.

وأخيراً صاح أحد الإرهابيين وقال بلكنة أجنبية قبل أن يبدعوا في الانتقال من معسكرهم "سنرحل الآن"، وبمجرد ابتعادهم عنا تقدمنا نحو الأمام ونحن نتعثر في الظلام الواحد تلو الآخر ونطلق اللعنات همساً، وبدأ الكوخ فارغاً حتى أطلقت سالي

كشف المستور

صيحة ابتهاج عندما لاحظت باب سري يؤدي إلى سرداب
مملوء بأغراض الإرهابيين التي كانت عبارة عن صحف
ومجلات باللغة العربية، وبعض المواد التي عرفنا أنها تستخدم
في تصنيع القنابل بالإضافة إلى بعض أوراق اللعب.
وجلسنا جميعًا وكلنا نشاط نصنف هذه الأشياء، وكانت مهمتي
هي كتابة تفاصيل كل الأشياء التي وجدناها لأنه لم يكن بيننا من
يعرف كيف يستخدم آلة التصوير الرقمية عالية التقنية التي
أعطتها لنا القيادة في مهمتنا، فرسمت كوخًا خشبيًا صغيرًا
ذكرني ببيت جورج واشنطن الشاب، وأضفت سهمًا طويلًا يشير
لأرضية الكوخ وكتبت عليه مدخل سري.
وبينما كانت بقية المجموعة تتحرك بهمة في أرجاء السرداب
تغير الموقف فجأة بصورة كلية ليصبح مناسبًا للتعرض لهجوم،
وبعد ثوان رأيت أضواء شاحنة تتقدم على الحشائش في اتجاهنا
؛ فأعددت سلاحني ووقفت خلف ساتر.
ونزل رجل من الشاحنة لم أره من قبل وهو يجر قدمه الملفوفة
بقماش وتقدم نحو الكوخ، وفكرت " أينبغي أن أطلق عليه النار ؟
" ثم أحسست بالخزي من نفسي بسبب طريقة تفكيري البربرية.
ونادى الرجل قائلاً : أنا مصاب، وهناك آخرون مصابون.
فناديت باقي المجموعة التي أسرع بالخروج من السرداب،

كشف المستور

وفتحت الباب وأنا أحمل سلاحى، وصاح الرجل : " نحن بعثة أمريكية، وقد تحطمت طائرتنا وهناك العديد من الجرحى. " وأدركت فوراً أن الهدف من هذا التدريب هو التطبيق العملي للتدريبات التي تلقيناها على العلاج وبطبيعة الحال فإن الرجل الذي وصل إلينا هو جريح من ضمن الجرحى المصابين بإصابات من درجات مختلفة ويرقدون بجوار الطائرة المحطمة انتظاراً لوصولنا.

وأبلغت هذه المعلومات للقيادة فأخبرتنا أن مروحية هيلكوبتر ستصل إلينا بعد لحظات، وقال لي المتحدث على الطرف الآخر : " فطيرة القدر لا تشبع إلا خمسة أفراد. " وتعجبت من عدم استخدامه الشفرة المتفق عليها لكنني فسرت هذا التعليق على أنه يقصد به أن المروحية لا يمكنها أن تنقل أكثر من خمسة أفراد من الجرحى.

واتفق معي ديريك في ذلك وقال : سيبقى الآخرون بالغابة. وقال مارك في نبرة حملت السخرية والإرهاق : إنني أتساءل عن مغزى هذا التمرين ؟ !

فقال ديريك في تذمر وهو ينظر لسالى : إذا كانوا يريدون أن يعلمونا كيف نصنف أولويات إنقاذ الآخرين على حسب أهميتهم النسبية فإنه كان يتوجب عليهم أن يقصوا من الأسبوع الأول من

كشف المستور

التدريبات نصف الحمقى بهذا البرنامج.

وقسمت المهام علينا بسرعة، وكانت مهمتي هي فحص الإصابات وتحديد المصابين الذين ينبغي أن ينقلوا بالطائرة، وميزت ملاح بعض الأشخاص العاملين بالمعسكر وهم متمدنون للقيام بدور الجرحى بالعراء في مكان بشع مكتظ بالناموس والقراد لساعات انتظاراً لمجموعات المتدربين الحمقى لينقذوهم، وقررت بحزم أن السيدة التي تعمل بمطعم القاعدة يجب أن تفوز بمكان على الطائرة لأنها دائماً ما كانت تسمح لي كل صباح بأن آخذ صلصة وشرائح لحم الخنزير مع البيض خلافاً للتعليمات التي كانت تنص على أن آخذ مع البيض شيئاً واحداً فقط، لكن الخمسة الذين ينبغي أن ينقلوا بالطائرة فرضوا أنفسهم علي عندما أدركت أن من بين الجرحى سفير أمريكي. وقال ديريك : ينبغي أن يترك من يعانون من جراح خطيرة ليلاقوا مصيرهم لأنه ليس لدينا الوقت أو المعدات للاعتناء بكافة الجرحى.

وبمجرد وصول الطائرة بدأنا ننقل الجرحى الخمسة الذين بدوا أقرب قدرة على التماثل للشفاء، وكان المشهد أشبه بالدراما الكوميدية فقد كنا نحاول تخفيف الآلام عن المصابين أثناء نقلهم بعناية إلى الطائرة، وكان السفير الأمريكي — الذي هو في

الحقيقة أحد حراس المعسكر — يؤدي دوره بتأنق ونواح انفعالي خفيف عند كل حركة نقوم بها أثناء حملته ويقول : " متى ستعرف الخارجية هذه الأنباء ؟ ! "

وبمجرد أن حلقت الطائرة مرتفعة وجعلت شعرنا يتطاير مع الهواء والأوحال تتطاير على وجوهنا ؛ توقف بقية الضحايا عن تمثيل دورهم وصاحوا فينا في حنق ليبعدونا عنهم. وكانت مجموعة المتدربين الثانية في طريقها.

وأثناء ابتعادنا لمحت عاملة المطعم وهي تبدل ضمادتها بحرق يفترض أنه حدث لها بمجرد سقوط الطائرة ؛ فلوحت لها سرًا وردت على تلويحي قبل أن أتواري في الغابة.

وبعد أن توغلنا في الغابة لبعض الوقت بدأت الشمس في الطلوع وداعب النوم جفوننا، وقبل أن نخيم اتصلت بالقيادة مرة أخرى وأحسست في صوت المدرب بالمرح الأحق وهو يقول : " لديكم مهمة أخرى "، وأعطاني بالشفرة إحداثيات موقع يفترض أنه مصنع أدوية يعتقد أن به مواد لإنتاج أسلحة الدمار الشامل. وتمثلت مهمتنا في الوصول للموقع واستطلاعاه والتسلل إليه إن أمكن والرجوع برسومات وصرر له، وبالإضافة لآلة التصوير الرقمية عالية التقنية التي كانت معنا فإن كل فريق كان مزودا بمنظارين للرؤية الليلية تحسبًا لاحتمال الحاجة إلى استخدامها.

كشف المستور

وتملك منا الإرهاق والتعب بالإضافة إلى الجوع الشديد حيث لم
نتمكن من القيام بإسقاط ناجح للطعام إلا مرة واحدة وأكلنا كل
الأطعمة التي أتت في هذه المرة باستثناء القليل من معلبات زبدة
القول السوداني وبعض المملحات الصناعية والقليل من الكعك،
وبغض النظر عن الجوع الذي سيطر علينا فإننا أصبحنا
عصبين بشدة، وكنت على يقين من أن ديريك وسالي سينتهي
بهم المطاف بأن يقتل أحد منهم الآخر أو أن يناما معاً بعد أن
وصلت العلاقة بينهم لمنحدر غريب.

وتقرر أن أقوم أنا ومارك بالتحرك في منتصف الليل في اتجاه
الهدف وكان أمامي عدد من الساعات يمكنني فيها القيام ببعض
المحاولات لمعرفة كيفية استخدام آلة التصوير فقضيت المساء
كله ألنقط صوراً لقدمي ولسالي التي كانت تنام تحت معطف
علقته على بعض الأغصان.

وتحركت أنا ومارك في منتصف الليل بهدوء وأشعل مارك أحد
سجائره المهربة وسرت في ببطء تحت ثقل المعدات التي أحملها،
وكانت وجوهنا مموهة واستخدمنا منظار الرؤية الليلية الذي كان
أحد عوامل إعاقتنا بدلاً من مساعدتنا، فقد كان يتسبب في
سقوطنا المتكرر في الحفر أو اصطدامنا بالأشجار الضخمة.

وعندما سمعنا صوت هدير إحدى الشاحنات وهي تقترب ارتمينا

في إحدى الحفر الموجودة على جانب الطريق فوقعت على شجرة أسقطتها الرياح بينما وقع مارك في بقعة طينية كبيرة تسببت في تطاير بعض الطين حولها من شدة سقوطه، ومرت الشاحنة بجوارنا دون أن نلاحظنا وإن كان من بها قد أطلقوا عددًا من الأعيرة النارية في الهواء. وزحفنا على بطوننا جنبًا إلى جنب حتى وصلنا إلى سلك شائك يحيط بالمنطقة المستهدفة التي ضمت ثلاثة مباني ومروحية هليكوبتر وشاحنة كبيرة جلس فيها حارسان بشعي المظهر. وتمكنت من رسم أغلب المباني وأخذ بعض الصور بآلة التصوير الرقمية، وانشغل مارك باستخدام جهاز فحص المجال البصري ليتأكد مما إذا كانت هناك فتحة في السور أو أي طريقة للدخول.

وتوقف مارك عن الزحف فجأة عندما أتت إشارة من جهاز اللاسلكي الذي نسي أن يخفض صوته أو يغير تردد موجاته وأسرع إليه محاولاً أن يسكت الضوضاء العالية التي أصدرها الجهاز، وتجمدنا دون أن نعرف ما الذي ينبغي علينا فعله، وتتبه الحارسان للصوت فوراً ونزلوا من الشاحنة فقامت أنا ومارك وأطلقنا ساقينا للريح في اتجاه الغابة، ولم نهتم هذه المرة باستخدام منظار الرؤية الليلية الذي تدلى من عنقي ونحن نجري

كشف المستور

في الغابة حالكة الظلام.

وعندما وصلنا الموقع الذي يخيم فيه باقي الفريق كان قلبي يدق بعنف وأنا أشعر بالخوف والإرهاق والبهجة في آن واحد. ولم أحتج أنا ولا مارك لقوة ملاحظة لأدرك أن الجميع ارتحلوا من المخيم، وكانت الخيام منصوبة وبعض الأشياء الخاصة بهم في أماكنها مثل صدرية سالي البنفسجية التي وضعت على الأغصان لتجف، وكانت كل الأشياء الموجودة حول المخيم بمكانها لكن لا أحد هناك.

وتغير هذا الموقف بسرعة.

انبتثق لنا من وسط الغابة ستة رجال مسلحين وجوههم ملثمة وأحاطوا بنا من كل جانب، فقزت أنا ومارك إلى الخلف بقوة متباعدين عن بعضنا ككرات البلياردو.

وصاح أحد الرجال قائلاً : " ألقوا أسلحتكم "، وأطعت أنا ومارك هذا الأمر فوراً، ووضع رجلين كيسين على رؤوسنا، وارتعبت بشدة عندما أصبحت لا أرى شيئاً وطمأنت نفسي بأن هذا مجرد جزء من اللعبة وسرنا بضعة أمتار قبل أن نلقى في مكان أشبه بالكهف، وأدركت من خلال ملاحظة الروائح المحيطة بي أننا بصندوق شاحنة مع بقية أعضاء الفريق.

وتبادلنا حكايات كيفية وقوعنا في الأسر وأحسست بالرعب،

وعندما بدأ محرك السيارة يدور تملكنتي رغبة عارمة في أن أرى صديقتي إيما وإميلي اللتان تخيلت أنهما في هذه اللحظة تتجرعان الخمر بشقق تورتيلا في القرية الشرقية، أو أنهما في طريقهما لشاطئ بريتون كعادتنا في الأيام الخوالي، أو أنهما تشربان الفودكا وتأكلان الأسماك الصغيرة المملحة بمطعم روسي قرب البحر، وقلت لنفسني " لماذا أنا لست معهم ؟ ما الذي أفعله هنا بحق الجحيم ؟ "

وبينما السيارة تتحرك بنا أزلت الأسطوانة من آلة التصوير ووضعتهما بحذائي ومزقت الرسومات وخبأت أوراقها الممزقة في جيبي.

وتوقفت السيارة وفتح بابها الخلفي وأنزلنا المختطفون على أرض عشبية مكسوة بالطين والعصابات لا تزال على عيوننا، ودوت موسيقي بلقانية خفيفة من مكبرات الصوت، واندهرشت وقلت لنفسني " يا إلهي أين نحن ؟ "

وظللنا قرابة ساعة كاملة نروح ونجيء في خطوط مستقيمة ودوائر ويذا كل واحد منا على غطاء رأس الشخص الذي أمامه ومن حين لآخر تنهرنا أصوات غريبة أمرة إيانا أن نضغط غطاء رأس بشدة على عنق الشخص الذي نتبعه، وإذا أبطأ شخص أو تعثر فإن الجنود ينهالون عليه ضربًا بالركلات

كشف المستور

وبكعوب البنادق، وسمعت صوت سالي وهي تستغيث بصوت مختنق طلبًا للهواء، وعلى الرغم من أنني كنت أدرك تمامًا أننا سنتعرض لاختبار الصمود إلا أنني لم أكن مستعدة لهذه الدرجة من الواقعية، وكافحت باستماتة من أجل أن أخفف قبضة الغطاء عن عنقي وسمحت بذلك للجنود أن ينهالوا علي بالركلات المصحوبة بالإهانات اللفظية مثل : " تحركي أيتها الكسولة اللعينة. "

وقادنا الجنود بعد ذلك لحجرة مظلمة لكنها فسيحة ورفعوا عنا أغطية الرأس فرأينا المجموعات الثلاث الأخرى مصطفة على الأرض الخرسانية في صمت وخضوع، وقلقت بشدة عندما اكتشفت أن مختطفينا ليس من بينهم أحد مدربيننا أو العاملين بالمعسكر، ونظرت حولي بحثًا عن عاملة المطعم ذات الوجه الأسمر فلم أجدها، وخطرت على بالي احتمالية أن تكون المزرعة تعرضت لهجوم قوات معادية نجحت في الاستيلاء عليها وقتل كل المدربين وكافة العاملين.

وتم إجبارنا على الوقوف وأيدينا مربوطة خلف ظهورنا، وأمرنا أحد الحراس أن نلتزم الصمت قبل أن يخرج هو وباقي الحراس ويتركنا لوحدها في الغرفة الأسمنتية شديدة الرطوبة.

وبمجرد خروج " الأشرار " تلقطنا حولنا ونظرنا لبعض ونحن

كشف المستور

نبتسم في شجاعة، وكنا قد أخبرنا بأنه مهما حدث فيجب علينا الالتزام بغطائنا وعدم الإفصاح عن علاقتنا بوكالة الاستخبارات المركزية. وكنت على يقين من أن منظرنا يوحي بأننا تابعين للوكالة بسبب وجوهنا المصبوغة وأزياءنا العسكرية المموهة ومناظير الرؤية الليلية التي نحملها وآلات التصوير ؛ كل هذا قرب مصنع أسلحة نووية سري للغاية.

وكنت أنا ومارك من بين أول من استدعي للاستجواب وكذلك إيثنان المسكين الذي لم أراه منذ أيام لأنه لم يكن بفريقي، وبدا إيثنان شاحبًا من شدة الرعب عندما سحبه الحراس هو وأوفيليا التي بدت — على خلاف إيثنان — تترنح من شدة التعب. وأعاد الحراس وضع الأغطية على رؤوسنا قبل أن نخرج من الحجرة، وبعد فترة طويلة من السير والتجوال بلا هدف أدخلنا مقطورة ونزعت عنا الأغطية ووجدت نفسي أقف أمام رجل اعتقدت أنه المستجوب، وبدت ملامح هذا الرجل عدائية ووجهه أشبه بوجه ابن عرس ومعه جنديان مسلحان.

وسألني : اسمك ؟

فأجبته.

فابتسم المستجوب عند سماع اسمي المستعار وانحنى نحوي وهو يعبث بأحد طرفي شاربه وقال : حسنًا يا آنسة موسبي، ما

كشف المستور

الذي تفعلينه هنا ؟

وبينما كان المستجوب يعذبني بسؤاله الذي أعاده مرارًا وتكرارًا عن سبب وجودي هنا أصررت على التمسك بقصة " السياحة " ، وأخيرًا أمسك الرجل بورقة عليها رسم لمصنع الأدوية والمعدات النووية، وبدا الرسم من عمل مارك بلا أدنى شك. وقال المستجوب وهو يرتب الأوراق أمامه وكأنه يجمع قطع أحجية (بازل) : وجدنا هذه الأشياء بجيب زميلك الذي قبض عليه معك.

قلت : لا أعرف أي شيء عن هذا، كل ما في الأمر أننا اعتبرناه موقعًا مثيرًا بدا أشبه بمتحف أو شيء من هذا القبيل. وكان كلانا على يقين من أن هذا التبرير غير منطقي فضاقت عينا المستجوب وقال : لكن صديقك مارك يخبرنا شيئًا مختلفًا تمامًا. وكنت على يقين من أن مارك لن يكشف هويتنا بسهولة فضحكت على ما قاله وأدركت أنني أخطأت في هذا التصرف عندما ضربني أحد الحراس ضربة أطارتني من مقعدي، وكافحت لإعادة نفسي إلى توازني واكتشفت أنني لم أتأذي بالقدر الذي توقعته، وإنما صدمت وأحسست بالإهانة.

ولحسن الحظ أنني أعدت إلى الحجرة الخرسانية مرة أخرى، ووجدت باقي زملائي يلفون في دائرة ويصيحون على أنغام

موسيقي صربية صاخبة " أنا جبان، أنا جبان " وثلاثة حراس يدفعونهم بشدة للزيادة من هذا الصباح ويضربونهم بكعوب البنادق. وتوقف هذا المهرجان تقريبًا في نفس لحظة وصولي وطلب مني أن أقف في منتصف الغرفة، وصاح أحد الجنود : " أترون هذه المرأة، لقد خدعتكم للتو وأخبرتنا القصة الحقيقية وأنكم تعملون بوكالة الاستخبارات المركزية. "

وأحسست بوجهي يحمر من شدة الغضب ورغبت في أن أصرخ دفاعًا عن نفسي، لكنني كنت متأكدة من أن الآخرين يعرفون تمامًا أنني لست خائنة، وأني لست من النوع الذي ينهار من الاستجواب الأول، وعادت أوفليا وإيثان ومارك واتهموا أمام الجميع بالخيانة كما حدث معي تمامًا، ثم تم إيقافنا بمنتصف الحجرة وقدمت لنا قطع بسكويت وطلب من الآخرين " استجواب الخونة "، وفكرت فيما إذا كان من الأفضل أن أرفض البسكويت، لكنني كنت أموت من شدة الجوع بالإضافة إلى أن البسكويت كان لذيذًا.

وعندما يؤس المختطفون من هذه اللعبة سمح لنا جميعًا بالعودة للجلوس على أماكننا على الأرض حيث جلسنا في صمت لعدة ساعات نعاني من الموسيقي الصربية البغيضة والأسر الذي كان يتخلله من حين لآخر دعوة واحد من الطلبة للاستجواب، وإجبار

كشف المستور

الباقيين على الصياح أو الوقوف على قدم واحدة لبضعة دقائق أو تأدية تمارين الضغط أو السير في حلقات ونحن ننعت أنفسنا بالجبن أو الحماقة.

واستدعيت أنا وإيثان ومارك وأوفليا للاستجواب قرابة العشر مرات، وتعجبت لقيام الوكالة بترتيب هذا المعسكر القاسي الذي بدا شديد الشبه بمعسكر أسر حقيقي، وكنت متأكدة من أن الوكالة عينت موظفين جدد خصيصاً لهذا المعسكر، ولم يبد هؤلاء الموظفين أي نوع من الود الذي اعتدناه من مربينا فقد كان هذا النوع من الأشخاص واقعي الأداء بصورة غير عادية لدرجة أنني اقتنعت أن النظر في عين أحدهم ربما يمثل خطورة، لكني كنت اختلس النظر إلى وجوههم من وقت لآخر بحثاً عن أي نوع من التعاطف أو التحفظ ؛ وأكثر من كل هذا ؛ البحث عن أي علامة تدل على أننا لا نزال في اللعبة، وشيئاً فشيئاً بدأت نقتي نتبخر. وبينما نحن نرفع أيدينا في الهواء ونسير في دوائر ونحن نصيح " أنا فاشل " حاول تيد - المشهور بالتحفظ وإطاعة الأوامر - إشعال ثورة فصاح فجأة : إنهم قليل ونحن كثير، هيا نتغلب عليهم ونفر.

وتوقفنا ننظر إليه في صمت والجنود ينهالون عليه ضرباً وهو يحاول المقاومة ويصيح : هيا يا شباب ساعدوني.

وأقل ما يمكن قوله هو أن فشل تيد في إثارة حماس الباقين كان شديد القسوة على قلبي، وتحيرت من مجموعتنا بالكامل التي أثبتت كافة أفرادها — باستثناء تيد — عدم الاستعداد للثورة، وعلى الرغم من أن الخط الفاصل بين الواقعية والمحاكاة بدأ يزول إلا أن إيماننا بقرب انتهاء الاختبار وإطلاق سراحنا كان يزيد يوماً بعد الآخر، وحسبت في عقلي أننا أسرنا يوم الإثنين، وسيطلق سراحنا يوم الجمعة لأنه توقيت انتهاء التدريب العسكري المقرر سلفاً، ولأن أهالي بعض الطلاب ينتظرونهم. ودخل علينا الجنود بأغطية الوجه وقالوا لنا : " ضعوا هذه الأغطية على رؤوسكم أيها القطط " ثم فصلوا الرجال عن النساء، وساقونا إلى الخارج كالقطيع. وبعد دقائق حشدت الفتيات الثلاثة عشرة في زنزانة خرسانية ضيقة جداً، وقال لنا أحد الحراس : " ابقوا واقفين "، ثم أغلق علينا باباً حديدياً، واعتصر قلبي صوت صرير المفتاح وهو يدور فيه من الخارج.

وبمجرد ذهاب الحراس سحبنا الأغطية من على رؤوسنا، وأصبح بإمكاننا أخيراً أن نرى وجه بعضنا في الظلام وتلفتنا حولنا بحثاً عن مكان نجلس أو نتقرفص فيه. وعندما سمعنا خطوات الحراس الثقيلة تقترب قفزنا جميعاً على أقدامنا بأقصى

كشف المستور

سرعة وأعدنا وضع الأغطية على وجوهنا، وتعجبت من السرعة التي انهارت بها عزائنا القوية بمجرد وقوعنا في الأسر.

وبدأت السلسلة الثانية من الاستجوابات واستدعيت كل امرأة منا مرة واحدة على الأقل، وبعضنا استدعي عدة مرات، وأجبر بعضنا من حين لآخر على القيام ببعض الممارسات المهينة إرضاءً لجمهور الحراس المعجب بذاته. وأجبرونا على أن نجلس في وضع القرفصاء حتى نسقط من شدة التعب وأن نزحف على الطين وترش علينا المياه وأن نجري حول المعسكر والمدافع الرشاشة تطلق أعيرتها النارية في الهواء.

وكان العقاب الذي ظن الجنود أنه سيكون الأسوأ بالنسبة لنا هو "الذهاب للسور"، واسترحت في الحقيقة لهذا الإجراء الذي تم فيه تقييدنا من أيدينا بالأساور وربطها في سور أظن أنه كان السور الذي يحيط بمعسكر الأسر، وتم تجاهلنا هناك تمامًا باستثناء قيام أحد الجنود بالتوقف أمامنا من حين لآخر لإلقاء بعض السباب واللعنات علينا أو لإدلاء بعض الأطعمة أمام أنوفنا، وتعرضت للضرب مرارًا أثناء الأسر بسبب "الفشل في التعاون" كما أخبروني.

وغمرتني في هذه الأثناء مشاعر السعادة والتصميم لجهل

الأسرين أن السور يمدني بالراحة لأنني على أقل تقدير بالخارج وأستمتع بقطرات الندى الخفيفة التي تسقط في أواخر فصل الصيف بالإضافة إلى النسيم الهادئ ؛ بغض النظر عن كون وضعي زري، وبغض النظر عن موجات الناموس التي يستحيل طردها بسبب القيود التي بأيدينا، وكانت هذه الظروف أفضل بكثير من ظروف الآخرين الذين يعانون من موجات الألم والرعب في زنازين ضيقة ننته.

وانهارت بعض النساء وظللن يبكين بينما جلست جين سوك في هدوء وصمت دون أن تظهر عليها أي انفعالات وهي تضم يداها إلى صدرها وتحملق أمامها، وأحسست بنوع من الإثارة الشديدة تجاه ثبات جين سوك في وجه كلاً من وحشية أسرينا ومحنة زملائنا، وجلست بجوارها أستمد الهدوء من السور. واعتاد الجنود على أن يعطوا واحدة منا بين فترات الاستجواب بشكل مهين تفاحة أو كعكة أو كيس بسكويت فننقاسمه معاً، ورفضت جين سوك بطبيعتها كل عروض التغذية لتظهر قوة إرادتها من ناحية، ومن ناحية أخرى سموها وأفضليتها علينا. ودخلت علينا برندا ذات مرة بعد الاستجواب وهي تبكي بتشنج فاقترب بعضنا منها — بمجرد أن أغلق الحراس الباب خلفهم — وحاولن تهدئتها فقالت : " لقد ضربوني "، وأزاحت عن كمها

كشف المستور

فرأينا آثار كدمات وسحجات بذراعها، وبعد ثوان عاد الحارس
نو الملامح الآرية والعيون القاسية وصاح : " اخرجني يا بقرة. "
وتجمع عدد من الفتيات أمام برندا مشكلين درعاً بشرياً لحمايتها
فلم يؤد هذا إلا إلى زيادة حدة هياج الحارس الذي أبعدنا عنها
وهي لا تزال تنرف الدموع.

ولم يضايقني شيء من قبل قدر ما ضايقتني إهانة هذا الرجل
لبرندا التي بدت قاسية وغير مبررة، وخرج الحارس من
الزنزانة تاركاً برندا خلفه مخلوقة بائسة متكومة على الأرض
فتأججت في صدري مشاعر الثورة وقلت : يجب أن نخطط
للهرب، ما نحن فيه هراء، وكان تيد محقاً. .. نحن أكثر منهم
عدداً، هيا نهرب من هذا الجحيم.

وأظن أنني لمحت نظرة خوف بعين سالي على الرغم من أنها
ظلت صامتة، وكان رأي بقية الفتيات أن الثورة تتطوي على
مخاطر كبيرة، وقالت سالي : يستطيع أضعف الحراس أن
يتغلب على أقوانا.

وقالت أوفيليا ونبرات صوتها تعكس التردد أكثر من الخوف :
إنهم مسلحون.

وهزت سالي رأسها في أسى وقالت : إذا كان هذا ما يفعلونه
معنا، فما الذي يفعلونه بالرجال ؟

كشف المستور

وكانت سالي من النوع الذي يهتم بالآخرين أكثر من اهتمامها بالمآسي التي تعانيها هي نفسها.

قلت : " ليس لدى القدرة على البقاء هنا لليلة أخرى "، وقلت هذا وأنا أعلم تمامًا أنني أستطيع بكل تأكيد أن أبقى أكثر من ذلك ؛ والأرجح أنني سأبقى، وأعتقد أنني كنت أشاق للقيام بنوع من الهجوم. وامتلك عدد من الفتيات قدرًا من الشجاعة ليحاولوا الهروب، لكن بمجرد أن بدأنا وضع خطة للهروب فتح الباب وظهر نفس الهمجي الاستبدادي الذي كان يوبخ برندا وأمرني وإياها بالخروج.

وتمكن ضوء الشمس من اختراق القماش الثقيل لغطاء رأسي وأحسست بدفع الشمس، وبدا من الهواء أننا في الصباح الباكر. وقال الحارس : " ارتميا على الأرض "، وظللنا لدقائق تالية نزحف — أنا وبرندا — على الطين الثخين ونحن حريصين على ألا نرفع رؤوسنا من الوحل حتى لا يضربنا الحارس الذي ظل يصب علينا الإهانات طوال الوقت، وعندما كانت برندا تختنق أو تبكي من شدة الألم كنت أتحرق شوقًا للتخفيف من معاناتها ؛ لكنني كنت مدركة تمامًا أن هذا سيؤدي إلى المزيد من العقاب لكلانا. وأخيرًا أخذ الحارس برندا بعيدًا عني، ثم أدخلني مقطورة الاستجواب ونزع عن وجهي الغطاء فرأيت بالإضافة لعدد من

المستجوبين والحراس — الذين أصبحت وجوههم مألوفة بالنسبة لي — روب ووارن مقيدان بالأساور في مقعد معدني.

والتفت أحد المستجوبين لي وقال : أتعرفين هذان الرجلان ؟
فقلت : " لا " ، فقد كان من المفروض أن ننكر معرفتنا بأي أحد خارج الفريق الذي قبض علينا معه.

والتفت المستجوب لوارن وقال وهو يشير لي : أعتقد أنك أخبرتني أنك تعرف هذه المرأة.

فقال وارن في شبه مرح : " نعم " ، وبدأ على وارن أنه سعيد لرؤيتي بالرغم من أنني بدوت أشبه بإنسانه متهاكة، واستطرد وارن قائلاً : " لقد درسنا معًا بهارفارد، هذه ليندسي التي كانت تواعد زميلي في السكن " ، فتأوهت بصوت مسموع ودارت عينا روب. وقلت لوارن وعيناي تخترقاه : " لا بد وأنت مخطئ " ، وأكدت للمستجوبين في الدقائق التالية أنني لم أقابل هذا الشخص أبدًا ولا أعرف حتى اسم زميله الذي يدعي أنني كنت أواعده، وبدأ على المستجوبين استمتاعهم بأن في حوزتهم جامعيان سخيغان. وأثناء انهماكي في التأكيد على مزاعمي من أجل إنقاذ كلانا ؛ زاد وارن من درامية الاعتقال بالنواح والبكاء ونعى حظه العاثر بعد أن كان محاميًا وقال : سأقاضيكم كلكم.

وتجاهل الجميع وارن واتجه الحارس إلى روب وقال له : " بما

أنك تقول أنك لا تعرف هذه المرأة، أعتقد أنه لا توجد أي روابط بينكما"، ثم أشار لي وقال: "إذا وافقت على أن أقتل هذه المرأة ستنال حريتك فوراً".

وحرك روب رأسه رافضاً بينما كان وارن منهمكاً في نوبة حزنه الميلودرامي وهو غافل تماماً عن الخطر الذي أتعرض له. ثم صوب الحارس سلاحه لي ووضع أصبعه على الزناد وقال في انفعال شديد: إن لم يعترف أحدكما بأنكم تابعين لوكالة الاستخبارات المركزية فسأقتلها".

وخطر على بالي أن هذا الرجل فقد عقله ومنعت نفسي بشدة من التقيؤ أو الإغماء ونظرت للباب باهتياج شديد ولم أعد أبالي ما إذا كان هذا يحدث في التدريب أو الواقع ولم تسيطر على عقلي إلا الرغبة في الخروج.

ولم يأخذ روب الكثير من الوقت حتى تتهار عزيمة؛ ورفع جسده من على مقعده المقيد فيه بالأساور وقال: "كفى"، وأصبح روب بيني وبين الحارس وتلّى المقعد من معصمه وقال: "نعم، نحن من وكالة الاستخبارات المركزية". وامتلاً وجهي بالدموع ووددت لو أصرخ بأعلى صوتي من شدة الغضب، وأحسست بملوحة دموعي الساخنة التي تدخل فمي المرتجف تهدئ قليلاً من روعي.

كشف المستور

وسمعنا فجأة صوت الشاحنات المألوفة لنا تقترب من المكان
فتصنع مختطفونا الرعب وألقوا بأسلحتهم وأسرعوا لتحرير
روب ووارن ثم خرجوا بسرعة من المقطورة، وحاولت أن
أعانق روب إلا أنه أسرع للاستيلاء على الأسلحة الملقاة على
الأرض قبل أن يحصل عليها وارن، ولم يفهم وارن حتى هذه
اللحظة أننا على وشك نيل الحرية واستمر في البكاء والعويل.
وخرجنا من المقطورة وشاهدنا المعسكر من الخارج للمرة
الأولى فاكشفنا أنه بقعة طينية فسيحة محاطة من كافة الجوانب
بسلك شائك، وتوقفت الموسيقى الصربية الشعبية، ولمحت على
مسافة مني أحد المدربين وهو يرفس باب كوخ خرساني صغير
ويحرر بقية النساء. وخرجت سالي أولاً وهي تصيح في ابتهاج،
وتلتها أوفيليا وقد تبولت على نفسها كالمعتاد، ثم برندا التي
تغطي وجهها وملابسها تماماً بالطين، ونظرت لملابسي فوجدت
نفسي في غاية القذارة، واستعدت توازني النفسي مرة ثانية
وكفكت دموعي، وقلت لنفسي إنها لم تكن سوى بضعة أيام، إلا
أنني شعرت وكأن احتجاجنا طال لأسابيع، ونظرت للكتائب
الثلاث وهي تخرج للضوء الواحدة تلو الأخرى وهي مصدومة
وتتأذى من ضوء الشمس، فأدركت إلى أي مدى أصبحت قريبة
من أغلبهم. * * * * *

اغتسلنا في هذه الليلة وارديننا — أخيراً — ملابس مدنية، ولم نعر أي اهتمام لتعليمات مكتب الأمن المشددة فيما يتعلق بالخمور، وقضينا ساعات نتبادل القصص المبالغ فيها للأحداث التي مرت بنا أثناء الاعتقال، وامتدح المدربون جين سوك بشدة على ثباتها وعدم إظهارها أي علامات ضعف على الإطلاق. واقترب مني المدرب أيد القاسي وقال لي وكأنه يتبادل معي معلومات سرية : سمعت أنك كنت تخططين للهروب يا آنستي. قلت : ظننت أنكم نسيتمونا يا شباب.

فقال وهو يبتسم على غير عادته : " هذا هو ما أردنا أن نجعلكم تظنونه، وكنت مضطراً لإخراجكم في النهاية "، ثم غمز لي بعينه وانصرف.

واستراحت المجموعة كلها عندما تحررنا من الأسر حتى وارن تشجع بسبب نجاته التي لم يتوقعها، واحتفلنا كلنا وإن كانت برندا ظلت مستاءة من الضرر الذي وقع عليها وظلت محتفظة بالكدمات لأسابيع تالية وهددت بمقاضاة الوكالة من أجل إلغاء اختبار الصمود وعدم تطبيقه على المتدربين الجدد.

وعلى الرغم من كرهى لهذا التمرين إلا أنني وجدته مفيداً فقد اندهشت من قوتنا وتقاسمنا الطعام وتعاطفنا مع بعضنا، وكذلك استغربت ضعفنا واسترجعت ذكريات خلجي وانهزامي عندما

كشف المستور

اتهمني المختطفون علانية بالخيانة وعندما أكلت تلك القطع من
البسكويت التي قدموها لي، واندحشت من انهيار دموعي
الجارف عندما صوب نحوي سلاح وواجهت نهايتي، وتأرجحت
مشاعري في هذه اللحظة بين الرعب والإحساس بالذنب والحزن
والحفاظ على النفس. غادرنا المزرعة في اليوم التالي كما
وصلنا لها في المرة الأولى راكبين حافلة مدرسة صفراء أعادت
لي ذكريات المآسي التي واجهتها وذكريات الطفولة المبكرة،
وأرحت رأسي على النافذة ونظرت للغابة الكثيفة وهي تتباعد
عن أنظارنا ليحل محلها المنظر المريح للافتات الطريق السريع
الخضراء ومطاعم الوجبات السريعة، وكنت راضية عن نفسي،
ونظرت طويلاً في المرآة فرأيت روعي خالية من
الأنانية. وذكرت نفسي بأن أمامنا طريق شاق من التدريب،
وليست هذه النهاية بل هي البداية، ولم أكن مبتدئة سيئة على كل
حال.

الفصل الخامس

قَدت أنا وإيثان دراجتين في منتصف الليل للنتزه في الغابات المحيطة بالمزرعة بعد أن رجعنا إليها منذ أسبوعين لنقضي بها شهرًا أخري من التدريبات، وكان الهواء مشبعًا بالرطوبة كعادته في هذا الوقت من الصيف، واختلست الغزلان النظر إلينا من بين الأشجار وعزفت الضفادع سيمفونية نقيق غريبة، وأحسست أن مثل هذه النزهة بالدراجة هي من أجمال متع الحياة وأظن أن إيثان كان يشاطرنى نفس الرأي. وتبادل الطلاب والمدرّبون الإشاعات حول خروجي كل ليلة للنتزه بالدراجة مع إيثان في الغابة، لكن لم تجمع بيني وبينه إلا الصداقة، وكنا نتحدث بصوت عال منتقدين سخافة مدرّبينا وتفاهة البرنامج التدريبي الذي أتينا من أجله ؛ لأن الغابات كانت من الأماكن القليلة التي كنا متأكدين من خلوها من أجهزة التسجيل والتنصت.

واعتاد إيثان أن يقول " ليس هنا إلا القراد والصراصير "، ثم يسألني السؤال اليومي " أين نذهب ؟ " فأجيبه: لا أعرف، يمكن أن نأخذ طريقنا المعتاد.

فقد أصبحنا بعد التدريب العسكري نعرف كل شق وزاوية بالغابة، وكان إيثنان يحب التجول قرب المنطقة التي استخدمت منذ أسابيع كمعسكر لاختبار الصمود، وكان يطلق عليها اسم "معسكر الموت"، وتغير إيثنان بعد هذا المعسكر تغيراً كبيراً فصار يتحدث بلغة في غاية البذاءة على خلاف عادته فيما سبق وكان يقول: "على الرغم من شدة المعاناة التي عشتها في هذا المعسكر فإنني سعيد بهذه التجربة سعادة لا تقدر بثمن. وأخبرنا المسؤولون أننا سيسمح لنا بالذهاب لواشنطن في عطلات نهاية الأسبوع لو أتيح لنا وقت فراغ أثناء فترة التدريب التالية، وفي اليوم الأول من التدريب قال لنا آدم — المدرب المسئول عن تدريبنا على كافة خبرات الجاسوسية — وهو يضحك: "ستجدون الأعمال مكومة أمامكم طوال الأسبوع؛ فلا تفكروا أبداً في حضور أي حفلات زفاف، ولا أن تروا أسرکم، أنتم ملکنا الآن، وهذه هي حياتکم". ومن هذه اللحظة أطلقنا على آدم اسم "صدام". وأخبرنا آدم بقصة متدرب سابق قاد سيارته إلي واشنطن في إحدى عطلات نهاية الأسبوع لتعويض قلة النوم طوال أسبوع كامل فغلب النعاس الشاب أثناء القيادة وحاد عن الطريق ولقي مصرعه.

كشـف المسـتور

وقال لنا آدم: لو أن شيئاً كهذا حدث لأحدكم فلا يمكنني إلا أن أقول: إنه خطأكم اللعين.

وقال إيثان وهو يقود دراجته بأقصى سرعة: يا له من رجل أحمق !

قلت: نبدو وكأننا نعيش في قلب الجحيم.

فقال إيثان وهو يضحك بصوت عالي: حقاً إننا في قلب الجحيم. ثم انطلقنا وسط نفق من الأشجار.

* * * * *

كشف المستور

شاء القدر أن أكون مع إيثنان ضمن مجموعة التدريب الصغيرة التي تتشكل من ستة أفراد يتشاركون التدريب لعدة شهور، وكان معي في المجموعة بالإضافة لي أنا وإيثنان ؛ أوفليا ومارك وسالي العاصفة وإليس الذي ليس له مثيل، فقد كان يلقي النكات بملامح صارمة وعيناه مثبتتان على شاشة الكمبيوتر ويجعلنا نعاني من آلام المعدة طوال الليل من شدة الضحك.

وخصص لكل مجموعة تدريب صغيرة غرفة بها ستة أجهزة كمبيوتر ومنضدة كبيرة بمنتصف الحجرة نجلس عليها مع مدرب المجموعة لمراجعة أدائنا اليومي لمهامنا وواجباتنا. وكان مدربنا رجلاً وسيماً يدعي بول، وكان بول يقود سيارة مرسيدس حمراء بسقف متحرك لا تتماشي مع بقية سيارات المدربين الفيات والكورولا، واستمتع بول – طبقاً لكلامه – بفترة طويلة وممتعة من العمل في مختلف بلدان العالم ؛ لذلك تساءلنا " هل يستمتع بول بعمله كمدرّب في المزرعة ؟ " وكنا مدركين تماماً لتغير الأوضاع ؛ فلم تعد المزرعة – كسابق شهرتها – مكاناً يلقي فيه بالضباط الميدانيين الذين يخفّون في أعمالهم، إلا أننا ظللنا على يقين من أن الضباط الميدانيين الموجودين هنا لا بد وأنهم ارتكبوا خطأ جسيماً أنهى حياتهم المهنية بهذا المستنقع الكئيب. واكتشفنا بعد أسابيع من الملاحظة أن النساء هي نقطة

ضعف بول وذلك بعد أسابيع من ملاحظتنا محاولاته الفاشلة لإبعاد عينه عن فتحة قميص أولفيا المصممة على شكل V وخمنا أنه ربما أبعد عن العمل الميداني بسبب التحرش الجنسي، وكان هذا رأينا جميعًا، وعلى الرغم من ذلك أحببنا مدربنا الذي كان يدافع كثيرًا عن صدام (آدم) فيتسبب دفاعه في تسليتنا بدلًا من التأثير على رأينا المسبق.

وكنا نشك في وجود كاميرات سرية بغرف التدريب، وتأكدت شكوكنا بعد أن وصل إلينا كلام عن فصل طالبين سابقين بسبب ممارستهم الجنس بعد ساعات العمل على منضدة العمليات، واستمتعنا بالسخرية من الكاميرات التي خمنا وجودها في أحد الأركان بسقف الحجرة فأحيانًا ما كنا نشغل أسطوانات الأغاني ونرقص في أوقات متأخرة من الليل (يحظر استخدام المذياع في المناطق السرية)، وكانت أوليفيا تجيد الرقص الشرقي ببراعة، ولا يمكن تخيل مدى سعادة بول وهو يراها تتموج في رقصها حول الغرفة وعلى طاولة العمليات. وتسلينا أيضًا بالمعاكسات

التليفونية لمجموعات التدريب الصغيرة الأخرى التي كان أعضاءها دائمًا ما يبدوون في غاية الجد والانشغال فكنت أتناول الهاتف وأقول: أنا الآنسة أبوت من قسم الأمن والصيانة، لدينا مشاكل في الكهرباء، لذلك فإننا آسفون لأن نطلب منكم إغلاق

كشف المستور

أجهزة الكمبيوتر والأضواء لحوالي نصف ساعة وأن تبقىوا
بأماكنكم، وسنعاود الاتصال بكم لنخبركم متى تعيدون تشغيل
الكهرباء مرة أخرى.

ثم نتسلل إلي الردهة ونحن نكتم ضحكاتنا لنختلس النظر إلي
حجرات الطلاب الأخرى ن الذين يقرضون أظافرهم انتظاراً
لعودة الإذن باستخدام الكهرباء، واعتادت جين سوك في هذه
الأثناء أن تكمل أعمالها يدوياً باستخدام أي إضاءة خافتة تتاح
لها. ولم يكن أمامنا أوقات كثيرة لممارسة مثل هذه الألعاب فقد
كان البرنامج التدريبي مدته ستة أشهر مكثفة للضغط على
الطلاب بأقصى ما يمكن.

ولم يكن لنا أي اتصال بالعالم الخارجي بالإضافة إلي حرماننا
من النوم لأوقات طويلة فقد كانت المزرعة تعمل طبقاً لسيناريو
محكم لمحاكاة الواقع ؛ حيث كان يفترض أننا نعمل كضباط
ميدانيين لقسم الوكالة بدولة افتراضية تسمى فينجلوريا.
وكانت مهامنا هي تحديد وتقييم وتوظيف الفينجلوريين – الذين
يقوم المدربون بدورهم – للحصول منهم على المعلومات
الاستخباراتية التي يتوجب علينا إرسالها للقيادة عبر سلسلة من
المراسلات الروتينية التي تستمر من المساء حتى صباح اليوم
التالي دون التمكن من النوم. وبسبب خبرتي في التدريس والكتابة

لم يكن هذا العمل شاقاً على مثلما كان الحال مع سالي العاصفة التي لم تكن قادرة على تكوين جملة واحدة صحيحة لغوياً لتتقذ حياتها، واضطرت أنا وإيثان في نهاية المطاف للقيام بأغلب أعمالها لتتمكن المسكينة من الحصول على عدد من ساعات النوم. وكان كل الطلاب في هذه الأثناء معرضين لنقد المدربين، وواجهنا كلنا حقيقة تعرضنا للطرد في أي لحظة بناء على قرار "كتيبة الإعدام" بعدم الصلاحية، وأطلقنا مسمي كتيبة الإعدام على الاجتماع الأسبوعي لمربي المزرعة حيث كانوا يدرسون أداء كل طالب بتمعن وإذا وجد خلل في أداء أحد الطلاب فإنه يمكن أن يطرد من القاعدة في غضون أربعة وعشرين ساعة من تصويت أغلبية الأعضاء على عدم صلاحيته ليصبح فجأة عاطل بلا ماوي. و يتم توزيع أعمال التدريب على عدد من المدربين من أجل عدالة القرارات، وكان الاسم الحركي للتدريب الأول هو "الحفلة" حيث كان يفترض بنا المشاركة في العيد القومي لفينجلوريا وأن نحدد هدفنا الأول ونتواصل معه أو معها، ونرتب لقاءات تالية على الغداء أو العشاء، وضمن السيناريو الكامل للخطة وجبة واحدة مجانية — على الأقل — لكل مدرب يوميًا. ولم يتم إخبارنا بأسماء أهدافنا بل أعطينا بعض المعلومات المتعلقة بهم فأحياناً ما يكون الهدف "مخصص في

كشف المستور

الهندسة النووية " أو " دبلوماسي بسفارة دولة أروجانكا "، فقد كانت هناك دول أخرى لها سفارات بدولة فينجلوريا ودبلوماسيها أيضاً يصنفون كأهداف محتملة، ونتمكن من تحديد أهدافنا بعد إجراء الحوارات مع أكبر عدد من المدربين في حفلات الكوكتيل. ووصلت الحفلة وأنا ارتدي بذلتي الزرقاء ومعى عدد من بطاقات العمل الوهمية، ومهمتى هي تحديد " الصحفي الفينجلوري المشهور "، وأدرت عيني بقاعة الحفل دون أن أعرف من أين أو كيف أبدأ، وتذكرت لعبة " اعرف من أنت " التي كنا نلعبها في مرحلة الطفولة، حيث كان أحداً يلتفت ويقلد صوت حيوان ما كالخنزير أو الخروف أو الدجاجة حتى يعرف الشخص الوحيد الذي يقلد نفس الصوت فيتمكن في هذه اللحظة من العودة للتحدث الطبيعي. وكنت في هذه اللحظة أشبه بمن يقلد الخنزير بحثاً عن مثيله وتجولت في الحجرة ثم ذهبت لركن الشراب. وكان مسموح للمتدرب بتناول الخمر بشرط عدم الوصول لدرجة السكر، وقيل لنا من قبل: إننا تحت الملاحظة الدقيقة، وإنه من غير اللائق البقاء عند ركن الشراب والاستمرار في طلب الخمر.

ووقفت بركن الشراب أقلب كأس الفودكا الموضوع به قطع فراولة صغيرة وأنا أمسح الحجرة بعيني. وأخيراً توجهت نحو

أوفليا التي كانت تقف بجوار مائدة مشهيات، وقالت: هذا الأسلوب مستفز، كل ما نحن فيه هو مجرد حماقة، ولا أرغب في مقابلة هؤلاء ولا حتى الحديث إلي أي منهم. واتفقت مع أوفليا في مشاعرهما على الرغم من أنني كنت مكتئبة من المشهيات المستفزة المتناثرة حولنا والمكونة من البسكويت والجبن وأعواد الكرفس المر، وقطع الدجاج الباردة والمغطاة بالدهون، ووقفت أتواسي مع أوفليا لدقائق حتى انضم إلينا إيثان بعد أن فشل في تحديد هدفه، وقال: لم أجد سفير مالفولنسيا اللعين، هل رآه أحدهما أو تحدث إليه ؟ وكان إيثان — خلافاً لي وأوفليا — يرغب بشدة في أن يحوز على رضا المدربتين ويقلق بشدة من احتمالية طرده من المزرعة، وكان يتم تقييمنا بعد كل تمرين ونحصل على عدد من الدرجات التي تعتمد على مستوي أدائنا، وكان إيثان يحتفظ بقوائم مطولة بالدرجات التي حصل عليها كل طالب. قالت أوفليا: لم أتحدث بعد مع أي شخص، وبصراحة ؛ لا أنوي الحديث مع أي أحد.

قلت: سأخذ شراب آخر، أيرغب أي منكم في تناول شراب ؟وزاد عدم اكتراثنا من حماسة إيثان فودعنا بابتسامة مصطنعة وذهب يتجول في الحجرة محاولاً إنجاز مهمته.وبعد قرابة

النصف ساعة كنت قد تحدثت مع أكثر من نصف المدربين، واكتشفت في النهاية أن هدفي يقف بأحد الأركان مع جين سوك التي كانت تتحدث معه بسرعة وبحماسة. وكان الرجل أشبه فعلاً ما يكون بالصحفي اللامع بشبهه القريب من سانت كلوز¹، فاستجمعت قواي وسرت بالقرب من جين سوك التي استمرت في الحديث معه ولم تتوقف لتلاحظني، وكانت مجموعات التدريب الصغيرة قد اتفقت فيما بينها على مساعدة كل فرد للآخرين في إيجاد أهدافهم ؛ إلا أنني لاحظت أن جين سوك لم تفكر إطلاقاً في أن تسدي لي أي جميل، بل إنها أيضاً غيرت من وضعها لتحجب عني هدفي، ووقفت أسمع لأطراف حديثهم على نحو مثير للشفقة. وأخيراً أقمت ذراعي بين جين سوك وهدفي المحتمل وقدمت نفسي بشخصيتي الجديدة قائلة: مرحباً، أنا ليدي مورتون. ونظرت جين ليدي الممتدة وكأنها لم تري في حياتها من قبل مثل هذه الجراءة. وعندما رد على سانت كلوز قائلاً: " وأنا باري بننجتون "، انصرفت جين في هدوء.

¹ سانتا كلوز هو شخصية وهمية شهيرة في الثقافة الغربية لقديس يحضر الهدايا للأطفال في اعياد رأس السنة ، وهو النظير لبابا نويل في الثقافة العربية. (المعرب)

وكشفت لي بعض المزحات التي تبادلناها في البداية أن باري بننجنون هو الصحفي المشهور، ونجحت في الحصول على اتفاق باللقاء مرة ثانية في اليوم التالي على الغداء عندما أوشكت الحفلة على الانتهاء وانصرف زملائي الواحد تلو الآخر. وحدد باري - بمحض الصدفة - اللقاء التالي في الوقت ذاته الذي كنت قررته في عقلي سلفاً (الثانية عشر ظهراً).
وانتهت المهمة فعدت إلي حجرة التدريب حيث يفترض أن نظل لبقية الليل نكتب تقارير عن كل ما دار في الحفلة، ولم يكن تقييمنا يتم طبقاً لأدائنا فحسب ؛ بل أيضاً على مدى قدرتنا على نقل تفاصيل الحدث بدقة.

وكنيت حريصة على عدم تزيين الألفة التي حدثت بيني وبين باري ؛ لأنه الشخص الذي سيقراً تقريرى ويقيمه، ولكل مدرب شهرته في التساهل أو القسوة، وسمعت أن باري مشهور بالقسوة. وتمت اللقاءات التالية مع أهدافنا خارج المعسكر في أي مكان قريب من وليامسبرج، وكان يتعين على الطالب أن يقود سيارته عند خروجه للقاء الهدف ما بين ساعة أو اثنتين للتأكد من أنه غير مراقب، وفي حالة ما إذا اكتشف إنه مراقب فيجب عليه إجهاض المهمة بعدم الذهاب إلي الاجتماع.

وسبق هذا فترة تدريب قضيناها في التجول أربعة أسابيع
بمرييلاند وجنوب فرجينيا لمعرفة كيفية التأكد من عدم المراقبة،
وكانت هذه الدورة التدريبية أولية ويفترض أن نلتحق بدورة
أخرى أكثر تقدمًا فيما بعد، وكان الفشل المتكرر في رصد
المتتبعين أحد الأسباب التي تؤدي للطرد من المزرعة ؛ لأن
الأمر بمنتهى البساطة ينحصر في أنك إن لم تكن قادرًا على
معرفة ما إذا كنت تعرف أنك مراقب أم لا فإن هذا يعني أنك لا
تصلح لأن تكون جاسوسا ناجحًا.

وكنت من الأناس الذين يتضايقون بشدة من القيادة لذلك اعتبرت
فترة القيادة قبل الذهاب للقاءات فرصة جيدة للتجوال وسماع
المذيع واستغللت وقت القيادة في وضع أحمر الشفاه والماسكارا
ونتف حواجبي، وعدم التفكير للحظة واحدة قبل وضع إصبعي
في أنفي ؛ فلم تكن مثل هذه الأمور مسموح بها في المزرعة
لأننا كنا في رعب دائم من أن نشاهد أو ننتب.

واعتدت أن أحتفظ أثناء قيادة السيارة بورقة وقلم لتدوين
الملاحظات حول السيارات التي أشتبه فيها أو في ألواح
تسجيلها. اتفقت مع باري على أن نلتقي على الغداء بأحد المطاعم
قرب نيوبورت نيوز، وكان من المفترض أن أحصل منه في
هذا اللقاء على المزيد من المعلومات لتحديد مدى إمكانية

تجنيد، وتطلب مني هذا أن أظهر لباري بشخصية ودودة ليوافق على أن يتم بيننا لقاء ثاني، وعلمت بعد ذلك أن الرجل الأجنبي نادرًا ما يرفض فرصة تناول الغداء أو العشاء أو تناول مشروب مع امرأة دبلوماسية أمريكية، ولم يتضح لي هذا إلا بعد العديد من اللقاءات مع باري.

وخرجت من المعسكر قبل موعد اللقاء بحوالي ساعة قضيتها في التجول بوليامسبرج ونيوبورت نيوز وبعد أن تأكدت من أنني لست مراقبة توجهت للقاء باري في المطعم الذي اتفقنا عليه، وحياتي العاملون في المطعم بحرارة وابتهجوا لاستقبال الزبون الأول — لأن الوقت كان حوالي الحادية عشرة والنصف قبل الظهر — وتقدموا نحوي بقوائم الطعام والتحيات.

فطلبت الجلوس على مائدة منزوية في أحد الأركان البعيدة، وجلست الدقائق العشرين التالية أسترجع في ذهني كافة التفاصيل السياسية والاقتصادية والعسكرية المتعلقة بفنجلوريا والتي من المفترض أن تكون معروفة تمامًا. وكنا قد انغمسنا أثناء فترة التدريب في هذا السيناريو، وسبقنا في هذا المدربون — الذين عوقبوا بإقصائهم عن العمليات الميدانية والإلقاء بهم في المزرعة — فكانوا على إمام بكافة التفاصيل المتعلقة بهذا السيناريو الوهمي أكثر من إمامهم بتفاصيل وأحداث الحياة

الواقعية، لدرجة أنني تشككت في أنهم بدعوا يقتنعون بأنها حقيقية، وربما يقضون الليالي الطوال ساهرين من شدة القلق من الإمكانات النووية لدولة ملفولنسيا المعادية، واستمتع المدربون بمضايقتنا بأن يطلبوا منا معرفة اسم موظف مجهول بسفارة جمهورية أنفيرميا، أو تفاصيل معاهدة وقعت بين أروجانكا وفنجلوريا منذ عدة سنوات.

وبالإضافة للمعلومات التي استقينها من الملفات الثلاثة الضخمة التي تصف كل ما يتعلق بفنجلوريا توجب علينا متابعة الأخبار اليومية المتعلقة بها من خلال شرائط الفيديو التي تصل إلينا يوميا، والهدف من متابعة هذه الأخبار هو التأكيد على وجوب الوصول للمعلومات من خلال المصادر العلنية بالإضافة للمعلومات المسجلة بالملفات، وكان من المفترض أن لدينا القدرة على توجيه أسئلة محددة للهدف المحتمل لتحديد مدى اتصاله بالمعلومات الحيوية في الدولة أو استعداده للإفصاح عنها، وإذا كان الهدف المحتمل يكرر ما تتناقله وسائل الإعلام فإن هذا يعني عدم اطلاعه على أي أسرار خطيرة، أما إذا أخبرنا بشيء سمعناه في اليوم التالي بوسائل الإعلام فإن هذا يمكن أن يستخدم كدليل يقدم للقيادة على أنه وصول إلي أحد الأصول القيمة المحتملة. وكان من المفترض أن شخصية ليدي مورتون التي

كشف المستور

أوديتها تحمل صفة ضبابية هي " مساعد خاص للشيء ون
الفنجلورية " مما يسمح لي بالتعمق في الشيء ون الفنجلورية
بقدر من الحرية. وبعد أن اطلعت على قائمة الطعام طلبت حساء
بازلأ لأنه لا يحتاج لمضغ أو يجبرني على التحدث وفمي ملئ
بالطعام. ودخل باري المطعم في نفس اللحظة التي دخلت فيها
ربة منزل ومعها طفلين أحدهما يبكي بصوت عال والآخر
يتذمر من عدم وجود زبدة فول سوداني وهلام، وعندما قاد
النادل باري للمائدة التي أجلس عليها أحسست للمرة الأولى —
ولم تكن الأخيرة بكل تأكيد — بالألم الذي يعتصر العميلة
الميدانية الشابة عندما يتحتم عليها لقاء رجل يكبرها في العمر
بكثير. وزاد من مأساوية الموقف أن باري كان أضخم من أن
يكفيه الحيز الموجود بين مقعده والمائدة.

فقلت وأنا أقوم لأسحب المائدة بقوة: سأحركها تجاهي
قليلاً. وسحبت المائدة بأقصى قوتي لكنها كانت لسوء الحظ مثبتة
بالأرض. وبدا على باري أنه اغتم أكثر مني فقال: حسناً، لا
تشغلي بالك، سأجلس هكذا.

ثم أقلم نفسه قدر المستطاع ليتمكن من الجلوس.
تحدثنا في الساعتين التاليتين حول ماضي باري كصحفي
صاعد، ولم نتوقف عن الحديث إلا عندما قدم لنا الطعام أو أتى

النادل ليقدّم لنا المياه. وتحدث معي باري عن سخطه على الحكومة لأن بنت نسيبه الذي يعمل عميدًا بالجيش تعاني من مرض خطير. وعدت بعد انتهاء اللقاء إليّ حجرة مجموعة التدريب لأكتب تقريرًا للقيادة عن إمكانية اختراق القوات المسلحة الفنجلورية عن طريق نسيب باري الذي يعمل عميدًا بالجيش من خلال نقطة ضعفه الكبيرة (ابنته الشابة المريضة). قابلت باري في الأسابيع التالية مرتين أسبوعيًا على الأقل لتناول الغداء أو العشاء، وأحيانًا ما كنا ننحني على المائدة لتحدث في همس، أو نختلس النظر حولنا لتتأكد من أن لا أحد يستمع لحوارنا، وربما جعلني هذا أشعر أنني إنسانة شريرة تبحث عن متاعب الأخرى، لكن التبرير المنطقي الذي سقته لنفسه هو أنني أُرغب في أن أكون مسموعة. وأحسست بأنني مغفلة لتحدثي بحماس وعاطفة جياشة مع شخص من دولة افتراضية. وبمرور الوقت أخبرني باري بالمزيد عن نسيبه — حسب السيناريو المعد سلفاً — وأوضح لي مدى بأسه من علاج ابنته ودائمًا ما كان يردد عبارة “ لو أن لدينا المال !! “، وكان دوري أن أحاول التفكير معه في الطرق التي يمكن بها للولايات المتحدة أن تقدم يد العون في هذا الشأن، وتطورت العلاقة بيننا بصورة زادت تأكدي من احتمالية قيام باري بتقديم معلومات

سرية للولايات المتحدة مقابل الحصول على المال.
وتطلب هذا مني إغراء باري بالذهاب معي إلي حجرتي
بالمعسكر الذي كان المكان الوحيد الملائم لتجنيد، ولم تكن
عملية التجنيد برمتها أشبه بالمغازلة ؛ بل كنت أنا الجريئة وكان
هو المستحي الذي يرفض إغراءاتي. وعلى الرغم من أن الأمر
برمته كان تمثيلا إلا أنني بدأت أشمئز من لقاءاتي بباري،
وأرسلت برقية للقيادة أقول فيها: " الهدف تحركه الرغبة في
تقديم يد العون لبنت أخته المريضة، وإذا تم تجنيده فإنه يمكن
التحكم فيه من خلال المساعدة الطبية التي ستقدم للفتاة "،
وأحسست بالذهول والذنب في كل مرة أكتب فيها للقيادة. واعتدت
أن أتواسي مع أوفليا أثناء تناولنا الغداء من الاشمئزاز الذي
نعانيه من هذا الوضع، وكان إيثار على العكس من ذلك مستمتعًا
بهذه اللعبة مثل بقية المتدربين، واعتاد أثناء تنزهنا بالدراجات
أن يؤكد لي إيمانه بأن الشعب الفنجلوري مضطهد ويعاني من
المشاكل وأنه في حاجة ماسة لمساعدتنا، وأنني لا ينبغي أن
أشعر بأي أسف على المالفولينسيين الذين عرفنا من خلال
التقارير أنهم حفنة من المعتدين والمضللين.

كشف المستور

وأثناء عودتي بالسيارة إلى المزرعة ذات يوم بعد تناول العشاء مع باري بمطعم ياقوتة الثلاثاء تملكني شعور غريب من الوحدة لأن انطلاقتي الوحيدة في عالم الحرية لم تتعد المواعيد الغرامية مع رجل بدين عمره ضعف عمري يتكوم على مقعد في أحد المطاعم العديدة التي نتقابل فيها، وكنت أقضي مع باري ساعات طويلة نتبادل فيها الحديث عن أشخاص ومواقف ليس لها أي وجود، وأحسست أنني لست في برنامج تدريبي وإنما في حلم مضجر لا نهاية له، وبينما سيارتي تقطع طريقها في أحد الشوارع الخالية تحت أضواء أعمدة الإنارة المتراسة على طول الطريق وصلت إلى قناعة بأني لست عاترة الحظ فحسب بل ومثيرة للشفقة أيضًا.

وفكرت في أن أعود لمجموعة التدريب الصغيرة حيث إيثان والأخرون منهمكين في مراسلاتهم إلا أن التفكير في هذا زاد من قلقي، وفكرت في الاتصال بإيما أو إميلي، لكنني تذكرت أن الفتاتان ربما كانا يستعدان للتزهر في المدى مما سيزيدني كآبة، وأخيرًا قررت الاتصال بساشو؛ حتى ولو لمجرد سماع صوته. وكنت على يقين من أن ساشو سيذكرني بالشخص الذي اهتم بي بصورة إنسانية بحتة بعد أن أصبح هذا النمط غريبًا جدًا على حياتي الجديدة، وأملت أن يمثل هذا مصدرًا للأمل في

كشف المستور

أن يحدث لي شيء كهذا مرة أخرى ؛ وأتأكد من أنني لم أفقد الحياة الحقيقية والحب الحقيقي بصورة نهائية.
ولم أكن معتادة على إجراء المكالمات الهاتفية من المعسكر ليقيني من أنها مراقبة وشكي في أن الحجرات نفسها أيضاً مراقبة، لذلك توقفت قرب أحد المتاجر على الطريق وتوجهت للهاتف، وكانت قد مرت شهور على المرة الأخيرة التي اتصلت فيها بساشو لذا أخطأت في رقم الهاتف عدة مرات حتى تمكنت من تذكر الرقم الصحيح الذي رد عليه صوت أجنبي ثم أعطاني ساشو فقلت له: أنا.

فرد ساشو بصوت بدا منه أنه نائم وغير مدرك تماماً: أنت من ؟
قلت: أنا، ليندسي، كيف حالك ؟

فقال: بخير، أين أنت ؟

قلت: لا أعرف.. . أقصد.. . أنا في فرجينيا، لا أزال بفرجينيا.
فقال: أوه.

وأتبع هذا صمت طويل، فأدرت بصري في المنطقة المحيطة بكشك الهاتف حيث متجر صغير في مكان نائي عليه لافتة مكتوب عليها " متجر ميشيل "، وتذكرت تلك الليالي التي قضيتها مع ساشو نائمين على الصخور، وظلمة السماء المائلة للزرقة، وجو الليل المنعش، والإحساس بالهواء على الجلد

كشف المستور

العاري من جسدي، وتذكرت الوقوف على قمم الشلالات الرائعة
وساشو — الذي لا أذكر ملامح وجهه تمامًا الآن — ينظر لي
ويخبرني بأنه يرغب في أن يتزوجني يومًا ما، وكان ساشو
يفكر في الانتقال لنيوزيلاندا ليحصل على تأشيرة ويتعلم شيئًا،
بينما أشتغل أنا بالتدريس أو الكتابة، ونعود في الصيف أو في
أعياد الكريسماس إلي بلغاريا ننتزه في البحيرات السبع بجبال
ريلا، ونزور قرية جدته في السهول الوسطي ونتسلق الجبال
المحيطة بسواحل البحر الميت.

وتشبثت بالهاتف بشدة وأنا أشعر بالوحدة والكآبة الشديدة، وقلت:
ظننت فقط أن بإمكانني أن أتصل بك.

قال: ألا زلت بوظيفتك ؟

قلت: ما الذي تعنيه ؟ نعم، أنا أعمل.

قال بضحكة بدت مفتعلة: أليست مهنة هامة جدًا ؟

قلت: ليست كذلك، ما الذي تفعله أنت ؟

قال: لا شيء سوى المعتاد ؛ العمل والدراسة وتسلق الجبال.

قلت: الدراسة ؟

ولم يكن ساشو أكمل دراسته بالجامعة الفنية بصوفيا لاهتمامه
الزائد بتسلق الجبال، فقال: أدرس علوم الحاسب بجامعة بركلي،
وأحب دراستي بها لكن لم يعد عندي المزيد من الوقت للتسلق.

كشف المستور

فتمتت: عظيم جدًا يا ساشو، أنا فخورة بك.

وتحدثنا لدقائق تالية، وأخبرني أنه حصل على إقامة شرعية بعد أن أصبح طالبا مقيدا بإحدى الجامعات الأمريكية، وأنه تعرف على فتاة كورية بفصل اللغة الإنجليزية وأنهم يعيشان الآن معًا بسان فرانسيسكو، وقال: يمكنك أن تقولي: إنها عائلتي هنا. وأحسست أنني يمكنني أن أتخيله — لو أنني أردت — في صورة أخذها مصور ألماني وبجانبها عبارة "الصخر والجليد".

وعندما أعدت وضع سماعة الهاتف أحسست بأني ارتحت كثيرًا لأن ساشو يتحسن، ولم يعد هناك داعي لأشعر بالندم، وفي نفس الوقت ذعرت لأن ساشو كان في الحقيقة يتقدم في حياته أفضل مني. وتعجبت من عدم تمكني من الرد على أسئلته البسيطة مثل "أين أنت؟" وفكرت ما الذي كان ينبغي على قوله؟ وما الذي فعلته أو أنجزته في الأشهر الماضية؟

وتغلب على الحزن فألقيت بنظري على موقف السيارات وكأني أبحث عن مكان أذهب إليه كمرفأ أستريح فيه من عناء أفكار، ولمحت سيارة أعتقد أنني أعرفها في أحد أركان الموقف وسائقها ومن بجواره ينظرون لي مباشرة.

فلعنت هذا الحظ العاثر في سري وسجلت في عقلي نوع السيارة وسنة إنتاجها ثم توجهت إلي سيارتي وركبتها في هدوء

كشف المستور

وخرجت بها من الموقف ثم دونت أرقام لوحة السيارة، وطرده
عقلي كل الأفكار المتعلقة بساشو وركزت تفكيري فيما سيحويه
تقرير المراقبة.

* * * * *

امتدحت في اليوم التالي على تمكني من اكتشاف المراقبة،
وعنفت أيضاً لجذبي الانتباه بتوقيفي لإجراء مكالمة، وقال لي
بول: كان ينبغي أن تعرفي أنك مراقبة قبل إجراء المكالمة.
وقال آدم: كان ينبغي عليك ألا تقومي بعمل أي مكالمات على
الإطلاق. وغادرت الاجتماع غاضبة ومتضايقه بشدة وأنا أقول
لنفسي: " من آدم هذا ليخبرني أنني لا يمكنني الاتصال بصديقي
السابق ؟ "، وأشعروني كما ولو أن مواعدة أجنبي نوع من
الخيانة، وتذكرت في حزن المرات العديدة التي أخبرنا فيها
مدرّبونا وزملائنا الرجال بقصص نزواتهم ؛ كأندية التعري
التي اعتادوا التردد عليها بأوروبا الشرقية أو العاهرات
التايلانديات اللاتي استمتعن بهن فقط من أجل التأكد من أن
المرأة الشرقية الجميلة هي حقاً جميلة !

ومن كثرة اعتيادي على سماع هذه القصص عن الضباط
الميدانيين والمتدربين الرجال لم أتحمّل سماع المزيد وبدأ لي

كشف المستور

وكانهم لا يهتمون إلا بهذه الأمور، وتضايقت بشدة من معايير
الوكالة المزدوجة بصورة غير معقولة.

وجافاني النوم تلك الليلة، وأحسست بغيرة شديدة من ساشو الذي
تسير حياته على نحو سلس بعد أن أعدته إلي سان فرانسيسكو
محطم الفؤاد مفلس وعلى وشك التعرض للترحيل من البلاد ؛
بينما كان أمامي في هذا الوقت طريقاً معبداً ينتظرني، والآن بدا
لي هذا الطريق وكأنه تحول لنفق طويل مظلم في نهايته ضوء
بدأت أتشكك بشدة في صحة وجوده.

* * * * *

... --

كشف المستور

لم تتم عملية تجنيد باري أثناء لقائي به في حجرتي بصورة جيدة.

وصاح باري: ما الذي تعنيه برغبتك في أن أعمل لحساب الحكومة الأمريكية؟ وقفز من على السرير الذي قدته للجلوس عليه — حيث لم يكن هناك مكان إلا لكرسي واحد — وأزاح المائدة الصغيرة التي وضعت عليها بعض الجبن والكعك والبسكويت، ولم تبد منه أي من مظاهر اللياقة، ورفض تناول الطعام بسبب ما قال: إنه عصبية شديدة بسبب ما طلبته منه فقلت له: إنك لن تعمل فقط لصالحنا ؟

فاحمر وجهه بشدة وقطب جبينه وقال: أي نوع من الرجال تظنينني ؟ هذه إهانة، هل أنت عميلة بوكالة الاستخبارات المركزية ؟ قلت: أنا بالفعل أعمل في إحدى المهام الاستخباراتية، وهذا تحديدًا هو السبب الذي ينبغي أن يدعوك للثقة في، وأن تشاركني أمور ككثلك التي شاركتني فيها من قبل... أعني مثل إخبارك لي أن نسيبك ينوي تنفيذ انقلاب ؛ فأنا الشخص الذي يمكن أن تتقل من خلاله هذه المعلومات بصورة آمنة إلي واشنطن دون أن يعرف أحد مصدر المعلومة، ويمكنك أن تساعد صناع القرار بواشنطن على التخطيط لنظام حكم جديد بفنجلوريا يلعب فيه نسيبك دورا مهما، وواشنطن — مثلك تمامًا

— ترغب بمنتهي الأمانة في تحقيق مصلحة فنجلوريا. فزمر

باري قائلاً: سألتك سؤالاً محدد: هل أنت عميلة بوكالة

الاستخبارات المركزية أم لا ؟

قلت: أنا — كما أخبرتك — مخولة من قبل حكومة الولايات

المتحدة بإدارة الشيء ون الاستخباراتية، وأنا مدربة على نقل

المعلومات الحساسة ؛ أي المعلومات التي تحمل صفة " سري

للغاية " كتلك التي أخبرتني بها. وكنت أحاول أن أضغط على

باري بالطريقة التي تدربنا عليها بأن خبره بأنه قد اشترك

بالفعل في عملية تجسس وأنه خان بلاده، لينتقل دوري بعد ذلك

لتحويله من نقل المعلومات دون مقابل إلي نقلها بمقابل.

ولم يبد أي تأثير لقوة إقناعي فقفر باري قائماً وسحب سترته

هاماً بالخروج وهو يقول: هذه إهانة.

وسمعنا فجأة صوت صياح بالرددة تلاه صوت آدم العالي ثم

صوت سالي العاصفة وهي تقول: لا أعرف شيئاً أيها الضابط

عما تتحدث عنه، أنا هنا وحدي.

فدفعت باري تجاه باب دورة المياه وقلت له: اختبئ بدورة المياه

بسرعة، هناك حملة أمنية.

وأخفيت أطباق الجبن والكعك بالدولاب وألقيت بأغطية السرير

والوسائد على الأرض استعداداً لأسوأ سيناريو وهو أن تجد

الشرطة باري يدخن بدورة المياه وأبرر وجوده بأننا كنا مجتمعين لشأن خاص، وكانت هذه هي القصة المتفق عليها في حالة سقوط ضابط ميداني (امرأة) مع أحد الأصول (رجل). لكن لحسن الحظ لم يكن هذا هو اليوم الذي يلقي على القبض فيه ؛ فبعد دقائق سمعت آدم ومن معه وهم ينصرفون.

ولم أتمكن من أن أمنع نفسي من الضحك عندما سحبت ستارة حوض الاستحمام لأجد باري واقفاً خلفها، ولحسن الحظ كان غضب باري قد ذهب أو حل محله الخوف.

وقال باري وهو يخرج إحدى قدميه الضخمتي ن من حوض السباحة: أعتقد أنك محقة، لقد خضت في هذا الموضوع أكثر مما كنت أظن.

قلت: لا تفكر يا سيدي في الأمر على هذا النحو، وانظر إليه على أنه مساعدة تقدمها لبلادك.. . ولابتك.

ولم أصدق مدى انحطاطي وأنا أقوم بهذا الدور، لكن سرعان ما تم تجنيد باري ووافق على إمدادي بمعلومات سرية مقابل أربعمئة دولار فينجلوري شهرياً، ووقعنا عقداً سرياً ودبرنا خطة اتصال دون استخدام الهاتف نهائياً وتصافحنا وفتحت زجاجة شمبانيا للاحتفال بنخب علاقتنا الجديدة.

وبهذا أكملت مهمة " الحفلة "، وأخبرني باري بعد ذلك في

كشف المستور

جلسات التقييم أني أديت دوري بإتقان شديد أثناء كل جزء من
الخطّة، وكان هذا مفاجأة لي لأنني ظننت أن أدائي أثناء اجتماع
التجنيد كان في غاية السوء ؛ إلا أن باري قال لي أني مجنّدة
بالفطرة.

ثم أربكني باري بسؤال لم أسمعته من قبل أو أسمع أن أحد
عملاء الوكالة سبق أن طرحه ؛ فقد سألتني عن مشاعري لحظة
التجنيد وقال وهو ينظر لي على نحو غريب: هل كنت مسرورة
وأنت تجنّديني ؟ أشعرت بمتعة إنهاء المهمة ؟

وكان هذا هو اللقاء الأول لنا خارج الأوار التي كنا نلعبها،
فقلت: حقيقة لم أشعر بالسعادة، بل شعرت بالرعب، وبشعور
سيئ تجاه تلاعبي بك، وكنت حزينة على ابنتك المريضة.
فضحك باري وقال: لا تقلقي، فليس لدي بنت.

فحمدت الله وأحسست بالهدوء وتراخي كنتفاي اللذان اعتادا على
أن يظلا مرتفعين طوال الوقت.

وأسر لي باري بعد ذلك أنه بدأ حياته بالمخابرات كضابط
ميداني، لكنه اكتشف أن هذه المهنة مرهقة بشدة وأنها لا ترضي
رغباته كما كان يظن، وقال: لم أجد وقتاً أقضيه مع زوجتي
فقررت الانتقال لقسم التقارير.

فتعجبت بشدة لأنني لم أسمع من قبل عن ضابط ميداني ينتقل

كشف المستور

لقسم التقارير حيث كان ضباط التقارير ينظر إليهم داخل إدارة العمليات على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية.

فقلت مندهشة: حقاً ؟

فقال باري: نعم، كان هذا هو القرار الصائب الذي ينبغي على اتخاذه، وقد يكون العمل في قسم التقارير غير فتان أو بعيد عن التخطيط الذهني العالي إلا أنني لا أزال أؤدي دوري، وأنا من بين القليل من الضباط المحتفظين بزوجاتهم، وأعني بهذا الزوجة الأولى. ثم سحب باري المفكرة الزرقاء الصغيرة التي دون بها تقييمي وقال: على كل حال، لقد أعطيتك درجات عالية جداً بصورة استثنائية، ولا داعي للقلق من كتيبة الإعدام في هذه الجولة. وصافحني وأنا أخرج من مكتبه وقال لي: ينتظرك مستقبل واعد أيتها الشابة بغض النظر عن ما يمكن أن تقومي به. وجعلتني صراحة باري أفكر في كل ما مررت به فلم أجد — حقاً — أي متعة أثناء تجنيد أجنبي، وفي نفس الوقت يتعين على أن أجد الأجانب لأصبح ضابطاً ميدانياً ناجحاً ؛ بل إن كل مهمتي في الوكالة هي التجنيد، وبعد أن واجهتني هذه الحقيقة المقرزة، بدأت أفكر في بديل آخر وهو أن الأفضل لي بلا جدال أن أصبح ضابط تقارير. ولم يكن من الغريب أن النساء في إدارة العمليات ينهمن في العمل وسط أكوام التقارير، ولم تكن هذه

كشف المستور

الوظيفة تتطلب النزول للشارع وقضاء ساعات الليل الطويلة بالخارج، إلا أنها كانت تعد أقل مجالات العمل طموحًا بالوكالة، وسيتوجب على كضابط تقارير أن أتنازل عن بعض الإثارة، لكنني سأستمتع ببعض الجوانب من بساطة الحياة العادية، وسأظل أيضًا أخدم بلادي. وطلبت في اليوم التالي أن ألتقي ببول على انفراد وأخبرته نيّتي الانتقال إلى قسم التقارير فانزعج بشدة واتسعت عيناه من الدهشة وكأنني قلت أنني أنوي الاستقالة لأنتقل للعمل بالسيرك. وقال بول: أنت لا ترغبين في عمل التقارير وستسأمين لأن مجالك الوظيفي لن يتقدم في أي اتجاه، وعمل التقارير هو لمن لا يقدرّون على فعل المهام الكبرى. قلت: لا أشعر بالارتياح تجاه عملية التجنيد ككل.

فنظر لي بحذر وقال: ماذا تقصدين ؟

قلت: أعني فكرة استغلال احتى اجات الأخرى ن والتلاعب بهم لإجبارهم على فعل ما لا يمكنني فعله أبدًا، فهذا ليس أنا. فردد بول على مسامعي التبريرات المعتادة وقال: كل من يجند يرغب في التجنيد، ونحن نقدم لهؤلاء الأشخاص معروفًا بإعطائهم فرصة للمساهمة في تغيير مصائر بلادهم فليس كل الناس يستمتعون بالحرريات التي نستمتع بها هنا في الولايات المتحدة. ألسن تعرفين ذلك ؟

كشف المستور

قلت: انظر يا بول، أنا أعرف تمامًا لماذا نفعل هذا، لكن كل ما في الأمر أنني لست الشخص المناسب.

فدارت عيناه في دهشة ونظر لي نظرة استجداء، ثم قال: ما الذي ظننت أنك ستقومين به عندما أتيت للعمل بوكالة

الاستخبارات المركزية ؟

فأحسست بأن هذا سؤال جيد، وعدت بذاكرتي إلي أفكارى الرومانسية القديمة.

قلت: أظن أنني تخيلت نفسي سأقوم باقتحام السرايب المجهولة وتسلق الجدران وأنا أرتدي زيًا أسود، وكنت أعتقد أنني سأسرق أسرار الدول الأخرى ، وليس أحد الأجانب عاثرني الحظ الذي ربما يقبض عليه أو يقتل لو أنني فشلت في عملي !

قلت كل هذا وأنا أدرك تمامًا مدى سذاجة ما أقوله، ومدى سذاجتي في الماضي عندما كنت أفكر بهذه الطريقة.

قال بول: أنت من تسرقين الأسرار، ولا تحتاجين إلا إلي الشخص المناسب الذي يخبرك بهذه الأسرار. صدقيني يا ليندسي ؛ بمجرد أن تنزلي الميدان ستريين كل شيء يتغير فور تحقيق نصرك الأول.

ولم أجد أدنى حماسة أو تأثير لهذا التعبير الذي يكرره المدربون والمتدربون على حد سواء حول تعلق نجاح أو فشل أي ضابط

كشف المستور

ميداني بعدد النجاحات التي يحرزها.

واستمر حوارنا في اللف والدوران حتى أيقن كل منا أنه لا

يحرز أي تقدم في إقناع الطرف الآخر بوجهة نظره.

واستدعيت في اليوم التالي لمكتب آدم الذي قال بانفعال: سمعت

أنك تريدان الانتقال لقسم التقارير.

قلت: نعم، أظن ذلك.

ولم أكن أشعر أبدًا بالارتياح لآدم.

وقال: سيكون هذا قرارا في غاية السوء ؛ هذا قرار سيئ جدًا

لنا، وكذلك لك.

ولم يشغل آدم نفسه بمبرراتي التي أخبره بها بول، وأوضح لي

أنني لو تركت مجال العمل الميداني فربما أترك المخابرات كلية،

ولم يبد منه أي تعاطف تجاه مخاوفي، وقال: بمنتهى الصراحة ؛

كان ينبغي عليك أن تفكري في هذه الأمور قبل الالتحاق

بالوكالة.

ولم أتمكن من مجادلة هذا المنطق، واستمر بول وآدم طوال

الأسابيع التالية يلعبان معي خطة الطيب والشرير حيث كان بول

يحاول إقناعي أن عمل الضابط الميداني ليس بالسوء الذي أظنه،

وآدم يذكرني أنني ليس أمامي أي خيار، وفي النهاية تراجعت

عن موقفي، ووافقت على الاستمرار في تدريباتي كضابط

ميداني مع تأكيد بول لي بأني يمكنني التراجع في أي وقت —
حتى اللحظة الأخيرة — للانتقال للعمل بقسم التقارير.
وهدأت حدة مخاوفي في الأسابيع التالية عندما انتقلنا من
التدريب على " التجنيد " للتدريب على مهارات الجاسوسية التي
بدأت بدورة متقدمة في اكتشاف المراقبة بمدينة قريبة.
وأثناء أسبوعي التدريب توجب علينا وضع خطط يومية لجولات
بطرق مختلفة بالمدينة على الأقدام أو باستخدام المواصلات
العامة أو بالسيارة، وبمجرد وضع الخطة يتعين علينا البدء في
السير في الطريق المحدد القيام بعدة " محطات توقف " في
المتاجر، وإذا اكتشفنا المراقبة فيجب علينا أن نجمع أكبر قدر
من التفاصيل المتعلقة بالأشخاص أو المركبات التي نتعقبها مع
الحفاظ على هدوئنا وثباتنا ولا نحاول الهروب من المتعقبين بل
ننظاير بعدم ملاحظتهم واستمرارنا في مهام عملنا اليومية.
ويتم تقييمنا — في المقام الأول — على أساس مدى قدرتنا على
تحديد المتعقبين، وإذا فشل المتدرب في ملاحظة المتعقبين أو
كتب تقريراً عن تعقب وهمي — يطلق عليه " رؤية الأشباح "
— فإن المتدرب يرسب في الدورة كلها لأن هذا دلالة على عدم
الإلمام بأهم المهارات الأساسية للضابط الميداني، وأوضح لنا
آدم أن من سيفشل في اجتياز اختبارات كشف التعقب سيطرء

من التدريب، لأن الضابط الميداني الذي يفشل في اكتشاف التعقب ربما يتسبب في كشف عميله المحلي والتسبب في إلقاء القبض عليه وربما إعدامه أيضًا طبق القوانين المطبقة بأغلب البلدان. ولهذا السبب فقط حاولت قدر المستطاع تجاوز هذا التدريب بنجاح، وأمطرنا المدربون بوابل من القصص عن ضباط ميدانيين أصابهم الخمول أثناء عملهم بالدول الهادئة فلم يهتموا بملاحظة ما إذا كانوا يتتبعون أم لا، وتسبب هذا في تلوث سجلهم الوظيفي بتصنيفهم على أنهم " عملاء تم القبض عليهم ". ومزدحمة من كلا الجانبين، وخرائط لطرق نائية ومنعزلة، وتعلمنا كيف نصف متعقبينا بدقة وأنواع سياراتهم وأرقام لوحاتها وأشكال المتعقبين، وكانت السيارات هي نقطة ضعفي، لكنني تميزت فيما يتعلق بجزئية المظهر العام، ومعرفة أسماء العلامات التجارية والمحال التي تبيعها وما إذا كانت القبعات والحقائب والأحذية من إنتاج هذا العام أم العام الماضي. وكان برنامج التدريب في غاية القسوة لدرجة أننا لم نكن نعرف أين ولا متى سنتتبع، وتطلب هذا منا أن نبقي متيقظين دائماً، ومثل هذا التدريب عذاباً للفتيات اللاتي لم يكن شغوفين بالقيادة، وتضايقت بشدة من القيادة وخصوصاً القيادة الليلية، وتسبب هذا في أنني تهمت عدة مرات أثناء التدريبات الليلية.

واعتدنا أثناء القيادة على تدوين الملاحظات حول المتعقبين على ركبنا دون أن يلاحظ أحد ذلك، وتعجبت من عدم وقوع حوادث بسبب هذا باستثناء حادثة واحدة وقعت لأحد المتدربين السابقين من نيويورك. وكان من أهم أهداف هذا التدريب ؛ التعود على القيادة السلسة قدر المستطاع دون إثارة الانتباه ؛ وذلك بعدم القيادة ببطء شديد، أو بسرعة شديدة، أو كسر إشارات المرور، أو الانعطاف المفاجئ. وقال لنا أحد المدربين: الهدف هو أن تهددوا مراقبيكم حتى يناموا، وتجعلوهم يملون ملل قاتل. وستعرفون قيمة هذه المهارة عندما تذهبوا في مهامكم خارج الولايات المتحدة حيث سيقنع أداؤكم أي مسؤولين أمنيين يتعقبونكم بأنكم مجرد دبلوماسيين أمريكيين عاديين ولستم جواسيس تابعين لوكالة الاستخبارات المركزية. وعانينا من الوحدة الشديدة طوال فترة التدريب على اكتشاف التتبع، فقد كنا نظل منفردين فترات طويلة باستثناء وقت اجتماعنا مع المدربين الذين عين واحد منهم لكل طالب منا، ودارت شائعات حول مدربي تتحدث عن أن العديد من جواسيسه تم تعقبهم وإعدام أغلبهم، ولذلك لم أنزعج لإحساسه الدائم بالضيق والاضطراب، ولم أندش عندما كان يحضر الاجتماعات ورائحة الفودكا تفوح من فمه.

وكان هذا أقصى ما سمحت لي به الوكالة من الاتصال البشري بالآخرين، واعتدنا فيما سبق أن ننزل بعدد من الفنادق الموجودة بالمدينة وحولها، إلا أننا كان يتعين علينا عدم الاتصال ببعضنا منذ بدأنا السفر مستخدمين شخصيات مستعارة. لكن الوحدة والرغبة في الثورة على هذا الوضع كانت تتغلب علينا من آن لآخر، فاعتدت أن أجتمع مع أوفليا وأليس ومارك مساءً بحمامات البخار في الفنادق وكان هذا اللقاء حدث صدفه، وكان هذا أفضل من لا شيء. وإذا كان هناك شيء واحد اتفقت عليه أنا وكافة زملائي ؛ فهو الرغبة في التصرف بانحراف مثل كافة مدربيننا، فعلى سبيل المثال اشتهر أحد مديري إدارة العمليات بأنه زير نساء، ولم تكن هذه الصفة مشكلة في حد ذاتها، بل المشكلة أنه كان يرتكب مخالفات داخل مقرات الوكالة أشبه بتلك المعروفة عن بل كلينتون، ودارت الإشاعات كالنيران في الهشيم عن القبض عليه أكثر من مرة وهو في هذا الوضع. وتعرفت في أثناء هذه التدريبات على كريس الذي قابلته للمرة الأولى في أحد الحانات وهو يتحرك بخفة ورشاقة خلف طاولة المشروبات ليقدم الخمور المختلفة للزبائن فأحسست بأنه ممتلئ بالحياة، وتعلقت بكريس فترددت على هذه الحانة شبه يومي، واكتشفت بعد ذلك أن كريس وباقي طاقم العمل بالحانة راودهم

إحساس خاطئ بأنني ناقدة للمطعم فقدموا لي خدمة راقية، وسهل هذا لي ترتيب لقائي الأول مع كريس.

قابلت كريس أحد أيام الأحد — يوم العطلة الوحيد بالتدريب — على الإفطار في أحد المطاعم فسألني: ماذا تعملين ؟ قلت: أعمل بالحكومة الفيدرالية.

قلت هذا وأنا مشمئزة من الكذب وأود لو أن بإمكانني أن أخبره بالحقيقة، فسألني: وما الذي تفعلينه ؟

فقلت وأنا أظهار بالنظر إلي طريقي وأحاول تجاهل نظرات كريس المملوءة بالشغف: حسناً، أنا أتدرب للعمل بالسلك الدبلوماسي، ذلك النوع من العمل الذي تسمع عنه خارج البلاد. وانبهر كريس بشدة عندما سمع هذا لأنه لم يكن سافر إلي أبعد من كلية أوليميس التي درس بها، وزاد انبهاره بشدة عندما علم أنني درست بهارفارد وعشت فترة ببلغاريا التي لم يكن سمع اسمها من قبل.

وتسكعنا بعد الإفطار بشوارع وسط المدينة ثم تجولنا بحديقة الحيوان وفي نهاية اليوم قال لي كريس: لم أقابل من قبل أحداً مثلك، متى يمكنني أن أراك ثانية ؟

ولم أتمكن من النوم تلك الليلة من شدة الكرب الذي أصابني من هذا السؤال، ثم بدأت أخطط وأتأمر، وقد حذرنا من قبل من

كشف المستور

مخالفة قاعدة:

“ ممنوع استخدام السيارات الحكومية للأغراض الشخصية ”
وتسببت هذه القاعدة في تحويل حياتنا إلى جحيم، فلو أننا أردنا
— على سبيل المثال — الذهاب في إحدى عطلات الأسبوع إلى
شاطئ فرجينيا الذي لا يبعد عنا إلا ساعة واحدة فإنه يتوجب
علينا أن نقود السيارة لثلاث ساعات حتى نصل لواشنطن
العاصمة حيث نبدل السيارة الحكومية بالسيارة الخاصة ثم نسافر
لأربعة ساعات حتى نصل لشاطئ فرجينيا، ونكرر هذه الرحلة
السخيفة عند العودة في اليوم التالي، واعتاد آدم أن يطرق
مسامعنا دائماً بقوله: “ السيارات الحكومية لا تستخدم إلا
للعمليات فقط ”.

ولم يأخذ أحد منا هذا التحذير على محمل الجد، وكنا نخطط
للرحلات في الحدائق والمنتزهات العامة وشاطئ فرجينيا،
وبطبيعة الحال كان لا بد من معاقبة أحدها ليكون عبرة
للآخرين.

وقرر شاب عاثر الحظ أن يقود سيارته للبيت في عطلة نهاية
الأسبوع، وأن يتوقف في الطريق لشراء هدية لصديقه —
المهجورة بلا شك — ولسوء حظ هذا الشاب أن قابلته إيتا
الشريرة التي كانت تعمل بإدارة الموارد البشرية وتتلصص على

كشف المستور

أنشطة وحدة التدريب السرية، وعندما سألته إيتا وهي تنتظر للهدية التي بيده: ما الذي تفعله هنا ؟

أجابها الشاب بكل أمانه: أنا في طريقي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع بالبيت، وتوقفت لشراء هدية لصديقتي.

وبعد يومين أرسلت إيتا أوراق طلب استبعاده من البرنامج لمخالفته للتعليمات.

وكانت إيتا مشهورة بقساوة القلب، وأذكر أنني عندما كنت أحاول المحافظة على علاقتي بساشو مع عدم مخالفة تعليمات الوكالة ذهبت لإيتا أطلب منها النصيحة فقالت: لماذا لا تتركين هذا الموضوع برمتة.

وقالت لي وهي ترافقني إلي الباب: الأوروبيون الشرقيون لا يمكن الثقة فيهم.

وأحسست أنها ذاتها أحد آثار الحرب الباردة.

وبعد أن علمنا نبأ الحظ العاثر الذي وقع فيه هذا الشاب بدأنا نأخذ التعليمات مأخذ الجد، وقال لنا إيثان وهو يمزح: لو أنكم عانيتم من نزيف داخلي حاد وخرج الدم من أفواهكم فمن الأفضل أن تذهبوا للمستشفى بأحد سيارات الأجرة فربما تكون إيتا تتلصص على موقف سيارات المستشفى.

وكان ينبغي علينا أن نلتزم بالتعليمات في كل شيء حتى في

كشف المستور

الأمر الشخصية مثل الذهاب للمغسلة أو الاتصال بالمنزل من كشك هاتف عمومي.

وأحسست بعد لقائي بكريس أنني أقع في الحب فلم أكن واعدت أحدًا منذ انفصالي عن ساشو، وكنت في أشد الحاجة لصديق فقد كان العديد من زملائي متزوجين ؛ وعلى الرغم من هجرهم لزوجاتهم وأطفالهم لفترات طويلة إلا أنهم كانوا يعودون لأسرهم بعد ظهيرة يوم الجمعة عندما يخف ضغط العمل.

وقبل أن أتعرف على كريس لم يكن عندي من أذهب إليه فقد كتبت لي صديقاتي يخبرنني أنني لم أعد محل ثقتهن، وفي المرات القليلة التي ذهبت فيها لواشنطن العاصمة كنت أعلق بأمي التي كانت في غاية القلق على صحتي النفسية وقالت لي أكثر من مرة: لا أرتاح للتغيير الذي يحدثه فيك هذا المكان، فأنت تبدين وكأنك تتفصلين تمامًا عن بقية العالم.

وأحببت الذهاب إلي كريس الذي كان يعيش حياة بوهيمية ويعد لي الوجبات اللذيذة ويدخن الماريجوانا — التي لم أتعاطاها — وانشغل دوري في التسلل لأفنية جيرانه وسرقة الزهور منها. واعتدت أن أجلس مع كريس بشرفة منزله وأتحدث معه مطولًا عن جمال اللقاءات التي تتم بالصدفة مثل اللقاء الذي جمع بيننا. واعتدت مع مرور الوقت الاعتماد على كريس بوصفه حلقة

الوصل الوحيدة التي تربطني بالعالم الخارجي بصورة غير طبيعية، ولست في حاجة لإيضاح مدى تأثير هذا على علاقتنا بجانب فشلي في الإجابة على العديد من أسئلته مثل:

“ لماذا يتوجب على الانصراف في منتصف الليل ؟ ”

“ أين أذهب ؟ ”

“ لماذا ليس لدي رقم هاتف يمكنه الاتصال به ؟ ”

“ لماذا أحضر كل مرة بسيارة مختلفة ؟ ”

وكان عندي بعض الإجابات على سلوكياتي الغريبة، لكن الاستمرار في الكذب كان مزعجا، وبدأت أفقد الخط الفاصل بين الحقيقة والكذب، وبمرور الوقت أصبح التواصل معي صعب، وأصبحت في رأي كريس غير جديرة بالثقة.

وأملت أن يهتم بي كريس أكثر بعد عدم تمكنه من تعقب عدم مصداقيتي، فلم يكن بإمكان أحد أن يتهمني بأني سهلة المنال، لكن بمرور الوقت أحس كريس بأني محيرة أكثر مني مغرية. وذهبت لكريس ذات ليلة في وقت متأخر دون أن يتوقع

حضورى، وأثناء جلوسنا على الأريكة نستمع لويلكو ونحتسي الخمر قال لي كريس: أريد أن أكون أمينا معك، أعرف أنك مغرمة بي لكني لست متأكد من إمكانية استمرار هذا الوضع. قلت: ما الذي تعنيه، بالطبع ستستمر علاقتنا وتتجح.

كشف المستور

وكننت قد فكرت في أن أصحب كريس معي — بطريقة ما — في جولاتي خارج البلاد.

فقال كريس وهو يشعر بياسي الواضح: لا يمكن يا لندسي، فقد تعرفت على واحدة تعيش هنا وتعمل معي في المطعم... .. وبدأ كريس يضربني بكلامه، وصدمت من تفكير كريس في الـ "واحدة" فهي بالطبع إنسانة تعيش حياة عادية، وتساءلت: من أنا؟ وأدركت أنني إنسانة تروح وتجيء وتكذب باستمرار وبصورة غريزية، فلست إلا إنسانة مهمتها في الحياة أن تستغل الآخرين، ولست — بمنتهى الوضوح — إنسانة يمكن الوثوق بها، وأدركت أكثر من كريس أنني لا أرغب في الحياة مع إنسان على شاكليتي.

فقلت وأنا أهم بالوقوف: حسناً.

وبعد دقائق كنت أقود سيارتي متجهة إلي وليامسبرج وعيناوي مغرورقتان بالدموع.

وبعد أيام اتصلت بكريس وطلبت مقابلته مرة ثانية على أمل أن أنقذ علاقتنا، واعترفت له في هذا اللقاء بأحد المطاعم — بعد أن جلست أمام طبق السمك الياباني الذي لم ألمسه — أنني أعمل بوكالة الاستخبارات المركزية وقلت: هذا هو السبب في مجيئي وذهابي بلا سابق إنذار، وسبب امتلاكي عشرة سيارات مختلفة

كشف المستور

وعدم امتلاكي لرقم هاتف معين.

واستراح كريس وبدا عليه التأثر وعادت علاقتنا لسابق عهدها
واعتدنا التجول في أيام العطلات الأسبوعية واللعب مع كلبه
وسط أوراق الأشجار التي تتساقط في الخريف ومشاركته كوب
الجعة الأخير في أيام الأحاد قبل حلول الظلام وعودتي
للمزرعة. وفي نهاية المطاف تسببت ظروف عملي في أن
تتحول إلي مصدر ضغط شديد عليه، ولم تخفف الأوقات السعيدة
التي كنا نقضيها معًا من هذا الضغط، فكان كريس يرغب في
التعرف على الأصدقاء الذين يمكنهم التحدث عن طبيعة أعمالهم
وأن يتناولوا الماريجوانا معًا ولا تتجول أعينهم في كافة الأنحاء
بحثًا عن المتعقبين، وأعتقد أن كريس نظر لقصة وكالة
الاستخبارات المركزية ككل على أنها وصمة عار وبدأ يقلق
من أن أكون خطيرة أو مضللة، وربما الأمرين معًا.
وانسحب من حياتي فجأة بأن صار يخبرني في كل مرة أتصل
به أنه مشغول جدًا، فبدأت أعتاد على الذهاب أثناء العطلات إلي
واشنطن العاصمة وأنا أشعر بالندم، والاشتياق الشديد لسماع
لكنة كريس الجنوبية الرقيقة فقد كان صوته بالنسبة لي أشبه
بالخمر، وتوجهت شمالًا إلي أمي المصدر البديل للراحة.

* * * *

الفصل السادس

سرت مع أليس بشوارع وليامسبرج متكرين كزوجين سائحين ونحن نلحق أكواز البوظة وهو يرتدي قميصا مبهرجا بألوان متعددة وسروال جولف فضفاض وخط من البوظة متعلق بشاربه الرفيع، وأنا إلي جواره حامل في شهري الثامن وأرتدي ثوباً فضفاضاً بالإضافة إلي الوسادة المربوطة على بطني والشعر الأحمر المستعار والنظارات الكبيرة التي يعود طرازها إلي فترة السبعينات، وتوقفت أمام واجهة عرض أحد المتاجر لألمح انعكاسي في الزجاج فبدأ لي مظهري أشبه بمهرجة بدينة بدلاً من امرأة حامل.

وأمدنا بأدوات التتكر قسم التتكر بالوكالة الذي قدم بعض مسؤوليه اليوم إلي المزرعة. وقدمت لنا امرأة نفسها على أنها "متخصصة تغيير الهوية" وأخرجت لنا بمنتهى الفخر شيئاً بدا أشبه بقناع عيد القديسين الذي يمكن لأي أحد شراءه من متجر لعب الأطفال بعشرين دولاراً، وقالت: هذه الأقنعة مصنوعة يدوياً، ويتكلف صناعة القناع الواحد الآلاف من الدولارات بالإضافة إلي شهور طويلة للانتهاء من عمله. وتتاول زملائنا الأقنعة الغالية أثناء فترة

كشف المستور

الراحة بأيدي رقيقة وعناية بالغة بينما سخرت أوفليا — التي كانت تعمل من قبل بمتجر أدوات تتكر — من هذا الموقف، وأخبرتني بأن الوكالة تجمع نفايات أدوات التجميل لتقدمها لنا في هذا التدريب.

وبعد فترة الراحة نقلنا علب الماكياج إلي خزائن ملابسنا حيث توجب علينا قضاء بقية اليوم في التمرن على الأدوار التكرية التي كلفنا بها، ولا زلت أتساءل عن أعطاهم فكرة تتكري في صورة امرأة حامل.

وبعد أن انتهينا من تتكرنا كانت أوفليا تضع شعرا غريبا جعلها أشبه بريك جيمس، وإيثان يرتدي لحية كبيرة التفت حول وجهه الأحمر الجميل وهو يرتدي سترة سوداء وقبعة كبيرة سوداء ويبدو أشبه بأحد أتباع الديانة المينونية.

وعندما قابلت عينا إيثان عيناى انفجرنا في الضحك، فلم أكن أتخيل أن أتقاضى المال مقابل مثل هذه المتعة.

* * * * *

انغمست في الأعمال اليومية الروتينية بالمزرعة على أمل أن أنسى إحساس القلق والعزلة الذي ملأ عالمي، ولا أنكر أنه مرت علي لحظات صفاء أثناء الجري بالغابات والسباحة في الصباح الباكر بحمام سباحة المعسكر وأثناء تنزهي ليلاً بالدراجة مع إيثان، لكن سرعان ما كان يتبدد هذا الصفاء لتحل محله مشاعر الحزن والحنين إلي الماضي الذي سلبته المزرعة مني، وكنت على يقين من أن كل الضباط الميدانيين العظام على مدار تاريخ الوكالة بدعوا حياتهم من هنا ؛ وتساءلت في نفسي عما إذا كنت سأصير مثلهم بعد أعوام. ووجدت القليل من المدربين ملهمين وودودين، وكان أكثرهم تأثيراً مجند أسطوري يدعى بل عَيْن معلماً لي، واختلف بل عن الآخرين ببعده عن الثروة بلا داع والرغبات الجنسية المشينة، وزاد من سروري معارضة بل لأسلوب آدم علانية، ومنذ أن صار تعيين بل بالمزرعة أشبه بالإحالة للاستيداع صار بل يقول ما يخطر على باله دون وضع أي اعتبار لمن يعترض عليه أو يتهمه، ومن سخرية القدر أن بل الذي اشتهر بتحقيقه رقماً قياسياً من النجاحات في التجنيد كان المدرب الوحيد الذي أخذ مخاوفه الأخلاقية فيما يتعلق بالتجنيد على محمل الجد ووافقني الرأي في ضرورة الانتقال إلي قسم التقارير. وقال لي بل عندما اعترفت له بحقيقة مشاعري

تجاه عملية التجنيد: كنت أشعر كل مرة أجند فيها عميلًا بنشوة عارمة، لكنني أتفهم تمامًا عدم تمكنك من القيام بهذا الدور. وكان بل من ذاك الطراز القديم من الرجال الذي يرى أن المرأة لا تصلح لأن تكون ضابطًا ميدانيًا بأي حال من الأحوال.

وقال لي بل أكثر من مرة: لا أرضى هذا لابنتي، ولا يمكنني تذكر عدد المرات التي اضطررت فيها أن أرتدي ملابس في منتصف الليل لأنقذ ضابطًا ميدانيًا امرأة من بين براثن أحد العرب الشهوانيين. وأذكر امرأة شابة اتصلت بي ذات مرة في الساعة الثانية صباحًا وهي تستجدي بهستيرية، وعندما وصلت إليها كان أحد الشيوخ يطاردها بحجرتها في الفندق.

ولمحت لبل بمخاوفي في البداية لكنني بمرور الوقت تحدثت إليه صراحةً، ودائمًا ما كان يستمع لي بتعاطف ويمدني بالنصائح المقنعة، وبغض النظر عن حبه لهذه المهنة، فإنه كان متفهمًا عدم ملاءمتي لها، وكان يرى أن الوكالة تمثل لي عائقًا على الرغم من ولائه لها.

وقال لي ذات مرة: " لا تفقدي نفسك في هذا المكان يا لندسي فلا شيء يستحق ذلك، فالأفضل فينا يُنسى بسرعة حتى داخل القيادة نفسها "، وذكرني بأن أشهر ضباط الوكالة هم الفشلة والخونة.

كشف المستور

ولا تزال كلمات بل التي قالها لي في أحد اجتماعاتنا الفردية الأخيرة ترن في أذني حتى اليوم ؛ حيث قال لي: " بعد انتهاء عملك بالوكالة كوني على حذر وأنت تخرجين ولا تدعي الباب الدوار يضرب ظهرك. "

* * * * *

انطلقت أنا وإيثان في الطريق 64 متجهين لشاطئ فرجينيا في انتهاك شديد لقاعدة " ممنوع استخدام السيارات الحكومية للأغراض الشخصية " لأن الشاطئ كان يقع في مواجهة منطقة تدريبنا الحالية، وفكرت في أنني لو أمسكت سافكر في أي كذبة أخرج بها من هذا المأزق على الرغم من أنني سأكون وقتها في مشكلة كبيرة، وسألت إيثان الذي اعتبرته بشكل ما شريكي في الجريمة: ما الذي يجبرني على فعل هذا خصوصاً بعد أن قطعت شوطاً كبيراً في برنامج التدريب ؟

قال: أنت تريدان أن تختبري القدر بأن تنتظري طردك من البرنامج، فليس عندك القدرة على أن تقرري بنفسك الخروج من البرنامج.

قلت: حسناً، وماذا عنك ؟

قال: أريدان أختبر ما تعلمناه، وأريدان أتأكد من عدم القبض علينا. وكنت في هذه اللحظة أقضي مع إيثان عطلة — بعد شهور من

التدريب — لتصفية ذهننا تمامًا — “ الرحلة البعيدة ” حيث
سنعمل على تطبيق كافة الخبرات التي تعلمناها في كل ما
يختص بأساليب الجاسوسية باستخدام هويات مزيفة في مدينة ما،
وقسم الفصل إلي مجموعتين إحداها ستذهب إلي سان
فرانسيסקو والأخرى إلي فلادلفيا، وأحسست بخيبة الأمل عندما
تقرر أن أكون ضمن المجموعة الزاهبة لفلادلفيا التي بدت لي
أقل إغراءًا من سان فرانسيسكو، واختار أغلب الطلاب السفر
بالطائرة ليحبوا السفر جواً تحت اسم مستعار ولأن تذكرة
الطائرة كانت محجوزة في درجة رجال الأعمال، بينما اخترت
أنا الذهاب بالقطار الذي يستغرق خمس ساعات، وقررت ذلك
لأعطي نفسي فرصة للقاء كريس للمرة الأخيرة ؛ فمن السهل
قيام الوكالة بتعقب تذكرة الطيران خلفاً للقطار.
وتقرر أن يذهب الطلاب في عطلة نهاية الأسبوع لزيارة
أسرهم، وقررت أنا وإيثان أن نذهب للشاطئ فخرجنا من القاعدة
وقدنا السيارة وكأننا في طريقنا لواشنطن العاصمة، وبمجرد أن
تأكدنا من أننا لسنا مراقبين انعطفنا فجأة للسير في الاتجاه
العكسي متجهين إلي الجنوب، فقلت: هذا استغلال لأحد الفوائد
التي تعلمناها في التدريب.
فقال إيثان: حقاً.

كشف المستور

وفجأة وقف شعر إيثان من شدة الرعب وقال: هل هذه السيارة التي خلفنا سيارة آدم ؟ !

فغطست قدر الإمكان داخل مقعدي، وضحك إيثان وقال: أتظنين أن هذا التصرف سيجدي ؟ ! لو أن هذا الأحق رآنا لانتهى أمرنا. ولم يرانا آدم ولا أي من المدربين الآخرين وقضينا يوماً ممتعاً على الشاطئ وغطسنا وسط الأمواج كالدلافين، ثم تمشينا على الشاطئ ونحن نأكل الكعك والبوظة والشمس تغيب وراء الكثبان. ولم أتذكر المرة الأخيرة التي أحسست فيها بالحرية أو السعادة الغامرة، وأحسست في هذه اللحظة بمدى الإجهاد الذي صرت عليه، وربما كنت من أشد أفراد الفصل إحباطاً وأقضي ساعات الليل الطويلة متيقظة مثل العديد من زملائي، لكن الميزة السرية التي ساعدتني على الصمود هي قدرتي على الكتابة فكنت أنهى كافة مراسلاتي الافتراضية وأسلمها دون أن أفكر حتى في مجرد مراجعتها، بينما كان الآخرون أمثال سالي العاصفة يقضون قرابة الساعة يعانون الكرب في كتابة جملة واحدة. وكان أغلب المتدربين في الماضي يبدون وكأنهم لم يناموا لليال طوال، لأنهم في الحقيقة كانوا لا ينامون فعلاً، لكن بعد أن أنهينا اختبار التدريب العسكري والتجنيد وانتقلنا لتدريب اكتشاف التعقب زاد وزن الجميع لأننا لم نكن نفعل شيئاً سوى الجلوس

على مقاعد سيارتنا والانتقال بالسيارة طوال اليوم من مكان لآخر، ونأكل الوجبات السريعة والوجبات الدسمة ونشرب الخمر، ثم نقضي بقية الوقت جالسين على مقعد دوار. واعتدت أن أضحك مع إيثان على هذا الوضع وأقول له: إن مؤخراتنا ستصبح قريبًا كبيرة جدًا بسبب استمرار جلوسنا على هذه المقاعد، وسيشير إلينا موظفو الوكالة عند عودتنا إليهم بعد انتهاء التدريب ويقولون: " هذه المجموعة ذات المؤخرات الضخمة هي نخبة متدربي الوكالة على التجسس ! " وفي نهاية يومي أنا وإيثان على الشاطئ كان قد امتلأ شعرنا بالرمال وجسدنا بحروق الشمس، لكننا لم نبال بهذا، وانطلقنا شمالًا مرورًا بالمزرعة، وأنزلني إيثان عند نزل قرب محطة القطار لأخذ طريقي في اليوم التالي شمالًا إلي فيلي. وقاومت نفسي طوال الليل لأمتنع عن الاتصال بكريس، وفكرت فيما يمكن أن أقوله له، أأتصل به وأقول له: " آلو، أنا أليس... . أقصد ليندسي "، وفكرت في أن ظهوري المفاجئ بنزل ببلدته تحت اسم مستعار، لن يؤدي إلا إلي تأكيد شكوكه حول كوني حمقاء أو متقفية أثر أو هاربة من السجن أو شرطية. وفكرت في الذهاب إلي الحانة التي يعمل بها، لكنني فكرت مرة أخرى في مدى جدوى هذا التصرف ؟

ونكرت نفسي بأني على وشك الانتهاء من برنامج التدريب
وسأغادر البلاد خلال عام ؛ فلا جدوى من إعادة إحياء علاقة
ماتت موتاً بطيئاً مؤلماً. وقضيت الليلة أتناول دومينوز بيتزا
وأشاهد أفلاماً إباحية، وأصررت على دفع ثمن الفيلم نقداً حتى
لا يُعرف من بطاقة الائتمان التي أحملها أنني شاهدت أفلاماً
إباحية، وقضيت الليلة وأنا آسي على نفسي.
ولم يكن بإمكانني أن أعرف نفسي باسم لندسي في الهاتف لذلك
لم أتمكن من الحديث هاتفياً مع أي أحد، وفكرت في الاتصال
بأمي لأنها ستعرفني من صوتي، لكنني عدلت عن هذه الفكرة
لأن هذا سيربط حجرة أليس ابليجيت برقم هاتف منزل أمي
وسيدل هذا على عدم اتقاني مهارات الجاسوسية، وسيُسبب هذا
الاتصال في العديد من المشاكل لو أنه انكشف، وتحول السفر
باسم مستعار إلي تجربة مملة ومليئة بالوحدة أكثر من كونها
خبرة جديدة ممتعة. واشتريت في اليوم التالي تذكرة للقطار
المتجه إلي فيلي، ولم أقرب من واشنطن العاصمة، وشاهدت
أثناء سير القطار معالم أمريكا الجميلة فأحسست ببعض الفخر
وقلت لنفسي " أنا في طريقي لخدمة بلدي "، وكنت موقنة تماماً
من أن هذه البلد التي أحبها فعلاً من أعماق قلبي هي أفضل بلاد
العالم، ولن يعلم أحد أبداً ما الذي أنا في طريقي للقيام به، لكنني

كشف المستور

سأقوم بلعب أدوار غاية في الأهمية من وراء الكواليس.
وتم إخبارنا أننا سنكون بفيلي مراقبين مثل أي مكان آخر، لكننا
في هذه المرة لن نراقب من قبل متعقبين عاديين كما كان الحال
بوليامسبرج ؛ بل سيقوم بالمراقبة عملاء من مكتب التحقيقات
الفيدرالية أكثر دقة وبراعة في أساليب التعقب.
وبمجرد وصولي للفندق بفيلي تركت حقائبي بمكتب الاستقبال
وانطلقت للمطعم الراقي الذي يفترض أن أقابل فيه السفير
الماليفولنسي بدولة فنجلوريا وتم الترتيب لهذا اللقاء منذ أسابيع
بعد أن أقنعت السفير بلقائي في هذه المدينة البعيدة من أجل “
ترسيخ ووضع أطر لطبيعة علاقتنا “ كما أخبرته، وكان يعلم
أنني أخطط لتجنيده للعمل لصالح وكالة الاستخبارات المركزية.
وقام بدور السفير أحد المدربين العجائز الذي كان يناسبه العمل
المسرحي أكثر من العمل كضابط ميداني، فقد أخذ دوره على
محمل الجد بصورة غريبة. وارتديت بذلة سوداء واقتربت من
مطعم الوجبات البحرية الذي درست موقعه وأعطيت عنوانه
للسفير بالمزرعة من قبل، وعندما أخبرت النادل باسمي “ أليس
ابليجيت “، قال: نعم، أنت من تنتظرين السفير ليروي. وأصببت
بالذهول وتساءلت في نفسي عما إذا كان كل سكان فلادلفيا
مشاركين في هذا السيناريو ؟ أم أنني فقدت الإحساس بالواقع ؟ !

كشف المستور

ولم أدر ما إذا كان يتوجب علي قول الحقيقة أم أن هذا اختبار، وفي النهاية قلت: نعم. فمد النادل يده في جيب سترته وأخرج لي ورقة تركها لي السفير يطلب مني فيها مقابلته بعد عشرين دقيقة بمطعم فرنسي في الجانب الآخر من المدينة على بعد عشرين دقيقة بالسيارة، وكان هذا المطعم من تلك المطاعم التي يمكن للرجل أن يصحب إليها المرأة التي ينوي خطبتها.

وبمجرد وصولي لمحت ليروي يرتشف خمرًا حمراء من كأس على مائدته المنزوية في أحد الأركان.

ولعنت هذا التغيير وخطر على بالي أنني سأوبخ أثناء التقييم لاقترافي خطأ ما ؛ فلابد وأن ليروي اعترض على مطعم الوجبات البحرية — الذي اخترته بعناية وبعد بحث مضني — لأنه اعتبره مكاناً مزدحماً ولا يصلح لطبيعة الاجتماع، واكتشفت بعد ذلك أن كل ما في الأمر أن ليروي أراد أن يستمتع بوجبة أغلى ثمناً بالإضافة إلي الاستمتاع بطلب الطعام بلغة فرنسية راقية. وتقاسمنا كالمعتاد زجاجة خمر قبل أن تقدم لنا المشهيات ووجبة الطعام الرئيسية التي تلاها البراندي والحلوى، ولو أن دافعي الضرائب يعرفون كيف ينفق بسخاء على تسمين ضباط وكالة الاستخبارات المركزية المتقاعدين لاحتجوا بشدة.

وتنقلنا أثناء العشاء بين المواضيع المختلفة المتعلقة بفنجلوريا

ونحن مستمتعين بمناقشة أمور الأدب والحياة وبالطعام التالي الذي سنطلبه. وكان السفير ليروي قد أبدى لي في الأسابيع الماضية أكثر من مرة وبصراحة قلقه من عدم زواجي حتى الآن، وقال: أتساءل بشدة عن كيفية تمكنك من مقابلة شخص في مثل عقليتك؟ وعلى الرغم من أنني لم أكشف غطائي أبدًا أثناء لقاءاتي مع ليروي، إلا أن الفكرة تكمن في أن الهدف ينبغي أن يعرف على وجه الدقة رغبات الضابط الميداني قبل تجنيده الرسمي، وبطبيعة الحال ينبغي أن لا يعرف الهدف المحتمل من اللقاء الأول أنه ذاهب لمقابلة ضابط بالمخابرات، لكن خلال سلسلة اللقاءات يتعين على الضابط الميداني أن يلقي بعض التلميحات من أن لآخر ليسمح للهدف بملاحظة هذا وليتأكد من رغبة الهدف في استمرار لقاءاته به، حتى بعد أن يتضح منه تدريجيًا تقبله الاشتراك مع الضابط في الجريمة المقدم عليها وميله إلى تحمل المخاطرة.

وقلت وأنا أعبت بلكي عقدي وكأنها قطع ثقيلة: أعتقد أن إيجاد زوج ليس هو الأمر الهام في هذه الفترة، وأرجح أنني سأجد الشخص المناسب — أو سيجدني هو — في الوقت المناسب.

فوضع ليروي كأسه وانحنى نحوي وقال: لم تعودني شابه يا أنسة.

كشف المستور

فقلت: نعم، لكني لا أفكر في هذه المرحلة إلا بعلمي بالإضافة إلي أنني مهتمة بمصالح بلدي قدر اهتمامي بمصالح بلدك في هذه الفترة المضطربة يا سيادة السفير.

ورغبت في أن تنتهي هذه الوجبة لأنني بدأت أفتن بسحر ليروي وتودده خصوصًا وأنه يتعامل معنا برقة خلاف كافة المدربين الحمقى وكان يعاملني بود عندما كان يفترض به أن يعلمني كيف أصبح جاسوسة.

وأشرت للنادل ليحضر فاتورة الحساب لأننا تعلمنا ألا ندع مدربًا يدفع الحساب أبدًا ؛ لأن هذه هي أقصر الطرق للرسوب بجدارة في التدريب.

قال ليروي: أنت فتاة ماهرة، لكن أولوياتك في هذه اللحظة مشوشة بلا أدنى شك.

وعندما أتى النادل بفاتورة الحساب ارتاح ليروي في مقعده وطلب كونياك.

وتحملت لنصف ساعة تالية — كما فعلت عدة مرات من قبل — نصيحة ليروي المزعجة بخصوص حياتي العاطفية، وأحسست أنه بالإضافة إلي عدم إحرازي أي تقدم في تجنيد ليروي أثناء هذا اللقاء ؛ فإن ليروي كان يخاطب ليندسي موران وليس أليس أبليجيت.

كشف المستور

وقرب منتصف الليل أحسنا بالتعب وصارت إنجليزية ليروي
المختلطة بالفرنسية أقل تماسكاً، وتركني ليروي أدفع الفاتورة
التي تجاوزت المائتي دولار، فناولت النادل كارت الائتمان
الخاص بشخصيتي المستعارة ونكرت نفسي ألا أوقع لا إرادياً
باسمي الحقيقي كما يفعل أحياناً بعض الضباط غير المتيقظين.
وبعد عدة دقائق عاد النادل يناولني بطاقة الائتمان بإصبعين
ويقول لي بنبرة أقرب إلي السخرية: بطاقتك ملغاة، ويقولون:
إنك لم تدفعي فاتورتك.

واحمر وجهي بشدة فلم يسبق وأن رفضت لي من قبل بطاقة
ائتمان، وكان يفترض بمكتب الميزانية والتمويل بالوكالة أن يهتم
بدفع فواتير شخصيتي المستعارة، ولم أبح بالطبع بهذه الحقيقة
لذلك النادل الغاضب.

وعبثت بأصابعي داخل حقيبتني أتحسس الأوراق القليلة فئة
العشرة وخمسة دولارات وأنا أقول للنادل: لا بد من أن هناك
خطأ ما، أيمن أن تحاول مرة ثانية ؟

فقال النادل بصوت عال: لقد حاولنا عدة مرات.
فدارت عينا السفير ليروي من شدة الحنق وهو يسحب محفظته،
وأحسست بالضيق الشديد لأن هذا سيتسبب في أن أنال درجات
متدنية جداً في أحسن الأحوال.

ووجدت في الصباح التالي ملحوظة متروكة لي عند مكتب الاستقبال مكتوب فيها " سمح السفير لنفسه بتصحيح خطأ أمس غير المقصود "، ولا بد أن ليروي أخبر شخصاً ما بمكتب الميزانية والتمويل بالمازق الذي تعرضت له لأنني عندما حاولت استخدام بطاقة الائتمان مرة أخرى أثناء توقيفي بأحد المتاجر للتأكد من عدم المراقبة بشراء طوق كلب — لم أكن أملكه أصلاً — ؛ أحسست بالراحة عندما قبلت بطاقة الائتمان فوراً.

* * * * *

لم تتحصر مهام عملي هذا الأسبوع في تجنيد ليروي ؛ بل تعين على أيضاً أن أحصل من باري — العميل الذي جندته من قبل — على أسطوانة كمبيوتر، وتوجب علي استخدام أسلوب قديم في عالم الجاسوسية يسمى " الإسقاط " حيث يتعين علي أن أعطي إشارة بريئة — محددة سلفاً — للهدف، وينبغي على باري أن يقوم بعملية التسليم خلال أربعة وعشرين ساعة في مكان آخر سبق الاتفاق عليه بأن يضع أسطوانة الكمبيوتر داخل صخرة مزيفة صنعتها بعناية من بعض المواد الصناعية ثم لطختها بالأوساخ وقطع من أوراق الشجر وأعطيته إياها بالإضافة إلي كافة تفاصيل منطقة الإسقاط أثناء مقابلة قصيرة تمت بمصعد كهربائي بعد وصولي فلادلفيا بيومين.

وبمجرد أن ينتهي باري من عملية الإسقاط ينبغي عليه أن يترك لي علامة بأن يسقط قشر برتقال بمكان آخر متفق عليه إشارة إلي أنني يمكنني التقاط الصخرة المزيفة، ويلى هذا علامة أخرى ؛ وهي أن أترك ستائر حجرتي في الفندق مفتوحة وأضع في الشرفة منشفة حمراء لتجف دلالة على أنني التقطت الصخرة وأن كل شيء على ما يرام. وبالطبع لا يمكن إتمام أي من هذه الخطوات أثناء المراقبة ؛ لذلك أخذت جولات متواصلة لثلاثة أيام بكافة شوارع فلوريدا لأتأكد من عدم تعرضي للمراقبة. ولمحت ذات يوم امرأة رأيتها منذ حوالي ساعة أمام فندقتي، ثم رأيتها بعد ذلك بالجانب الآخر من المدينة والآن تجلس على أحد المقاعد العمومية على الشاطئ تتظاهر بأنها تقرأ جريدة. وتعقبني في الساعة التالية فريق من عشرة متتبعين بعضهم على الأقدام، وبعضهم في سيارة فان بيضاء لمحتها عدة مرات في أماكن مختلفة، وأدركت أنني لن أتمكن اليوم من الوصول لموقع الإشارة فقررت القيام بعملية "الإحراق"، وتعني عملية الإحراق تحديد وجمع أكبر قدر من المعلومات عن كل فرد في فريق التتبع وذلك بسحبهم خلفي حول المدينة. وكنت على وعي تام من أنني يجب ألا أقوم بأي إشارة تدل على معرفتي أنني مراقبة، لكنني لم أتمكن من منع نفسي من محاولة

كشف المستور

استتازاف المراقبين ماليًا، وبينما كنت أقف قرابة الشاطئ حيث المرأة التي تراقبني تجلس على أريكة عامة بالقرب مني ؛
أشرت فجأة لسيارة أجرة اقتربت مني في هذه اللحظة وأقيت
بنفسي على المقعد الجلدي وطلبت من السائق أن يأخذني من
أطول الطرق إلى الجانب الآخر لفيلي، ولمحت في هذه اللحظة
في المرأة الأمامية المرأة التي تتعقبي وهي تقف حائرة تبحث
عن سيارة أجرة ورجل آخر يقف قرب كشك هاتف يتحدث في
ياقة معطفه حيث يوجد بالطبع جهاز اتصال بباقي الفريق.
وابتهجت بشدة على الرغم من معرفتي أنني ينبغي أن لا أهرب
من فريق التتبع.

وتوقفت بعد خمسة عشر دقيقة لشراء القهوة، وصدمت عندما
رأيت فردين من فريق المراقبة يسرون في الطريق وكلًا منهم
يرتدي ملابس مختلفة تمامًا عن تلك التي كان يرتديها منذ
دقائق، ولمحت المرأة التي كانت سوداء الشعر منذ قليل ترتدي
قبعة تنس تتدلى من تحتها خصلات شعر أشقر طويل، واختفت
شوارب الرجال وبدلت ستراتهم العادية بأخرى رياضية،
وتمكنت من التعرف عليهم من خلال أحذيتهم التي علمنا خلال
فترة التدريب أنها نادرًا ما تتغير.

وأدركت أن هؤلاء الشباب محترفون فدفعت ثمن القهوة ثم

كشف المستور

بحثت عن حافلة لتتقلني خارج المدينة، وأثناء انعطافي بأحد طرق فلادلفيا القديمة بعد الظهيرة أحاط بي ثلاث رجال يرتدون سترات ونظارات سوداء وقالوا لي: توقفي، أنت رهن الاعتقال. وقال أحدهم أنهم ضباط من مكتب التحقيقات الفدرالية، بينما قام الآخر بوضع القيود في يدي وأخرج شارته التي لمحت فيها مصادفة أن موران هو اسم عائلته وبدأ يتلو على حقوقي القانونية.

قلت: بأي تهمة ؟

فقال أحدهم: تجارة المخدرات، ولدينا العديد من الشهود الذين رأوك بالأمس تسقطين شيئاً في سلة مهملات اكتشفنا بعد ذلك أنه ثلاثة كيلو جرامات من الكوكايين. ولمحت وفد سائحين يابانيين يلتقط صور هذا المشهد، وأحسست أثناء إحكام القيود على معصمي أنني أسمع صوت آلاف المصاريع تغلق.

وعلى الرغم من يقيني أن كل هذا خدعة إلا أنني ارتجفت من شدة الرعب فلم يسبق لي أن اعتقلت من قبل علاوة على حدوث هذا في مكان عام، وتخيلت بكأبة عشرات الصور التي ستتداولها الأيدي باليابان لتلك المرأة الأمريكية القنرة وهي تغل بالقيود. وسألني موران محاولاً أن يمسك خطأ لي وقال: ما اسمك ؟

كشف المستور

قلت: أليس أبليجيت.

وناولته محفظتي التي تحوي كافة أوراق هويتي المزيفة، وقال لي: ما محل ميلادك يا أليس ؟

واستمر موران لدقائق تالية يسألني العديد من الأسئلة التي تثبت مدى إتقاني معرفة تفاصيل هويتي المزيفة مثل عنواني ورقم هاتفي وأسماء والداي وعناوينهم وتواريخ ميلادهم وأبراجهم. وبدأ الحشد الذي تجمع لمشاهدتي يزيد، وأعتقد أن موران خشي أن ينجذب هذا الحشد لمعرفة تفاصيل القضية بما أنني متعاونة بصورة غير عادية ولم يقدم أي دليل ضدي ؛ فقادني إلي سيارة تقف على الجانب الآخر من الطريق ولا تحمل أي علامة مميزة، وجلست على المقعد الخلفي بين الضابطتين الآخرين وجلس موران أمام عجلة القيادة واستمر في توجيه أسئلته ؛ فسألني عن مكان إقامتي والعمل الذي أقوم به في فلادلفيا. فقلت: أنا مستشارة وأتجول في فلادلفيا لمعرفة مدى إمكانية افتتاح مكتب هنا.

قلت هذا وأنا آمل ألا تُضعف ملابسني الجينز وحذائي الخفيف وحقيبة الظهر التي أحملها من موقفي.

فقال موران ساخرًا: نعم، أهنأك أي أرقام هواتف لأشخاص بفلاذلفيا يمكننا الاتصال بهم.

كشف المستور

ولحسن الحظ أني ذهبت في الأيام الماضية لعدد من المتاجر التي تباع الأدوات المكتبية لأدعم القصة التي رتبها من قبل، بل أني أيضًا أعطيت بعض أصحاب هذه المتاجر عددًا من بطاقتي المزيفة، وأمدت موران بعدد من عناوين وأرقام هواتف الأماكن التي قصدتها فقد كانت كل هذه المعلومات مدونة في مفكرة أحملها في حقيبتني.

وقال موران لأحد الضباط الجالسين بجواري: لماذا لا تبدأ في الاتصال ببعض هذه الأرقام ؟

وبينما بدأ الضابط يجري الاتصال الأول قلقت من احتمالية ألا يتذكرني أحد ممن قابلتهم فهو لاء الشباب يأخذون الأمر برمته على محمل الجد، وسألت نفسي: هل أنا متأكدة أن هذا ليس حقيقي ؟

ولحسن الحظ أن المالك أو المدير أو — على الأقل — أحد العمال بالمتاجر التي اتصل بها الضابط قالوا أنهم يذكرون سيدة أعمال تركت بالفعل إحدى بطاقتها خلال الساعات الثماني والأربعين الماضية، وقال أحد أصحاب تلك المتاجر: لا يمكنني أن أنسى اسمًا غريبًا مثل أليس أبليجيت.

واتصل الضابط بالفندق الذي أقيم فيه وسأل مكتب الاستقبال عني، وتبهرت لكم الهائل من المعلومات التي قدمها الفندق عني

كشف المستور

والتي احتوت على ترتيب المشتريات التي ابتعتها من ثلاجة الفندق، وملاحظة أنني كنت أعود للفندق يوميًا منهكة.

وفي نهاية المطاف أدار موران السيارة وانطلق بها في شوارع وسط المدينة المزدهمة دون أن يتفوه أحد بكلمة. وأحسست بحلقي يجف وأنا أقول لنفسي: " هل سيلقون بي حقًا في السجن ؟ ولو أن هذا حدث، هل سيسمحوا لي بإجراء مكالمة هاتفية ؟ وبمن سأتصل في هذه الحالة ؟

وأخيرًا أوقف موران السيارة قرب ميناء شبه مهجور، وفي هذه اللحظة خطر على بالي إمكانية أن لا يكون هؤلاء عملاء فدراليين على الإطلاق، وأنهم ثلاثة مغتصبين وأنني على وشك التعرض للاغتصاب الجماعي.

وقال موران: رائع يا فتاتي، سأخبر الوكالة أنك نجحت في الاختبار، وليس بقصتك أي ثغرات.

ونزل أحد الرجال الآخرين من السيارة ليسمح لي بالنزول، ثم أغلق موران نوافذ السيارة وانطلق بها مبتعدًا.

وسرت عدة أمتار على محاذاة الشاطئ أنظر إلي المياه الصافية الممتدة إلي الأفق، وأنا أفكر في مدى اقتراب انتهاء التدريب والذهاب خارج البلاد؛ بينما كانت مشاعري تتجدد فيها الحيوية منذ أن بدأت تدريب " الرحلة البعيدة ".

كشف المستور

وفكرت في شبه ترنح وقلت لنفسي: " يمكنني القيام بكل تلك الأمور فهي ليست إلا لعبة كبيرة ويبدو أنني ساكون بارعة في لعبها، وربما هذا هو ما أردت أن أفعله بحياتي، ويمكن أن أتمكن — مع مرور الوقت — من التغلب على مشاعر الوحدة، وربما أكون راضية عن نفسي تمامًا ولا أهتم حتى بما لو كنت أشعر بشخصيتي الحقيقية. "

واشتريت أثناء سيرى قرب الميناء سندويش سجق وكعكة قطعها قطعًا صغيرة وأطعمتها للحمام، ووجدت أريكة خالية جلست عليها لأكثر من ساعة وأنا أحرق في البحر، وقلت لنفسي:

" أصبح ساشو نسيًا منسيا، ولم يعد أمر كريس يعنيني في أي شيء ، وسأنطلق بعيدًا ؛ سأنطلق لأبدأ حياة جديدة واعدة ومليئة بالإثارة. "

* * * * *

تمكن كافة المتدربين من الاتفاق على التجمع في اليوم الأخير من برنامج " الرحلة البعيدة " في أحد البارات في خرق صارخ للقواعد لأننا كنا مغرورين بنجاحنا وقد تشبعنا تمامًا بالعقيدة المحركة لإدارة العمليات:

" اكنب وغش واسرق، لكن لا تسمح بأن يقبض عليك "

وثرثرنا وتبادلنا حكايات إلقاء القبض علينا والتهم التي لفتت لنا من قبل ضباط مكتب التحقيقات الفدرالية، وكان قد قبض علينا جميعًا باستثناء إيثن الذي تمكن من الوصول لنقطة إسقاطه متكررًا دون أن ينتبه إليه أحد الضباط الفدراليين.

وارتفعت ثقتنا في أنفسنا عند عودتنا إلي المزرعة من أجل تدريب " مرحلة الأزمة " حيث كان معديًا في السيناريو أن حربًا أهلية ستتدلع بفنجلوريا، وفي هذا الأسبوع سنتعرض للتبعب المستمر وعوائق الطرق، ومن المفترض أن نبقي واشنطن على إطلاع دائم ومستمر بتطورات الأحداث التي تجري بفنجلوريا، وذلك من خلال تقارير ترسل كل ساعة، وكان الهدف من هذا التدريب زيادة الضغط على المتدربين إلى أقصى درجة وحرمانهم من النوم أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات فقط في الليلة.

وزاد اهتمامي في هذه الفترة بإيثن، وتوقفنا بالطبع عن جولاتنا الليلية بالدراجات، وبدا على إيثن أنه ينهار تحت هذا الضغط وأصبحت عيناه دائمة حمراء ويلعن ويسب المتعاونين الأغبياء والفنجلوريين الحمقى، وبدا لي وكأنه قد انهمك في عالم المزرعة الافتراضي ونسي العالم الحقيقي تمامًا.

وكان إيثن حانقًا بشدة من عدد الإخفاقات التي سجلت له أثناء

كشف المستور

أسابيع التدريب ويسعي جاهداً للحد منها، وسجلت أنا إخفاقين أحدهما عندما تعرضت لمشكلة عدم صلاحية بطاقة الائتمان والتي لا أري أنها ذنبي، والثانية عندما نسيت إعطاء أحد الروس رقم هاتفي ليتصل بي. ولا بد وأن سالي المسكينة أحرزت — على الأقل — دسته من تلك الأخطاء إلا أن الجميع كان يعلم أنه لا توجد بالمؤسسة كلها شابة في مثل وطنية سالي أو إخلاصها، لذلك كنت متأكدة من أن المدربين سيدعونها تتجح مهما بلغ عدد أخطاءها.

ولم يسمح لأفراد الأسرة ولا للأزواج ولا لأي شخص بحضور حفل تخرجنا من المزرعة، ولم يزعجني هذا بعد أن انقطعت كل علاقاتي بالعالم الخارجي.

وقال لنا جورج تينت رئيس وكالة الاستخبارات المركزية — المقبول جماهيرياً في ذلك الوقت مقارنة بسلفه جون دوتش — بعض العبارات التشجيعية التي تحدثنا على بذل أقصى جهدنا في المرحلة المقبلين عليها، وقلل من حدة فرحتنا بهذه اللحظة أن كتيبة الإعدام أقصت واحدة من فصلنا قبل أربعة وعشرين ساعة من حفل التخرج دون تحذير مسبق ودون أي سبب معلن. وبينما كنا نهم بالاحتفال بالتخرج في حانة المزرعة كانت زميلتنا السابقة تحمل حقائبها في طريقها لبوابة الخروج.

كشف المستور

وذهبت لرؤية بل بمكتبه قبل الذهاب للحفلة بناءً على طلبه.
قال بل: تعرفين أنك أبليت بلاءً حسناً، فأنت الثانية على الدفعة
بعد جين سوك.

وأحسست أن هذا أمر جيد فلم أكن أرغب على كل حال في أن
أكون مثل جين سوك، حتى ولو عني هذا شهرة أقل بالوكالة.
وقال بل: هل أنت سعيدة الآن ؟

قلت: نعم، أنا حقاً سعيدة.

قال: إذاً أعتقد أنه يمكنني أن أنظر إليك على أنك آخر مجنديني
الناجين.

قلت: أين ستذهب ؟

وكنيت بدأت أعجب ببل وأنظر إليه على أنه رمز للإنسان
المتقف الحساس داخل هذه المؤسسة التي بدأت أعتبرها مكاناً
يضم حفنة من الأغبياء أو عصابة من المحتالين.

قال: لقد انتهيت ؛ فوظيفة المدرب لا تلائمني وبدأت أفقد
الشوارع.

ولم يكن بل يفكر في الذهاب خارج البلاد بعد أن بدأت زوجته
بعض الأعمال وأراد أن يعطيها فرصة لتختار طبيعة الحياة التي
تناسبها بعد كل تلك السنوات.

وقال: اتصلي بي في أي وقت، وأنت تعرفين بالطبع أنني ربما

كشف المستور

أحتاج لمساعدتك فلم أقم بكتابة طلب التحاق بوظيفة منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا وسأبدأ البحث عن وظيفة للمرة الأولى منذ تخرجي في الكلية، وليست لدي أدنى فكرة عما إذا كان بإمكانني أن أقوم بأي عمل.

وتبسمت، فقد كان بل قادر على فعل أي شيء داخل الوكالة أما بالخارج فليس أمامنا إلا الانتظار لنرى.

وتذكرت حديثه عن المهندسين الكيميائيين بالشرق الأوسط، وعلماء الذرة الهنود، وضباط الجيش الباكستانيين الذين جندهم. وتساءلت عما إذا كان سيحل على وقت أصبح فيه مثل بل، وتساءلت عما إذا كان سيأتي وقت أجلس فيه على مقعد المدرب أواجه وجوه الضباط الشبان أمثالي الذين يملؤهم الشغف والشك في نفس الوقت.

وأملت أن أفعل معهم ما فعله بل معي، وأن أكون أمانة في نصيحتي، وأن أهتم بما يشغل بال الضباط الشبان، وأضع احتياجاتهم داخل إطار اهتمامات المؤسسة، وأملت أن تكون لي حياة — مثل بل — يمكنني أن أتوقف لأهتم بها، وأن تكون حياتي مليئة بالعطاء، وغير ملطخة بالندم.

* * * * *

الفصل السابع

بمجرد انتهاء تدريبي بالمزرعة وعودتي إلي الوكالة وجدت اسمي مقيد بقسم وسط إقليم الأوروآسيوي، ولم يكن هذا غريباً بسبب خلفيتي واهتماماتي، وأخبرني المسؤولون أنني سأذهب في أولي مهامى خارج البلاد مع بداية العام الجديد.

وأصبح أمامى عطلة لثلاثة أسابيع فاتصلت بإيما وإميلي استفسر عن إمكانية قيامنا برحلة إلي نيويورك، ولم يكن لدى أي من الفتاتين انشغالات هامة فقد كانا في عطلات فقررنا السفر وناقشنا عدداً من الخيارات مثل ؛ المكسيك والكاريبي وجنوب شرق آسيا، وفي النهاية قررنا العودة إلي بلغاريا حيث سيمكننا أن نعيش على حريتنا في شقة كانت تستخدم كمرسم وآلت ملكيتها إلي إيما من جدتها التي كانت نحاته بلغارية مشهورة، وكنا على يقين من شدة البرد ببلغاريا لكننا رغبنا أن نكون معاً في المكان الذي أحببناه.

وبينما كانت الفتاتان تستعدان في نيويورك للرحلة وتنفضان الغبار عن معدات الترحلق على الجليد وتخزنانهما في كراتين سجنائر المارلبورو، كنت أكافح في الحصول على موافقة القيادة على سفري خارج البلاد.

كشف المستور

وسألني ضابط الأمن المتشكك بطبيعته: لماذا بلغاريا ؟
قلت: لأن الحياة بها غير مكلفة ويمكنني أن أتزحلق على الجليد،
وسأذهب مع صديقتاي الأمريكيتين.
وكنيت في هذا الوقت على دراية تامة بخوف الوكالة المتأصل
من الأجانب وتعلمت كيف أراوغ عند الحديث عن أي معارف
بلغاريين أو فيما يتعلق بانبهارى بهذا البلد.
فقال ضابط الأمن وهو يتفحص ملفي: أستقابلين صديقك الحميم
الذي يدعي ساشو بودوروف ؟

قلت: تودوروف. لا، فهو يعيش الآن في سان فرانسيسكو.
وأحسست كل مرة أجيب فيها على أحد الأسئلة أن جزءاً من
جسدي ينفصل عني وأحسست طوال الاستجواب أنني أعيش بين
صفحات إحدى روايات جورج أورويل⁽¹⁾.

¹ جورج أورويل (25 يونيو 1903 - 21 يناير 1950) كاتب وروائي
بريطاني اسمه الحقيقي إريك آرثر بلير (George Orwell). وجورج
أورويل هو الاسم المستعار له والذي اشتهر به. ولد في قرية مونتهاري
بولاية البنجاب الهندية لأسرة متوسطة الحال في ديسمبر عام 1929 بدأ إريك
في كتابة أول كتبه، وكان عبارة عن تقرير عن تلك الفترات التي عاشها في
كل من لندن وباريس بين الفقراء، لكن التقرير لم ير النور إلا عام 1933
وجاء بعنوان (And London Down And Out In Paris)، ونشره
باسم مستعار هو جورج أورويل، ونشر كتابه الثاني أيام بورمية
(Burmese Days) الذي تناول فيه خبراته في فترة الخدمة الاستعمارية في

وانهي ضابط الأمن اللقاء بأن ناولني رزمة أوراق وطلب مني ملاءها، وانهمكت في كتابة المذكرة تلو الأخرى واصفة تفاصيل رحلتي إلي بلغاريا وأسماء وعناوين وأرقام تليفونات مضيفيني، ولم تكون إيما تعرف عنوان جدتها المتوفية وقالت لي: " أنت تعرفين أن الشقة عند تقاطع شارع جوركو مع شارع بولفارد لفيسكي "، ولم تفهم تمامًا لماذا أسأل عن العنوان فسألتني: " أنتتظرين استقبال بريد أثناء وجودك هناك ؟ " فقررت ألا أسأل إيما ولا إميلي أية أسئلة أخرى حتى لا يتشككا في، فإن لم يعرفا أنني أصبحت جاسوسة فعلى الأقل سيصفاني بأني تحولت إلي

بورما. في عام 1935 م كتب رواية ابنة قسيس، وفي عام 1936 م كتب روايته دع الزنبقة تطير (Keep The Aspidistra Flying)، في عام 1937 كتب تقريره الطريق إلي ويجان بيير (The Road to Wigan Pier) انتقد فيه كلا من النظام الطبقي الإنجليزي والاشتراكية الإنجليزية، وفي نهاية عام 1936 توجه أورويل إلي إسبانيا ليعمل مراسلا صحفيا وقد دون أورويل خبراته التي عاشها في الحرب الأسبانية في كتاب أصدره عام 1938 بعنوان تقديرا لكاتالونيا (Homage to Catalonia). في عام 1938 أصيب أورويل بالسل وسافر لقضاء بعض الوقت في المغرب، وهناك ألف روايته الثالثة الخروج إلي المتنفس (Coming up for Air) التي نشرت عام 1939 م. في عام 1941 التحق بالقسم الهندي بهيئة الإذاعة البريطانية، ثم ترك عمله عام 1943 بالإذاعة ليعمل محررا أدبيا بصحيفة تريبون، وبدأ في كتابة روايته المشهورة عالميا مزرعة الحيوانات (Animal Farm)، وفي عام 1946 ألف روايته الأخيرة 1984 التي حولت إلي فيلم سينمائي وتنبأت بالمستقبل وعن عام 1984 م.

كشف المستور

خرقاء مملة، وتجاهلت هذا الأمر تمامًا وكتبت في التقرير أنني
أنوي الإقامة بفندق شيراتون، وكان هذا مضحكا جدًا بالنسبة
لمن يعرف صوفيا لأن أرخص غرفة هناك تكلف ما لا يقل عن
ثلاثمائة دولار في الليلة الواحدة.

* * * * *

أحسست بمجرد عودتي إلي بلغاريا أنني استعدت نفسي
والإحساس بالحرية ولو لفترة قصيرة، وقضيت فترات النهار مع
إميلي نتسلق الجبال ونترحلق على الجليد بجبل فيتوشا ونحتسي
بعد الظهيرة الجعة ونأكل البطاطس المقلية في الأكواخ الموجودة
على قمة الجبل، وننزل من الجبل عند حلول الظلام مستخدمين
الجندولا ونحن نستمتع برؤية أضواء صوفيا تحتنا، ونرشف في
الحياة بمجرد حلول الظلام فنذهب إلي إيما بالمرسم ونصحبها
معنا في نزهاتنا الليلية لحفلات الكوكتيل وصالات الديسكو.
ووانتتي الفرصة لإعادة الاتصال بعدد من متسقي الجبال الذين
كنت أعرفهم من قبل، وطلب عدد منهم فورًا المساعدة في
الحصول على تأشيرة للذهاب للولايات المتحدة، بينما استنكر
أغلبهم قولي أنني دبلوماسية. وقرب نهاية رحلتنا ببلغاريا قمت
برحلة لوحدي إلي بلوفديف المدينة الساحرة الموجودة وسط
بلغاريا حيث تعيش أم ساشو، وسبق لي أن زرت بلوفديف عدة

كشف المستور

مرات مع ساشو لذلك كنت أعرف كيف أذهب بالقطار وأنتقل بالحافلة لأصل إلي الشقة الصغيرة التي تقع على حافة المدينة. وكانت أم ساشو تعيش هناك لوحدها بعد أن ذهب ساشو للولايات المتحدة، وذهب ابنها الأصغر كامن إلي إنجلترا ليجمع محصول الفراولة ليوفر قدرًا من المال يمكنه من دخول كلية الطب، بينما لا يزال الأب يمارس مهنة الطب بليبيا. وجلست أمام أم ساشو أشاهدها وهي تقلب ببطء صفحات ألبوم الصور الذي أحضرته لها، وحطم مظهرها فؤادي، وأحسست أن عيناى ستمدع.

وقالت: " لقد فقد الكثير من وزنه "، ثم نظرت لي في قلق وسألتني: " ألا يأكل جيدًا ؟ " قلت: لا أعرف، أنت تعرفين أنى أعيش الآن بواشنطن العاصمة وكالفرنيا بعيدة جدًا.

فأومأت برأسها وقالت: آه، أهى أبعد من أن تصل إليها السيارة ؟وكان أغلب البلغاريين الذين لا تتعدى مساحة بلدتهم حجم مدينة فيرمونت لا يدركون مدى ضخامة مساحة أمريكا، فقلت لها: نعم، هى أبعد من أن تصل إليها السيارة.ثم وضعت ألبوم الصور بجانبها وصبت لي كوب شاي آخر وقدمت لي أحد الأطعمة المحلية.

وكان من الواضح أن ساشو لم ينقل إليها نبأ انتهاء علاقتنا، فقررت أن أترك الأمر يمشي على هذا المنوال فلم تكن لتتفهم أو تتسامح مع موقعي لو أنها علمت أنني فضلت مجال وظيفتي على ابنها، ولم يكن ليسرها أن تعلم أن له الآن صديقة كورية فلم تكن لتتظر إليها إلا على أنها مهاجرة مكافحة ليست أفضل منه في شيء ، وأظن أن أسرة ساشو كلها كانت تتظر لي باعتباري رمزا للمنقذ المعجزة — الفتاة الأمريكية الناجحة — التي تنقذ ابنهم الضال الذي لا يهتم بشيء سوى تسلق الجبال. وكان ساشو مشهور ببلغاريا بأنه الفائز في أي مسابقة قومية. وسمعت هذه الليلة على السرير الذي كان ساشو ينام عليه، وسمعت صوت أم ساشو بغرفة المعيشة وهي تسحب الأريكة التي كانت سريرها هي ووالد ساشو والآن أصبحت سريرها وحدها، وتألمت بشدة من أجلها، وتعجبت من صمودها في هذه الوحدة القائلة ؟وأحسست في اليوم التالي وكان أم ساشو كانت تنتظر زيارتي ؛ فقد أعدت لي إفطاراً مميزاً وتسببت في أن تطول إقامتي وأفقد قطار الصباح، وأظن أنها خمنت — بإحساس الأم — وأنا أنصرف أن ابنها لم يعد معي، فقالت لي وهي تغلق سحاب سترتي وتعطيني كيس طعام: لقد كنت لطيفة مع ساشو، ولن ينساك أبداً.

كشف المستور

وسرت في شوارع أوروبا الشرقية الكئيبة أنظر إلي مداخل
المصانع التي تتأطح السماء الزرقاء، ولم أكن متأكدة من أن
ساشو لم ينسني، فربما نسيني بالفعل، وأمه ستسني مع الوقت،
وكذلك كل الأجانب الذين قابلتهم والذين سأقابلهم والذين
سأخترق حياتهم من الآن فصاعداً تحت مزاعم وادعاءات كاذبة
ودوافع خفية.

* * * * *

ركبت أنا وإيما وإميلي مع تيمير سيارته رباعية الدفع السريعة
التي انطلقت بنا جنوباً نحو جبال ريل ذات القمم المغطاة
بالجليد. وتيمير هذا مغني حفلات بلغاري يلعب بـ "سيناترا
البلقان⁽¹⁾" ويتمتع بثروة معقولة وشهرة نسبية وبعض الروابط
الأسرية ولا ينقصه إلا الزوجة فهو عازب يقترب من منتصف

¹ فرانك ألبرت سيناترا: Francis Albert Sinatra، مطرب أمريكي من
أشهر مطربي القرن العشرين عاش في الفترة 12 ديسمبر 1915 - 14 مايو
1998 م) وهو من جذور إيطالية، بدأت شهرته في أواخر ثلاثينيات القرن
الماضي مع فرقة البيغ باند الشهيرة في ذلك الوقت Dorsey The
Brothers، وفي أوائل الأربعينيات بدأت شهرته تزداد أكثر وأكثر حتي
انفصاله من توم دورسي، وقد حصل علي عدة جوائز اوسكار و غرامي، و
كانت لاس فيغاس هي أشهر مدينة احتضنت مشواره الفني.

العمر ويضع عينه على إيما التي وصفها بلا خجل قائلاً عنها: " فتاة أمريكية دماءها بلغارية، وهي أفضل من يرافقني ".
ووعدنا تيمير أن يأخذنا إلى قلعته بالمرتفعات، وأنا متأكدة تمامًا أنه رتب فعاليات هذا اليوم مسبقاً على أمل أن يؤثر على إيما، وتوقفنا بأحد المطاعم الريفية البسيطة على الطريق فوقف كل العاملين بها بمجرد أن رأونا نزلنا من السيارة وهتفوا بأصوات عالية " تيمير، تيمير " وكأنهم يحيون الملك بعد عودته من المنفى، فصافحهم تيمير كلهم وربت على ظهورهم ثم نظر لثلاثتنا، وقال: اسمحوا لي أن أقدم لكم الفتيات الأمريكيات ! "
فحيانا العاملون بشدة، ثم دخلنا الحانة التي وُضع في مدفاتها خشب بدا من رائحته أنه مقطوع للتو، وفرشت موائد بأقمشة كتانية بيضاء جديدة، وقدم لنا العاملون المقاعد وملئوا لنا الأكواب بالماء والخمر.

وشكلت أنا والفتاتان وتيمير رباعي سخييف بطعامنا المتنوع الذي تكون من شربة الكرشة وسلطة من الجبن والفلفل ولحوم البط والغزلان، وبالطبع الإبريق تلو الآخر من النبيذ البلغاري الأحمر.

وبعد ساعات خرجنا من الحانة للأرض المغطاة بالجليد وتكوننا ثانية بسيارة تيمير الذي لم يعد إلى الطريق العام خلافاً لكل

كشف المستور

توقعاتنا بل اتجه نحو النهر ثم اخترق الغابة عبر طريق ضيق
وحطمت السيارة في طريقها فروع الأشجار وأطارت حولها
الثلوج وأخشاب الصنوبر الصغيرة.

وصعدنا الجبل فلاحظت القوة الغير عادية لسيارة تيمير رباعية
الدفع وفكرت أن أطلب سيارة شبيهة بها عندما أذهب في مهامى
خارج الولايات المتحدة.

وبعد أن وصلنا إلي القمة الجليدية رأينا سور القلعة فنزلنا من
السيارة وأقدامنا تغوص في الجليد حتى الكاحل واقتربنا من
جسر يمر على خندق يصل للقلعة الموجودة على الجانب الآخر
من الخندق فظهر لنا كلب رعي ألماني بشع المنظر نبح علينا
بشدة وكشر عن أنيابه فألقى له تيمير بقطعة لحم هدأت الكلب
فترة كافية لعبورنا الجسر.

وبمجرد أن عبرنا الجسر أخرج تيمير من جيبه مفتاحا حديديا
ضخما لفتح باب القلعة وقال: مرحبًا بكم في قلعتي. وعبرنا
البوابة فوجدنا أنفسنا أمام قلعة حقيقية ذات أبراج مثل القلاع
التي نقرأ عنا في الحكايات، وبعد حوالي ساعة أخذنا تيمير في
جولة داخل القلعة وشرح لنا الأعمال الرائعة بالقلعة والمباني
الماسونية وركز بصورة أساسية على حجرتين إحداها حجرة
نوم رئيسية تليق بملك وملكة، وقال: "أنتظر اللحظة التي تدخل

كشف المستور

فيها امرأة متميزة حياتي "، وسجن سري رطب، فقلت لإميلي في اللحظة التي كان فيها تيمير يساعد إيما على الخروج: " هذا هو المكان الذي سيضع فيه من ينافسه على طلب زوجته. " فهمست لي إميلي: أو الصديقات المزعجات اللاتي يفسدن اللقاء الغرامي الأول.

وانبهرت أنا وإميلي بالقلعة لذلك تظاهرننا بعدم ملاحظة الملامح الغريبة التي كست وجه إيما طوال المساء. وبدأت إميلي تفكر في المقطوعات الموسيقية التي ستجلبها من أمستردام لعزفها في الحفلة التي ستقام بالقلعة وتستمر طوال الليل.

وقالت إميلي: هذا بعد أن تتم خطوبتهما طبعًا. وغمزت إميلي لي فحدجتها إيما بنظرة قاتلة. وفكرت في هذه الأثناء عما يمكن أن أستتبطه من امتلاك سيناترا البلقان لتحفة معمارية كهذه ؟ وفكرت أثناء تجولنا في طرقات القلعة عما ساكتبه للقيادة ؛ أكتب في التقرير عن تيمير أنه مجرد مهني أم أنه أحد الأفراد الذين يمكن الاتصال بهم ؟ وكنت أرى فيه مجندا محتملا ؛ وفكرت في تبرير هذا بإلقاء الضوء على اتصالاته المحتملة بالجريمة المنظمة، وربما يكون وسيطاً في صفقات السلاح التي تتم بالشرق الأوسط، لكن ما هي

نقاط ضعف هذا الرجل ؟ فهذه المعلومة ستحتاجها القيادة.
فخطرت على بالي أنانيته ورغبته في أن ينال إيما كنقاط ضعف
يمكن استخدامها. ثم قلت لنفسى: أيمكن أن أستخدم علاقتي بإيما
كجسر لإنجاح عملية تجنيد ؟ هل وصلت إلي هذه الدرجة من
الانحطاط والانتهازية ؟ !

وقاطع أفكاري صوت تيمير وهو يقول: والآن هيا نأخذ
صورة. فتجمعنا تحت نافذة وأمسكنا بأيدي بعضنا وابتسمنا
والتقط لنا تيمير الصورة، وأخذنا صور أخرى بجوار أشجار
الصنوبر التي غطى الجليد قممها ؛ وسأبقى محتفظة بهذه
الصورة في محفظتي لسنوات وسأظل أتناولها وأتأمل فيها حتى
تتآكل حوافها ويتغير بياض الثلج الذي بها من بصمات أصابعي
وأنا أنظر إلي إيما وأبتسم، وأنظر إلي وجه إميلي المورد وإلي
نفسى وأنا مشغولة البال شبه مسرورة ومحصورة بين الحرية
الرائعة والواقع الذي يقيدني بالمهام السرية.

* * * * *

أقمت أنا وإيما وإميلي حفلة رأس السنة بالشقة التي كانت من
قبل مرسوم جدتها، وحضر الحفل أكثر من ستين ضيف وضمت
الحفلة متسلكي الجبال رثي الهيئة وسيناترا بلغاريا بحاشيته
الأقرب شهبًا برجال العصابات وعدداً من الفنانين المغمورين

كشف المستور

المعجبين بجدة إيما المشهورة، واحتشد بالمطبخ الضيق عدد من نجوم السينما البلغارية الذين تعرفت عليهم إيما وإميلي بالإضافة إلي عدد من سكان الضواحي.

وقبل انتصاف الليل بساعة أسرع الجميع للنزول إلي الشوارع المغطاة بالثلج ليصلوا إلي القصر الوطني للثقافة الذي كان مبني تذكاري ضخمة من مخلفات فترة الشيوعية تم تجهيزه للاحتفال بليالي رأس السنة عن طريق تزويده بأضواء ملونة وساعة رقمية ضخمة تشير للدقائق والثواني المتبقية على بدء الألفية الجديدة.

وكانت ليلة رأس السنة لا تزال في بلغاريا أهم من عيد الكريسماس الذي كان يحظر الاحتفال به في الفترة الشيوعية حيث كانت تحظر كافة الاحتفالات الدينية.

وقضينا الدقائق التي تسبق منتصف الليلة واقفين بين الآلاف في برد شديد ينخر في عظامنا ونحن نرتشف قطرات من زجاجات الشمبانيا التي أخذناها معنا لنشرب نخب العام الجديد. وكما هو معتاد بدول البلقان تعطلت الساعة الرقمية — التي كانت تعد العد التنازلي إيداناً ببدء العام الجديد — قبل منتصف الليل بثواني قليلة، والتفت الجميع إلي بعضهم يتسائلون في حيرة عما إذا كان العام الجديد قد بدأ أم لا، وتركت هذه السخافة خلف ظهري

كشف المستور

وأحسست أن الكآبة التي اكتسبتها أثناء فترة العمل بالوكالة سيطرت على حياتي وشعرت أنني بالديار. وأثناء تحليقي بالطائرة عائدة إلي واشنطن بعد عدة أيام حاولت تهدئ مخاوفي فقد كنت على يقين من أنني لن أسافر مرة أخرى إلي دولة أجنبية دون أن أصحب معي جدول أعمال سري للغاية.

* * * *

بمجرد أن رجعت إلي واشنطن علمت من القيادة أنه تقرر عملي بسكوبجي عاصمة مقدونيا لفترة زمنية غير محددة، وتفرق كافة زملائي على باقي بلدان العالم وسخروا مني لنفسي ببلد بعيدة لا يستطيعون حتى أن ينطقوا اسمها.

وبما أنني أتحدث بعضًا من اللغة البلغارية القريبة من اللغة المقدونية قررت الوكالة أن أدرس اللغة

(الصربية — الكرواتية) التي ستفيدني كثيرًا أثناء عملي بأي من الجمهوريات اليوغسلافية السابقة، وتلقيت دروس اللغة على يد امرأة صربية لاجئة شبه مخبولة تدعى بوجانا.

وتقبت بوجانا لسانها وصبغت شعرها باللون البرتقالي احتجاجًا على قيام حلف الناتو بقصف بلجراد، واعتادت أن تقضي المساء تقلب في مواقع شبكة الإنترنت بحثًا عن رجل يتبنى طفلها، وتقضي النهار تعيد على مسامع الطلاب باللغة الصربية عبارات

كشف المستور

مروعة مثل:

“ اغتصبت كل النساء ”

“ اغتصبت بعض النساء لكن قتل كل الرجال ”

“ قصفت بعض المنازل لكن قتل العديد من الرجال ”

“ لم تحرق أي من مخازن الحبوب لكن اغتصبت كافة النساء ”
“ وكان معي بالفصل ضابطين ميدانيين تم تعيينهم بمناطق أخرى من البلقان، وتتمر كلاهما على بوجانا بتبجح وقطعوا لها لسانها بأن ظل أحدهم يتباهى دائماً بجده الذي كان يعمل بالجستابو في عهد هتلر وقضى نحبه بصورة مأساوية في معسكر التعذيب الروسي، وأحضر هذا الطالب — الذي كان يعلم تمامًا أن أحد والداي يهودي — معه ذات يوم صورة لجده الذي يتحدث عنه وهو يرتدي الزي النازي الرسمي، ورفضت أن أنظر إلي الصورة وكظمت غيظي بينما انطلقت بوجانا في جنون تطلق صيحات الأسى على الشاب الوسيم الموجود في الصورة وحذاءه الأسود الرائع.

* * * * *

حاولت أن أستعيد أثناء قيامي بتلقي دروس اللغة بعضًا من بساطة الحياة العادية في واشنطن بالالتحاق بأحد فرق السباحة الاجتماعية. واعتدت أن أصبح في ممر السباق الضيق لعدة

أسابيع مع عدد من الأشخاص الأصحاء في السبعينات من العمر، ونادتني ذات يوم امرأة من الممر المجاور لي ودعتني للانضمام إلي مجموعة ستجتمع بالنادي العام هذه الليلة. ولأنني كنت دائماً شخصية اجتماعية تطلعت إلي هذه الفرصة لمعرفة أشخاص أصغر سناً بالفريق، لكنني كنت أيضاً عصبية بصورة غير طبيعية لأكثر من عام، وتركزت علاقاتي الاجتماعية في إطار الوكالة فقط، ولم أري إيما ولا إميلي إلا في المناسبات على الرغم من أنهم امتنعوا عن توجيه أية أسئلة لي عن طبيعة عملي. وقررت أن أصحب معي زميلي جارد الذي كان غريب الأطوار بلا جدال فقد كان يرتدي دائماً ملابس غير متناسقة ويحاول أن يندمج مع النادلات في مناقشات فلسفية، ويخرج حفنة من الحلوى التي يحتفظ بها في حقيبة ظهر يحملها معه طوال الوقت، وقررت أنه مهما كان سلوكي غريباً فإنه لن يلفت الانتباه إطلاقاً إذا ما قورن بإسلوب جارد. وصلنا مكان الاجتماع ومد جارد يده في حقيبته ليخرج بعضاً من الحلوى وبدأ يقدمها لمن حوله، ولمحت بين الوجوه التي كان بعضها مألوفاً وبعضها غريباً رجلاً يقف وسط مجموعة من السباحين وظهره لي وهو ينظر لرفقائه ويشرب الجعة، وانجذبت لهذا الرجل الذي علمت بعد ذلك أن اسمه جيمس وأنه

كشف المستور

أسرع سباح بفريقنا، وأنه يعمل مصورًا حرًا، ولم أراه في الأسابيع القليلة الماضية لأنه كان في رحلة صيد في إحدى الغابات الأوغندية. وكان هذا المساء عاديًا باستثناء لقائي بجيمس الذي كان يقف بالقرب مني يستمع لرفقائه، وظللت أشرب الجعة كوبًا بعد آخر حتى تعبت وارتفيت على أريكة جارد، وفكرت كثيرًا في لقائي بجيمس هذا الذي أثارني بشدة. وصل جيمس في اليوم التالي إلي حمام السباحة ونزل إلي ممر سباحة كبار السن ولاحظت ابتسامته الودودة، والبساطة التي حيا بها الآخرين، والثقة الفطرية التي تبني بها في الممر السريع فهيات نفسي لتقبل الهزيمة.

وأنهت لنا بوجانا — ذات يوم — دروس اللغة الصربية مبكرًا فانطلقت للسباحة بعض الوقت قبل وقتنا المحدد. وكان حمام السباحة ليس به أحد باستثناء رجل آسيوي قابع في الجزء الضحل من الحوض يمارس بعض الفنون الرياضية، وبمجرد أن أنزلت قدمي في الماء وبدأت أغطس لمحت جيمس يخرج من غرفة ملابس الرجال فتسارعت دقات قلبي، ولم يسبق أن تحدثت مع جيمس إلا كلمات قليلة، والآن نحن هنا عرايا ووحيدين باستثناء رفقة ذاك الآسيوي. وسار جيمس نحوي وسألني عن حالي، وكنت في هذه اللحظة أرتدي غطاء رأس

كشف المستور

السباحة، وكنت متأكدة من أنني أبدو سخيفة بمظهر شعري المتدلي من الجانبين.

وقلت: " لقد أتيت اليوم مبكرًا ". قلت هذا وكأنه ليس واضح بمنتهى الجلاء.

فابتسم جيمس الذي لمس بالتأكيد لهفتي وقال: نعم، وأنا أيضًا. قلت: أنت مصور، أليس كذلك ؟

فغمغم في صمت، وقلت: هذا رائع.

وأحسست بالسخافة مع مرور كل ثانية إضافية، وأحسست أنه يرغب في بدء السباحة لكنه يود أن يكون مهذبًا فقال لي: وأنت ؟ قلت: أنا أعمل في الحكومة، وسأذهب إلي مهامى خارج البلاد قريبًا. فقال بابتسامة متكلفة: دبلوماسية ؟

قلت: " نعم "، وسررت لأنه لديه فكرة على الأقل عما أعنيه. قال وهو يرفع يده أعلى رأسه: تعرفت من قبل على دبلوماسية، قالت لي: إنها مسؤولية سياسية أو شيء من هذا القبيل عندما قابلتها وأنا أمر بكوستاريكا التي يعمل بها ابن عمي. وأحسست بالغيرة تأكلني من تلك المرأة التي لم أكن حتى أعرفها، وقلت: حقًا ؟

قال: نعم، لكنني أظن أنها كانت تعمل في الواقع لحساب وكالة الاستخبارات المركزية.

كشف المستور

قلت: حقاً ؟ !قال: نعم لأنها كانت حذرة بصفة عامة وسريعة الانفعال، وفي النهاية لم نتفق على الخروج أبداً لأنها رفضت استخدام وسائل النقل العامة.

فقلت من غير تفكير: أنا أحب المواصلات العامة ؛ القطارات، والحافلات، والترولي.. . وكل أنواع المواصلات العامة التي تخطر ببالك.

فنظر لي جيمس وكاني مصابة بمتلازمة توريت⁽¹⁾، ولم يفعل شيئاً أكثر من أن حلق في.

فقلت: ومن الجميل أنني سأبدأ العمل خارج البلاد قريباً. وانتهى الحوار وتمنيت أن أضرب قبضتي بأحد الحوائط،

¹ متلازمة توريت Tourette syndrome هي عبارة عن خلل عصبي وراثي يظهر منذ الطفولة المبكرة تظهر أعراضه علي شكل حركات عصبية لا إرادية يصحبها متلازمات صوتية متكررة. كانت متلازمة توريت تعتبر مرض أو عرض غريب شاذ نادر خاصة أنه يصحبه في العادة الفاظ بذيئة تخرج بشكل لا إرادي، إلا أن ذلك العرض نادر مع مصابي المرض. الأعراض المتلازمة تشمل سعة في منتصف الكلام، تقطع في استرسال الحديث، حركة لا إرادية للعين غمز وإغماض أو تكرار حركة لليدين أو حركات للوجه بشكل عام مع أصوات متكررة وتزداد حدة الأعراض أثناء مرور الأطفال بمرحلة المراهقة. تلعب العوامل الجينية والبيئية تلعب دوراً في هذا المرض إلا أن الأسباب المباشرة غير معروفة. في أغلب الحالات ليس ضرورياً تناول علاج معين لعلاج المتلازمات المختلفة.

وظللت طوال الساعة التالية — أثناء قيامي بالقفزة تلو الأخرى — أفكر في الأمور الصحيحة التي كان ينبغي أن أتحدث فيها. واندذهشت من مقدار العصبية التي سيطرت علي بسبب حوارتي مع جيمس ؛ فلم أكن من قبل فتاة عصبية، وظللت أراقب جيمس طوال الأسابيع التالية من جانب عيني ولاحظت أنه يعامل الجميع بلطف بدءًا من الشباب السريع بمره السباحي إلي العجائز بمرري وانتهاءً بالعمال الذين يهتمون بحوض السباحة، وأثر هذا في كثيرًا وجعلني أفكر في أنه حتمًا شخص دافئ المشاعر، وأردت أن أتعرف عليه، وأعتقد أنني أردت أكثر من ذلك أن يرغب هو في أن يتعرف علي. وكما تسير الحياة، شاعت الأقدار أن أكتشف أن لجيمس صديقة حميمة في غاية الروعة والجمال قابلتها ذات يوم في أحد المناسبات الاجتماعية التي جمعت السباحين، وقررت في هذه اللحظة أن أنسى احتمالية نشوء علاقة بيني وبين جيمس، واستمررت في إعداد نفسي للذهاب إلي مهمتي خارج البلاد. ولا أذكر شيئًا حدث طوال الأشهر التالية باستثناء دروس اللغة الصربية والسباحة وأنا كنت مشغولة جدًا عن ملاحظة نظرات جيمس التي كان يختلسها وابتساماته لي أو حتى له للجلوس بالقرب مني، ورغبته في السباحة بمر السباحة البطيء الذي

كشف المستور

كنت أصبح فيه، ولا رغبته المفاجئة في تصوير حيوان الألباكا عندما ذكرت ذات مرة أن أبي تقاعد واهتم بإحدى حظائر الألباكا بغرب فرجينيا.

وأظن أنني تجاهلت كل هذه التلميحات بمحض إرادتي للحفاظ على قلبي من أن يتلقي صدمة أخرى، ودفعني الكبر إلي الهروب من جيمس في كل مرة يحاول أن يفتح فيها حوارًا معي لأنني أحسست بطريقة ما أن من الخطورة أن تلتقي عيناى بعيناه، وعندما كان يحدث هذا كنت أسرع بإبعاد نظري عنه فوراً.

وكنت سعيدة بأن لدي سبب لمغادرة الولايات المتحدة والذهاب لمقدونيا التي بدا اسمها على الأقل رومانسي، وظننت أن الوقت والمسافة سيحررانى من أحلامي الأنثوية ويجعلاني أسلك في الحياة طرق مختلفة عن جيمس. وهبت عاصفة حارة في اليوم السابق لسفري إلي مقدونيا، وأوشكت إدارة النادي على إغلاق أبواب حمام السباحة بسبب تغير الموسم المناخي، وأقام فريق السباحة الحفلة السنوية بمناسبة انتهاء الموسم وقدمت المأكولات والخمور.

وقرب نهاية الحفلة طلب منى جيمس أن أخذه في سيارتي إلي منزله لأنه أتى بالدراجة التي كان يتمرن عليها، ولا بد أننا جلسنا

هذه الليلة في شاحنتي لثلاث أو أربع ساعات أمام منزله،
وتحدثنا في كل الأشياء التي تمنيت لو أنني تحدثت عنها في وقت
مبكر لو أنني لم أتصرف بحماقة في كل مرة اقترب فيها مني،
وأحسست بقلبي يخفق فهذا شخص أحب أن أرتبط به، ثم غص
حلقي فهذا شخص لن أراه ثانية.

وفي نهاية الليل نزلنا من الشاحنة وسرنا وسط الطريق كالبلهاء
والدراجة بيننا، وقال لي: أتمنى لك حظا موفقا بمقدونيا.
قلت: نعم، وأتمنى لك حظا موفقا هنا.

ثم هز كتفيه وقال: مقدونيا ؟

قلت بفتور: سأرحب بزيارتك لي هناك.
ونظر جيمس لي مرة أخرى وأحسست بالعرق يتصبب من
جبیني فسألني عما إذا كان بإمكانه أن يقبلني قبلة وداع.
قلت: بالطبع. فقبلني قبلة سريعة مليئة بالعواطف وتسارعت دقات
قلبي. نمت وحيدة على فراشي بفندق المطار قبل أن أستقل
الطائرة التي ستطلق في تمام السادسة صباحًا، ولعنت نفسي
لعدم قيامي بتوصيل جيمس لمنزله طوال الشهور الماضية،
واسترجعت في ذاكرتي بعض النظرات التي كان يختلسها لي،
والقبلة الغير متوقعة، وقررت أن أنطلق دون أن أقع مرة أخرى
في قصة غرامية جديدة لها بداية خادعة.

الفصل الثامن

جلست يوم الجمعة في سيارتي بأحد مواقف السيارات بمقدونيا
وبجوارى رجل يكبرني سنًا ونوافذ السيارة مغلقة ومياه الأمطار
تنهال من حولنا كالسيول العارمة بصورة تحجب الرؤية تمامًا،
ولهذا أضأت مصابيح السيارة التي تسبب لي الضيق دائمًا.
وكان الرجل الذي يجلس بجوارى صربي تفوح منه رائحة
السجائر ويبدو على مظهره الإنهاك بسبب المعاناة لسنوات
طويلة من الإحباط والانغماس في شرب الخمر، وجعلته ملامح
وجهه الذي تنثر عليه النمش ومعطف المطر الذي يرتديه أشبه
بنبتة بطاطس وجنتها مهملة في قاع خزانة الأطعمة.
وكنت قد أركبته معي من أمام باب خلفي لأحد المجمعات
التجارية على بعد ميل بعد أن قضيت ساعتين أتجول بالسيارة
كما اعتدت أن أفعل أثناء فترة التدريب للتأكد من عدم تعرضي
للمراقبة، وكانوا يحذرونا أثناء التدريب ويقولون: " يجب أن
تتأكدوا بنسبة مائة في المائة أنكم غير متتبعين، وإلا أجهضوا
المهمة "، وتأكدت الآن بعد أن قضيت شهرًا أمارس أعمال
الجاسوسية أنه لا يمكن التأكد من هذا بنسبة مائة في المائة، ولا
تزال عيناى تتجولان طوال الوقت بحثًا عن المتعقبين المحتملين

؛ حتى إنني اعتدت أن أبقى عيني متيقظة دائماً أثناء قيامي بقضاء مشاويري اليومية أو الخروج لمجرد التنزه، لكن في ليلة كنتك الليلة التي أنا بها صارت حواسي كلها في أعلى درجة من التيقظ والانتباه، وأحسست أنني أقرب لحيوان مفترس مني للضحية، وكنت حقاً في رعب دائم من احتمالية القبض علي. وكان لدينا بالطبع القصة المختلفة التي تغطي لقاءاتنا فأنا وهذا الرجل متحابين، ولو أن أحداً سأل ما الذي نفعله فإن الإجابة الطبيعية هي "أمر خاص"، وسبق أن أعطيت هذه التعليمات لهذا الرجل في المرة الأولى التي قابلته فيها منذ بضعة أيام فهز الرجل رأسه في خجل وكأننا بالفعل نقوم بأمر خاص، وكان من المفترض أنه يعرف القواعد المتبعة وأنه أيضاً — طبقاً لكلامه — ضابط استخبارات بما يعرف في يوغسلافيا بالشرطة السرية ؛ لذا لم يعترض عندما طلبت منه منذ ثلاث ليال سابقة أن يقابلني عند الباب الخلفي لأحد المجمعات التجارية، ولم يتعجب من الطريقة التي رأني أقود بها السيارة وأنعطف بها يساراً المرة تلو الأخرى لاكتشاف أي متعقبين حتى وجدت في النهاية موقف سيارات خالي بجوار أحد المباني السكنية ذات الطراز السوفيتي. ومن المحتمل أن الرجل كان يشك أنني أضع شعراً مستعاراً، وعلى الرغم من أنني رغبت

كشف المستور

بشدة في حك فروة رأسي التي اعروقت بشدة إلا أنني لم أفعل
ذلك خوفاً من أن يتحرك الشعر المستعار ؛ فلو أنه يعرف تماماً
أنني أرتمي شعراً مستعاراً فينبغي على أن أظل مستمرة في تأدية
دوري، ولهذا كان جزء مني دائماً يتساءل عما إذا كانت هذه
الحياة التي أنا بها حقيقة وليست حلمًا.
والتقطت فكرة وقلم وخطر على بالي المفاجأة التي ستعترني
الأشخاص العاديين لو أنهم عرفوا مدى بساطة الأدوات التي
يستخدمها الجاسوس، والتفت إلي الرجل وقلت له باللغة
الصربية: أليك معلومات عن المكان الذي يتواجد به رادوفان
كاراندزك ؟

* * * * *

كان قد تم عزل الديكتاتور الصربي سلوبودان ميلوسوفيتش⁽¹⁾،
لكن وكالة الاستخبارات المركزية كانت تسعى جاهدة للقبض

¹ سلوبودان ميلوسوفيتش (1941-2006) كان رئيس صربيا ويوغوسلافيا
من الفترة بين 1989 و 1997 اتهم بارتكاب جرائم حرب ضد المسلمين في
أقليم كوسوفا والبوسنة وكرواتيا و من أشهر جرائمه مذبحه سربرينيتشا عام
1995 بالبوسنة والتي راح ضحيتها 8000 مسلمومثل منذ عام 2001 أمام
المحكمة الدولية لجرائم الحرب في لاهاي 11 مارس 2006 عشر عليه ميتا
في مركز الاعتقال الذي كان محتجزا به في لاهاي.

على عدد من الأشخاص الآخرين الذين ارتكبوا جرائم حرب مثل رادوفان كاراينك القائد الصربي الذي شارك في المذابح الجماعية أثناء حملة التطهير العرقي لآلاف المسلمين، وخطر على تفكيري المتواضع أنني يمكنني بمساعدة هذا الرجل الزري الهيئة أن أقدم وحش العصر الحديث للعدالة. وكان قد مضى على بقائي خارج الولايات المتحدة ستة أشهر أنتظر اصطيداً مثل تلك السمكة، وأن أفعل شيئاً — أي شيء — يجعلني أشعر أن وظيفتي تستحق هذا العناء. وكنت أندهش بشدة من حث القيادة ورؤسائي لي باستمرار على تحقيق إنجازات في أوقات قصيرة دون إلقاء أي اعتبار للعقوبة الحقيقية للتجسس ونظرتهم للأمور على أنها أشبه بالأعمال الكتابية. واعتاد الرجل الجالس بجواري أن يكتب — بمحض إرادته — معلومات ويرسلها لضابط مخابرات بمكان ما من العالم ووافق أن يقابلني هنا في سكوبيجي ؛ وأحسست أنه يمثل لي فرصة حقيقية لفعل شيء جيد. وقال الرجل الجالس بجواري: نعم، عندي معلومات عن هذا الرجل. وأدخل الرجل يده في جيب معطفة ليخرج ما توقعت أن يكون رسماً للمكان الذي يختبئ فيه كاراينك وربما معه عدد آخر من مجرمي الحرب، إلا أنه أخرج علبة سجائر يوغسلافية شعبية فأخرجت له من جيبي علبة سجائر أمريكية فاخرة أخذها بمنتهى

كشف المستور

الرضا وأشعل منها سيجارة واحتفظ ببقيتها ليدخنها في وقت آخر.

وقلت: أنت تعرف تمامًا مدى اهتمامنا بمعرفة مكان السيد كاراندرك، وسنجازيك بسخاء على أي معلومات تقدمها لنا يمكن أن تقود للقبض عليه.

قلت هذا وأنا أفكر في الأوراق الستة من فئة المائة دولار التي أحملها في جيبتي لتسليمها له في نهاية اللقاء، وكانت الدولارات الستمائة مبلغ زهيد بالنسبة للوكالة لكن الهدف من هذا المبلغ هو أننا مهتمين بالعمل وأن هناك المزيد من حيث أنت هذه الدولارات وإذا كان بإمكان هذا الرجل أن يقودنا فعلاً إلي كاراندرك فسيجني مئات الآلاف من الدولارات، وربما نساعد هو وأسرته على الانتقال للحياة بالولايات المتحدة التي أظن أنها كانت غايته القصوى.

فتتحنح الرجل ثم قال: سأخبرك الآن

وركزت في هذه اللحظة وأنا أجلس على حافة مقعدي فيما سيقوله الرجل ناسية تمامًا أن كلمة " الآن " في الثقافة البلقانية تعني " ما لن يحدث أبدًا ".

واكتشفت أن ما أراد الرجل أن يخبرني به ليس له علاقة بمكان اختفاء أكبر مجرم حرب تبحث عنه وكالة الاستخبارات

المركزية ؛ بل تاريخ يوغسلافيا الحديث من وجهة نظره ابتداءً من الميلاد المجيد وفترة النهضة الصناعية والوفاة المأساوية لتيتو⁽¹⁾ والصعود المأساوي لسلوبودان ميلوسوفيتش إلى السلطة

¹ يوسب بروز تيتو (1892-1980) كان رئيس جمهورية يوغوسلافيا

هو من أبرز قادة الحركة الشيوعية في العالم، و رئيس جمهورية يوغوسلافيا السابق، إبان الحكم الشيوعي، كان من المروجيين و أول مؤسسي حركة دول عدم الإنحياز. ولد في كرواتيا في 1892/5/7 لأب كرواتي و أم سلوفينية، عاش في بداية حياته مع جده والد أمه و ترك المدرسة في عام 1905 لبدأ في العمل، شارك أول مرة في احتفال عيد العمال العالمي عام 1910، جند في الجيش عام 1913، و تم اعتقاله بتهمة الدعاية ضد الحرب، ثم أرسل للحرب ضد روسيا عام 1915 و قد أسر من قبل الروس و هو مصاب أثناء المعركة. أثناء أسره بقي أكثر من سنة في المشفى و بعد خروجه من المشفى أرسل إلى معسكر عمل في جبال الأورال، اختاره السجناء زعيما لهم، و بعد ان تم اقتحام السجن من قبل بعض العمال، فخرج و انضم إلى مجموعة من البلاشفة الروس، اعتقل مرة ثانية لكنه هرب مرة ثانية، و في عام 1917 تزوج من بيلاجيجا بيلاسوف، و في عام 1918 انضم للحرس الأحمر و انتسب للحزب الشيوعي الروسي عام 1934 أنتخب عضو في المكتب السياسي للحزب الشيوعي اليوغسلافي. في عام 1935 كان ممثل الحزب الشيوعي اليوغسلافي في الكومنترن و بقي لمدة عام في الاتحاد السوفيتي عام 1936 كلفه الكومنترن بالعودة لتطهير صفوف الحزب الشيوعي اليوغسلافي بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية أسس تيتو مجلس التحرير الوطني و كان من مهامه التصدي للفاشية، و في يونيو من عام 1943 قام تيتو بتشكيل حكومة مؤقتة، و بدأت أعمال المقاومة ضد دول المحور و كان تيتو زعيم المقاومة الشيوعية حاولت ألمانيا اغتياله ثلاث مرات عبر إنزالات جوية كلها باءت بالفشل، و في عام 1945 وقع اتفاقية مع الاتحاد السوفيتي تسمح لهم بإدخال قواتهم إلى يوغسلافيا في إطار التحالف ضد دول المحور، و في عام 1945 أصبح رئيس للوزراء و أعلن دستور جديد و بدأ ببناء الجيش اليوغسلافي الذي أصبح من أكثر الجيوش الأوروبية قوة.

كشف المستور

والخراب الذي جلبه هو وأعوانه على الأمة التي كانت من قبل عظيمة، وحكى لي كل هذه الأمور بالتفصيل الممل حتى وصل إلي الفترة المعاصرة للحياة الصربية فتحدث عن التضخم النقدي المستمر والفقر المدقع والانحطاط العام وانتشار الأمراض، ونفد صبري وأحسست بالضيق الشديد والاختناق لكن لأنه ربما يكون هناك ضوء في نهاية النفق المظلم لثروة هذا الرجل جلست أستمع لساعات لدرجة أنني اضطررت أن آخذ راحة مرتين بإعادة ركن السيارة بمكان مختلف على أمل أن يحدث تغيير المكان الرجل على الدخول في صلب الموضوع. وطوال هذا الوقت كنت أعيد دفة الحديث إلي كارادزك فأسأله: " كيف تعرفه ؟ " فشرح الرجل شرحًا مطولًا فهمت من خلاله أنه يعرفه عن طريق أسرة هي جارة لأحد أقارب زملائه القدامى، وبعد فترة انتهى المطاف بأن أخبرني أنه لم ير كارادزك شخصيًا على الإطلاق.

فسألته: أيعرفك كارادزك ؟

فhez كتفيه وعبث بسيجارة لم يشعلها بعد وقال: محتمل نعم... .
ومحتمل لا. ووجدت نفسي أقول له فجأة دون تفكير: انظر ياسيدي، أليك أي فكرة عن المكان الذي يتواجد به كارادزك الآن ؟

فابتسم وغطي إحدى يديه بالأخرى وهو يشعل سيجارته التالية وقال: سأخبرك الآن... .

وصارت رأسي تألمني بشدة كالمجنونة بينما انطلق الرجل يبحر في حقبة تاريخية أخرى، ولولا موعد هذا الرجل لكنت الليلة في طريقي إلي بلغاريا للقاء صديقتاي إيما وإميلي اللتان تقيمان لحسن الحظ ببلغاريا في هذه الفترة فإيما تعمل بأحد الأفلام الأمريكية قليلة التكلفة التي تنتج هناك بينما إميلي تدرس الإنجليزية بجامعة صوفيا في برنامج منحة تابع لمؤسسة فولبرايت، وكانت المسافة من سكوبجي لصوفيا تستغرق ثلاث ساعات بالسيارة، واعتدت أن أقابل الفتاتان قدر المستطاع أثناء تجسسي على دول البلقان بسبب احتياجي الشديد للراحة المؤقتة التي أستمدّها منهم. وتعودت في كل مرة أدخل فيها شقة إميلي الصغيرة أن ألقى بحقائبي وأرتمي في حضنها وفي انتظارني على مائدة القهوة زجاجة نبيذ أحمر وطبق جبن بلغاري وزيتون يوناني، وتصب لي إميلي النبيذ بينما أرتمي على الأريكة وأخلع حذائي وأثني قدمي تحتي، واعتادوا أن يسألوني عن ما أنوي فعله وكانت تلك الأسئلة هي التي تعكر صفو ذهني وأحيانا ما كان الهروب من هذه الأسئلة يستغرق مني عدة ساعات، لكن بمجرد أن أستمع لقصص المغامرات الطائشة التي تقومان بها

كشف المستور

أعود لأسمع صوت الضحكات البريئة تخرج من أعماق شخصيتي السابقة، وأحياناً ما كان يتسبب العمل في عدم التمكن من القيام بمثل هذه الزيارات في العطلات الأسبوعية. وأعجبت في البداية بهذا الصربي الذي يجلس إليّ جوارى في السيارة بعد أن أتى بمحض إرادته متطوعاً بالمعلومات، وموافقته على السفر من بلجراد لمقابلتي بسكوبجي، ورفضه أن يأخذ مني أي نقود في المرة الأولى التي تقابلنا فيها، لكنني بدأت أتشكك فيه. وصار من الواضح أن معلومات هذا الرجل عن مكان كارادزك لا تزيد عن معلومات جدتي العجوز ذات الخمس وتسعين عاماً التي تجلس على مقعد متحرك بنيو جيرسي، وأصبح من الواضح تماماً أن الرجل سمع كلاماً انتشر عن رصد وكالة الاستخبارات المركزية مبلغاً كبيراً من المال مقابل الحصول على المعلومات فأتى هذا الرجل ليقبض بعضاً منه، وكرهت أن أدفع له مالاً مقابل تضحيته لوقتي ففكرت أن من الأفضل والأسهل التخلص منه فنظرت لساعة السيارة الرقمية فوجدتها تقترب من منتصف الليل، وقررت أنني لو تمكنت من الذهاب إليّ الفراش بسرعة فربما أستيقظ في اليوم التالي مبكراً وأتمكن من الذهاب إليّ إيما وإميلي وقضاء بقية العطلة الأسبوعية بصوفياً.

كشف المستور

فقلت: أود أن أكون أمينة معك، لقد فحصنا أسماء زملائك التي قدمتها لي في المرة السابقة واكتشفنا أنهم ليس لهم أي وجود، وأنت تعلم أن لدينا سجلات عن كل شخص. قال: سجلاتكم خاطئة. وكنت أشد يقيناً من هذا الشاب فيما يتعلق بعدم دقة ملفات الوكالة لكني لم أبح أبداً له بهذا.

وقلت: الأمر هو أن زملائي في واشنطن غير مقتنعين بحقيقة هويتك. قال فجأة في هياج شديد: زملاؤك في واشنطن حمقى. قلت: ربما، لكن حماقتهم لا تصل لدرجة أن يدفعوا نقوداً للحصول على معلومات غير دقيقة.

قلت هذا وأنا أدرك تماماً أن ما أقوله أبعد ما يكون عن الحقيقة، فقد كنت للأسف على يقين من أن الوكالة دائماً ما تدفع للحصول على معلومات غير دقيقة.

وقلت: " انظر، أنا لا أهتم بمن أنت ولا بما تفعله، وما إذا كنت تعرف مكان كاراندرك أم لا تعرفه، فإن كنت تعرف مكانه فأنا مستعدة لإظهار حسن النوايا"، وأخرجت الستمائة دولار، " أما إذا لم تكن تعرف فسادفع لك مقابل وقتك الذي قضيتَه معي ثم يذهب كل منا في طريقه ".

والغريب في الأمر أن الرجل لم يفكر حتى في أن ينظر إلي المال بل إنه أدار وجهه إلي النافذة وكأنه أهين أو أخرج وقال:

لا أريد مالك، كل ما أريده هو أن أقوم بالصواب.

ورثيت لحال هذا الرجل ونظرت لحذائه البالي ووجهه المجعد وأصابعه الأشبه بالنقانق وهي تمسك السيجارة المشتعلة، وفكرت في أنه ربما كان فعلاً يعمل من قبل في الشرطة السرية لكنه الآن مجرد رجل عجوز يكافح ليصل إلي نهاية الطريق، وقلت: أعندك مانع في أن أعيدك بالسيارة؟ قال: سأخبرك بمكان كاراندزك في المرة القادمة.. وعندما أنزلته عند الباب الخلفي للمجمع التجاري سلمته ثلاثمائة دولار وجعلته يوقع على إيصال استلام باسم مستعار طبقاً للقواعد المتبعة لأن هذه الأموال التي تجري بين أيدي العاملين بالوكالة كالماء هي أموال حكومية في نهاية المطاف ولا بد أن يتم حسابها، وطبق الرجل الورقات الثلاث طبقة واحدة ثم وضعهم في جيب معطفه، وقال لي: " سأتصل بك عندما أكتشف المزيد "، لكن كلانا كان يعلم تماماً أنه لن يتصل أبداً. ولم أنظر للرجل بعد أن أنزلته من السيارة وهو ينصرف تحت جناح الظلام لأنني كنت متأكدة تماماً من أنه أنهى المهمة التي خرج من أجلها فصارت خطواته أوسع ووجهه أكثر إشراقاً وهو راض عن نفسه، وأدركت أنه سينفق هذه الأموال على الكحول وشراء السجائر، وتعلمت أحد الأشياء الجديدة من الجاسوسية وهي ؛ أنني لن أعرف دائماً إلا القليل. ولم

كشف المستور

يبد رئيسي أي اهتمام بالوقت ولا بالمال المهدور وقال لي لاحقاً
كعادته عند كل موقف كهذا: هذه خبرة جيدة لك. ولم يكن هذا
القدر من المال سوى قطرة في بحر مصروفات الوكالة، وبررت
لنفسي هذا التصرف على أنه نوع من الإحسان لهذا الرجل
المسكين بعد أن قصفنا بلدته منذ عام. ****

عندما وصلت سكوبي للمرة الأولى منذ شهور ماضية وجدتُها
مكاناً حاراً مترباً وغير مشجع للبقاء بصورة عامة وكان
المقدونيون دائماً غاضبين على خلاف بلغاريا حيث الناس
ودودين ومرحون. وكان وسط سكوبي مكان مليء بالضوضاء
ومرعب على الرغم من صغر مساحته واعتدت أن أضرم يدي
إلى صدري عندما أسير فيه وسط عيون باعة المحال والباعة
الجائلين التي تلتهمني، ومرتادي المقاهي الذين يصيحون غضباً
في وجه بعض لأتفه الأسباب، وكان السير وسط المدينة
بالسيارة يعني سماع دوي أبواق السيارات باستمرار وتبادل
اللعنات والسباب السلافي. ويكره المقدونيون الألبان الذين تقع
دولتهم غرب مقدونيا أكثر من كراهيتهم للألبان المسلمين
بمقدونيا نفسها، واعتادوا أن يتحدثوا عن ألبانيا على أنها دولة
المجرمين والبرابرة والكلاب المسلمين.

وقالت جارتِي العجوز البغيضة التي اعتادت الشكوى من انهيار

كشف المستور

حياتها بعد انهيار يوغسلافيا: إنهم يتكاثرون كحيوانات المزارع، هؤلاء الألبان يستولون على بلدنا ويحولونها إلي شيء أشبه بمدن العصابات.

ولا يختلف كره المقدونيين للألبان عن مقدار كرههم لليونانيين بسبب أن اليونانيين رفضوا الاعتراف بجمهورية مقدونيا فور انهيار يوغسلافيا لأن جزءًا صغيرًا من شمال اليونان يحمل نفس الاسم واضطرت لذلك مقدونيا أن تسمى نفسها باسم غير رنان هو " جمهورية مقدونيا اليوغسلافية السابقة " ويعارض أغلب المقدونيين هذه التسمية.

وقال لي ذات يوم أحد السائقين: لو أنك من " جمهورية أمريكا المستعمرة بريطانيًا سابقًا " فكيف ستكون مشاعرك ؟ ! ولم يكن ينافس الألبان ولا اليونانيين في هذه الكراهية الشديدة إلا البلغاريين الذين كان المقدونيون ينظرون إليهم بامتهان شديد ووصفتهم جارتي قائلة: " الرجال قطاع طرق، والنساء عاهرات "، ويرجع سبب كره المقدونيين للبلغاريين إلي العداء القديم أثناء الحرب العالمية الثانية، وكما رفض اليونانيون الاعتراف بمقدونيا بسبب اسمها رفض البلغاريون الاعتراف بها بسبب لغتها التي اعتبروها لهجة مشوّهة من اللغة البلقانية الصحيحة. وتعمق هذا الخلاف بين البلدين بسبب هذه النقطة لدرجة أن

الرئيس المقدوني أصر في أحد المؤتمرات التي ضمت رئيس وزراء بلغاريا على وجود مترجم، وكان هذا أشبه بوجود مترجم يترجم الحوار الذي يدور بين جورج بوش وتوني بلير. وتشاءمت من كراهية المقدونيين لكل الدول المحيطة بهم، وزاد من بؤسي أنهم لا ينظرون للأمريكان نظرة أفضل من نظرتهم لجيرانهم وذلك لعدة أسباب منها أن الولايات المتحدة دعمت موقف اليونان فيما يتعلق بمشكلة الاسم، ولأن حلف الناتو كان متفقاً مع بلغاريا فيما يتعلق بمشكلة اللغة مما جرح المقدونيين بشدة، بالإضافة إلي أن الولايات المتحدة أجبرت مقدونيا على استضافة الآلاف من اللاجئين الألبان على أراضيها بعد أزمة كوسوفا ؛ والذين ينظر لهم المقدونيون الآن على أنهم بلاء حل بمجتمعهم. وقذفتي جارتني بتهمة حب الألبان من خلف شجرة المشمش التي تفصل بين فنائي منزلنا وذلك عندما عينت ألبانياً أب لسبعة أطفال للاعتناء بحديقتي، وقالت بسخرية: " الولايات المتحدة الألبانية ". وانحنت تلتقط الفاكهة المتساقطة من شجرتها والتي كان أغلبها إما نيئ أو صلب جداً كأنه كرات جولف خضراء أو فاسد ومسوس. وأقل ما يمكن أن توصف به السياسة الخارجية الأمريكية فيما يتعلق بالبلقان هو أنها مشوهة في أحسن الأحوال، وكانت مهامنا بمقدونيا — إن جاز تسميتها

مهام — تصب في صالح الأقلية الألبانية المسلمة التي تنتظر
لأمريكا على أنها مخلصهم من ميلوسيفيتش، وأعتقد أن
الإستراتيجية الألبانية الماكرة من تمجيد البطولة الحربية
الأمريكية تهدف إلي استدراج تعاطفنا ودعمنا الدائم، ولا يمكنني
أن أحصي عدد المرات التي سمعت فيها صياح أحد سائقي
التاكسي أو الباعة في المتاجر وهم يحيوني فور رؤيتي
ويقولون: " أمريكا وألبانيا أشقاء "، وكنت أحاول أن أتجنب قدر
الإمكان المقدونيين حتى لا يعطوني محاضرة عن كيفية إفساد
أمريكا لبلدهم. واستمررت على كل حال في منح الألبان بقشيشاً
سخياً بالإضافة إلي تكليفهم بما أحتاج من أعمال، وزاد الود
المتبادل بين أمريكا والأقلية المقدونية المسلمة من شكوك
المقدونيين. وذهبت ذات يوم لتسلق الجبال مع شابين مقدونيين
أحدهما طويل ونحيف اسمه فاسيل، والآخر قصير وبدين اسمه
جوشي ذكروني بشخصية لوريل وهاردي لكن بدون الروح
المرحة⁽¹⁾، واستغلا لحظة ضعف كنت أتدلى فيها بالحبل من
على أحد الصخور العالية وأحدهم يمسك بالحبل من أسفل

¹ لوريل وهاردي.. ثنائي فريد في تاريخ السينما العالمية وتعد أفلامهما الأكثر شهرة بين تلك التي تضمنت بطلين، مع ذلك لا يعرف إلا القليل عن حياتهما.

كشف المستور

والآخر يمسك به من أعلى ووبخوني بسخرية بسبب السياسة الأمريكية الخارجية لمقدونيا وصاح فاسيل وهو يمسك الطرف السفلي من الحبل: رغبتكم في احتلال مقدونيا حقيقة معلومة للجميع. ونبح جوشي وهو يمسك الطرف العلوي للحبل الذي أتدلى منه: هذا بالاستعانة بالألبان المهجنين. فصرخت قائلة وأنا أتشبث بأحد النتوءات الصخرية: أيمن من فضلكم أن تتحلوا بالهدوء.

فقال جوشي: بل ستتحدى مقدونيا بالسلاح وسنطلق النيران على المحتالين الاستعماريين وأعوانهم في الشوارع كالكلاب. ولست في حاجة لأن أذكر إن هذه كانت آخر مرة أذهب فيها لتسلق الجبال بمقدونيا.

تمكنت من تكوين بعض الصداقات مع المقدونيين على الرغم من كل ذلك، ومن بين أصدقائي المقدونيين فاسيل وجوشي، وتجنبنا العلاقات الحميمة مع المقدونيين قدر الإمكان، وتشككت في كل المحليين الذين قابلتهم، وأنا متأكدة من أنهم بادلونني بحق هذه الشكوك.

واعتدت أن أقوم بعملتي في النهار تحت غطائي الوظيفي الزائف "دبلوماسية ممثلة لحكومة الولايات المتحدة"، وأجوب في

كشف المستور

المساء المدينة لمقابلة الأشخاص الذين أتصل بهم عند أكشاك
الهواتف ومواقف السيارات والملاعب المظلمة والأكواخ
المهجورة، وكنت أتساءل عما تظنه عني جارتي التي أعتقد أنها
كانت تراني محتالة في أحسن الأحوال، وأحياناً ما كنت أراها
وأنا أنزل من سيارتي في وقت متأخر من الليل وهي تنتظر لي
من خلف شرفة منزلها كالبومة.

* * * * *

تلقيت بعد عدة شهور مديح وتهليل وشكر على مجهوداتي من
قبل الوكالة وحمل أحد هذه المراسلات عنوان "المجد لهايلي"
مشيراً إلي اسمي المستعار، وحملت الرسالة في طياتها ما يلي:
"لجهودها العظيمة مع عدد كبير من الأهداف وتفانيها وعدم
توانيتها في تحمل المخاطر اللازمة لمهامها الاستخباراتية."
واعتقد أن الخطاب كتب من قبل أحد المتدربين الجدد، فكتبت
رسالة أخرى أشكر فيها هذا الإطار وأملت أن يخبر شخص ما
في القيادة المتدرب أنه يبلي بلاءاً حسناً كما حدث معي من قبل،
وأحسست أنني أصبحت أخيراً جاسوسة ناجحة في عيون
المسؤولين بوكالة الاستخبارات المركزية على الأقل.

* * * * *

كشف المستور

قابلت بالإضافة إلي عملائي عملاء الضباط الآخرين الذين تم تحويلهم لي، واكتشفت أن مهمة التحويل صعبة للغاية لأنني توجب على الخروج مع أشخاص مرتبطين بمن سبقتي، واشتكي أحد العملاء قائلاً:

“ اعتادت الأنسة جونزالز أن تدعني أقود السيارة “
“ كانت الأنسة جونزالز تدفع لي مزيداً من النفقات لوقود السيارة بالإضافة إلي بعض النفقات الأخرى “
قلت: اختلف عن الأنسة جونزالز في أسلوبتي.
فقال وهو يتنهد في أسي: ينبغي أن تبغني تحياتي إذا للأنسة جونزالز، لقد كانت سيدة رائعة.

وباستثناء زيارتي المتقطعة لإيما وإميلي ولم يشغل بالي شيء سوى التجسس، ودائماً ما كنت أفكر:

“ هل يتتبعني أحد ؟ ”

“ هل يتتبع شخص ما أحد عملائي ؟ ”
“ ما هذه السيارة السوداء المغطاة المركونة أمام منزلي ؟ ”
“ هل هاتفي مراقب ؟ ”

“ أين وضعوا كاميرات التصنت ؟ ”
“ ما الذي سيحدث لو أنني اعتقلت ؟ ”
“ والأسوأ ؛ ما الذي سيحدث لو اعتقل أحد عملائي ؟ ”

كشف المستور

واعتدت أن أغير الطرق التي أذهب بها إلي العمل كل صباح والأوقات التي أخرج فيها لأتمكن من اكتشاف أي تعقب ؛ فأحياناً ما كنت أخرج قبل طلوع الشمس وأحياناً بعد الظهر وأحياناً أعود فجأة بعد الذهاب للعمل للتأكد من أنه لا أحد عند المنزل أو يستعلم عني من جارتي العجوز التي كنت متأكدة تماماً أنها ستتعاون بكل حرارة مع أي إجراء يمكن الشرطة المقدونية من إلقاء القبض علي.

واعتدت أن أجوب المدينة كلها للتأكد من عدم وجود متبعين، وأحياناً ما كنت أذهب سيراً على الأقدام من منزلي أسفل التل إلي المدينة وأعبر الجسر القديم الذي يربط نهر فاردر بالجانب السلافي والألباني من سكوبجي وأتجول في الشوارع المرصوفة بالحصى والألبان يقفون على أبواب منازلهم يدخلون كالتنانين والنساء تحمل حقائب الخضروات ورعوسهم مغطاة بالحجاب. وأحياناً ما كنت أذهب إلي سوق شاتو الذي ينتشر به الغجر السكوبجيين فكنت أشعر بالراحة أثناء وجودي هناك لسهولة اكتشاف المتعقبين فلم يكن يتبعني بهذا السوق أحد سوى الأطفال المزعجين رثي الهيئة ومتسخي الأقدام العارية الذين يجرون خلفي يتسولون الفكة.

وأحسست مع مرور الوقت أن متعربي الحقيقي هو معرفتي أنني

كشف المستور

جاسوسة، وقلت هذا لنفسي عدة مرات وأنا أشتري الأقمشة التي سأصنع منها الستائر أو وأنا أجلس مع نفسي أحتسي القهوة وأعرض للنظرات الوقحة من الشباب السكوبجيين ؛ لكوني امرأة تجلس وحدها.

وانحصرت علاقاتي الإنسانية مع الآخرين في المعاملات التجارية فقط ؛

“ ما سعر رطل الطماطم ؟ ”

“ هل هذا جلد طبيعي ؟ ”

“ ما رأيك في التجسس لصالح الولايات المتحدة ؟ ”

أما من استولوا على القدر الأكبر من وقتي، وأغويتهم باستمرار فكانوا عملائي.

* * * * *

أدركت مع مرور الوقت أن الوصول إلي الاحترافية ليس أمر سهل فالقليل جدًا من بين عملائي الذكور هم من لم يحاولوا أن يقحموا الجنس بعلاقتنا ولو لمرة واحدة، ولا بد وأن الرجال الذين جندتهم تساءلوا في البداية عن حقيقتي، ومنعهم التعصب الإقليمي من أن يتخيلوا حقيقة دوافعي فقد كانت النساء الأمريكيات في نظرهم أقرب إلي البغايا منهن للجاسوسات ؛ وسهل هذا من الاتصال بهم وأن أبدأ حديثي بالقول: أنا مفتونة

كشف المستور

بمظهرك، أيمن أن أدعوك لفنجان قهوة والحديث معك، وربما على انفراد ؟

ما الذي يمكن لأجنبي أن يقوله لأمركية شابة تدعوه للخروج ؟
أيمن أن يقول " لا " ! وكان من السهل القيام بهذا الدور وعقلي
شارد فيما سيحتويه التقرير الذي سأكتبه بعد انتهاء اللقاء، والذي
لم يكن سهلاً هو الحفاظ على التوازن بين إرضاء الرغبات
الأنانية للرجل والسماع له بانتباه مع التأكيد على أنني لن أفكر
في أن أنام معه.

وكان أصعب هدف قمت بتجنيده هو رجل أعمال ألباني شاب
أنيق بشوش اسمه أحمد صار مهذباً بعد تجنيده ودعوتي الدائمة
له بالتعقل وإدراك " طبيعة العلاقة المهنية التي بيننا ".
واهتمت الوكالة في هذا الوقت بالبلقان وخصوصاً بعد التطورات
التي حدثت بكوسوفا التي تقع شمال مقدونيا، وبينما كانت القيادة
في بلجراد تسعى لإبقاء كوسوفو جزءاً من صربيا، كان سكانها
الألبان يطالبون بالحكم الذاتي، واهتم كل من الصرب والألبان
بقضية كوسوفو باعتبارها حجر الزاوية لتراثهم القومي، ولكن
ليس بمستوى الخلاف القائم فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية.
وزادت في هذه الفترة الهجمات المنظمة من قبل جيش التحرير
القومي الذي تشكل من الثوار الألبانيين بكوسوفا وعدد من

العصابات وبدأ جيش التحرير القومي يخترق الحدود الصربية الجنوبية متسللاً إلى مقدونيا الهادئة، وبحلول ربيع 2001 اعتاد جيش التحرير شن غارات دورية على أقسام الشرطة المقدونية ومعسكرات الجيش مدعيًا إسقاط أعداد أكبر من الضحايا، وبالطبع تضايق المقدونيون من الرفض الأمريكي لاتخاذ أي موقف ضد هذه الغارات علاوة على رفض الحكومة الأمريكية تصنيف جيش التحرير القومي على أنه مجموعة إرهابية. وعانت الشرطة والجيش المقدوني من نقص الأموال والمعدات، وشكى لي ذات يوم أحد ضباط الجيش قائلاً: " عندما سقط تيتو أخذ الصرب كل شيء حتى مفاتيح الأنوار ومقاعد دورات المياه "، واقترن هذا بنقص إمكانياتهم المتأصل، مما ترك مقدونيا غير قادرة على رد العدوان، وأصبحت الدولة الصغيرة التي كانت من قبل رمزاً للسلام تترنح على حافة الحرب الأهلية. والتقيت بأحمد للمرة الأولى في أحد المؤتمرات العرقية التي عقدت بفندق خافت الإضاءة عتيق الطراز بأحد المناطق النائية، وكان على علاقة وطيدة بعدد من الكوسوفيين والألبان المقدونيين، وبدأ لي المجتمعون معه أشبه برجال العصابات، والسياسيين الجدد عاثري الحظ وغير أكفاء ومختالون مثل المقدونيين السلافيين بأمجادهم التي لا مثيل لها.

كشف المستور

بدأت لقاءاتي الأولى لتجديد أحمد بأحد محلات صنع البيتزا المملوكة لألباني، وكان هذا المطعم يصلح كمكان لحشو الأسنان أكثر منه للطعام وبالرغم من أن أحمد كان يدعي كونه مسلمًا ورعًا إلا أنه دائمًا ما كان يطلب الفودكا مع البيتزا ويدخن أثناء تناول الطعام مثل أي شخص آخر بدول البلقان، ويتلقى العشرات من المكالمات على هاتفه الجوال فيخيل إليك وكأن إصبعه موضوع على نبض العالم.

واعتاد أن يقطع لي البيتزا قطعًا صغيرة ويحاول أن يطعمني إياها وكأنني طفلة بالرغم من اعتراضني الشديد، كما اعتاد أن يقدم لي السجائر بإلحاح على الرغم من أنني لم أكن أدخن، وأحسست أنني أشبه بالطفل الخامل بالمدرسة الثانوية الذي يضغط عليه لتناول الماريجوانا، وأحيانًا ما كنت آخذ منه سيجارة أو اثنتين لمجرد أن أجعله مسرورًا وحتى أسمح للحوار أن يتجه في مسار أكثر إفادة لي.

ولم يمنع أحمد زواجه ولا أولاده العديدين من أن يطلب مني الذهاب معه للملاهي الليلية ببلغاريا، ولم أتخيل نفسي في مواجهة إيما وإميلي بصوفيا ومعني ألباني أشبه برجال العصابات.

وعندما كشفت لأحمد غطائي بعد شهور من علاقتنا زاد احترام

كشف المستور

أحمد لي، وقال لي ونحن جالسين في سيارته المرسيديس في مدينة قذرة على بعد أميال من وسط العاصمة: أحب وكالة الاستخبارات المركزية.

وبعد أسابيع حذرت أحمد من خطورة لقاءاتنا العلنية، ولم أندش عندما لم يبد أي اعتراض على اللقاءات السرية وقال: يمكننا أن نستخدم شقة زميلي.

وخاب أمله عندما قلت له: بل ستكفي سيارتك.

وكان قد سبق أن كتبت قبل اجتماعي به رسالة للقيادة أذكر فيها السيناريو المقترح الذي سيسير عليه اللقاء، وجاءني رد الوكالة الذي خاطبني وكأنني شخص ثالث مكتوب فيه " شكوك هادلي حول الهدف ليس لها علاقة بالواقع ومن المستبعد أن يبلغ الشرطة المحلية لأنه يعني تمامًا الخطورة المتضمنة في لقاءاته بك ".

وسألت أحمد عندما قابلته: لماذا ترغب في العمل لصالح وكالة الاستخبارات المركزية ؟

وبعد التفكير لجزء من الثانية في جريمة التجسس ؛ هز أحمد كتفيه وقال: تمام، لا توجد مشكلة.

ولم يكونوا قد قالوا لي بالمزرعة أن تجنيد عميل يمكن أن يتم بهذه البساطة.

كشف المستور

وحذرت أحمد قائلة: لا يمكنك أن تتحدث مع أي أحد بخصوص هذا الشأن، ولا حتى زوجتك.

فغمز لي قائلاً: أنا لا أخبر زوجتي أبداً بأي شيء.
ثم ثبتت نفسي وأنا أقول له: ولو أن أحد اكتشفنا معاً أو سألك عن علاقتك بي فينبغي أنه تخبره أننا على علاقة خاصة.
فقال أحمد وهو متعاطف مع نفسه: لا توجد مشكلة، ولو تحتم علينا الأمر فسنمارس الجنس.

قلت: لا يا أحمد، لن يكون بيننا في الحقيقة شأن خاص، هذه فقط قصة تمويهية سنستخدمها في حالة القبض علينا. فقال على الفور وقد خاب أمله: ألن نمارس الجنس؟

قلت: لن نمارس الجنس، كل ما هنالك أنني سأعطيك النقود وأخذ منك المعلومات، كما اعتدنا من قبل، وكل ما حدث الآن أننا نعيد صياغة إطار علاقتنا ليتم حمايتك والدفع لك أيضاً.

قال: ألن نتشابك الأيدي؟

قلت: لا يا أحمد هذا عمل، عمل جاد، مفهوم؟ لأنك لو قبض عليك ستذهب إلى السجن.

قال أحمد وقد انزعج: لن يقبض علينا وسأخبر كل فرد أننا نمارس الجنس.

وخطر على بالي تباهي أحمد وسط أصدقائه وبمطعم البيتزا بأن

كشف المستور

لديه خلية شابة أمريكية فقلت: لا تفعل، ولا تخبر أي أحد بأي شيء .

فقال: حسناً، لا توجد عندي مشكلة.

وأخرجت في هذه اللحظة لأحمد اتفاق سري ليوقع عليه بالإضافة إلي عشرة أوراق من فئة المائة دولار جرت العادة على دفعها من قبل الوكالة عند توقيع العقود.

* * * * *

تمت عملية تجنيد أحمد بسلاسة وسهولة نسبية وتلقيت على تجنيده كثيراً المديح من القيادة ؛ إلا أن التعامل معه كان في غاية الصعوبة.

وتقابلنا ذات يوم بمطعم اسمه بحيرة أمريد على بعد 160 ميل جنوب العاصمة سكوبجي وأثناء عودتنا قال لي أحمد وهو يقود سيارته بأحد الشوارع المزدحمة: لماذا لا يمكن أن تقوم بيننا علاقة ؟ أنا لا يدفع لي بالقدر الكافي لهذا العمل.

ونظر لي نظرة استجداء فقلت له: أبق عيناك على الطريق، لقد أخبرتك من قبل أن علاقتنا هي علاقة عمل، وعلى كل حال يا أحمد هل أنا مضطرة لأن أنكرك ؟ ! أنت متزوج.

فتأوه وقال: نحن هنا معتادين على الزواج والإبقاء على بعض العلاقات الجنسية خارج نطاق الأسرة.

كشف المستور

فكذبت للتخلص من إلحاحه قائلة: على كل حال أنا لي صديق حميم ولست معتادة على أن يكون لي أكثر من واحد. قال: أي صديق ؟

قلت: في أمريكا، إنه أمريكي.

قال بمنتهى الثقة: الأمريكيان محبين فشلة، ما مهنته ؟

وخطر على بالي جيمس فقلت بسخافة: إنه مصور.

فقهقه أحمد قائلاً: مصور ! ستموتين من الجوع مع هذا

الرجل. ولمحت منطقة رائعة على جانب الطريق حيث أشجار

الصنوبر وأشعة الشمس البرتقالية تتواري خلفها بسرعة فقلت

لأحمد: توقف هناك.

ثم قلت: والآن ماذا عندك ؟

فأخرج من جيب سترته مفكرة صغيرة وجلس يكتب عليها

لقراءة ساعة بخط صغير كل شيء قابله منذ لقاءنا الأخير في

الشهر الماضي.

وفي نهاية اللقاء ناولت أحمد مرتبة الشهري ؛ أربعمائة دولار

ملفوفة بعناية في ورقة جريدة، ثم ناولته إيصال الاستلام ليوقع

عليه باسمه المستعار الذي اختاره بنفسه ؛ فوقه بفخر " شرطي

."

* * * * *

كشف المستور

لم أقلق من مضايقات أحمد الجنسية قدر قلقي من إلقاء القبض عليه ؛ فلم يكن يهتم كثيرًا بالإجراءات الأمنية التي علمته إياها بمنتهى الدقة.

وقلت له أكثر من مرة: لا تتصل بي هاتفياً، وسنتقابل في الوقت والمكان المتفق عليه، وإذا لم يظهر واحد منا ننقل فوراً للخطه ب، مفهوم ؟

فيجيب: " بالطبع "، وعلى ملامحه مظاهر الضيق من اضطراري لإعادة تذكيره.

وأحياناً ما كان يأتيني اتصال على هاتفي الجوال أثناء قيامي بالتأكد من عدم المراقبة قبل الذهاب للقاء أحمد في اجتماعاتنا المتفق عليها فأنظر في الهاتف لأجد أن المتصل أحمد وأنه يستخدم هاتفه الشخصي بدلاً من استخدام هاتف عمومي كما أخبرته أن يفعل في حالة الضرورة القصوى، فأتردد للحظة ما بين التفكير في الرد أو عدم الرد، وغالباً ما كنت أترك الهاتف يرن و لكني في بعض الأحيان كان ينتابني القلق من احتمال حدوث شيء هام فأرد قائلة بصوت أمل أن يستتبط من نبرتي فيه مدى سخطي: نعم ؟

فيقول: ليساااااااااا ! أنا في طريقي للمكان المتفق عليه، هل كل شيء على ما يرام ؟

كشف المستور

فأرد عليه: تمام.

وينتابني الحنق لمنطقه اسمي بعد أن نبهت عليه مراراً وتكراراً
ألا ينطقه في الهاتف — على الرغم من أنه اسم مستعار —
وأفكر بجدية كيف أعاقبه عندما أقابله.

وأحياناً كنت أصل لمكان الاجتماع حيث يفترض به أن ينتظرني
في أحد الجوانب التي لا تلتفت الانتباه فأفاجأ به واقفاً في وسط
الطريق يثرثر في الهاتف الجوال، ويلوح لي بحرارة شديدة
بمجرد أن يلمحني، وذات مرة أخذ معه باقة ورد لوح لي بها
وكانه ملاح جوي يرشد الطائرة إلي مدرج الهبوط.

* * * * *

تعاملت أيضاً مع عملاء خارج البلاد ؛ أي قمت بمقابلتهم بصفة
دورية في أماكن مختلفة من العالم، واعتدت أثناء هذه اللقاءات
على السفر تحت اسم مستعار، وتطلب هذا مني القيام ببعض
الترتيبات المسبقة والمشاورات اللانهائية مع القيادة ومكاتب
الوكالة المختلفة، وتوجب على قبل الذهاب إلي الدولة التي ألتقي
فيها بالعميل أن أذهب أولاً إلي إحدى الدول خارج منطقة البلقان
للحصول على مستندات هويتي المستعارة من ضابط ميداني
آخر.

وأرسلت لي القيادة في المرة الأولى التي قمت فيها بعملية

خارج مقدونيا رسالة تطلب مني فيها السفر إلي فيينا للحصول على أوراق الشخصية المستعارة من ضابط ميداني تدعى سيسليا أبنجتون واحتوى نص الرسالة على ما يلي: " سترسل الضابط أبنجتون للضابط هادلي تعليمات تحتوي على كيفية الاتصال ووصف لملاحها لإتمام اللقاء في 24 ديسمبر ".

ولم أندش للعمل في عيد الكريسماس، لأنني كنت أخطط للاحتفال بالكريسماس في مقدونيا بالمنزل وحدي أمام دجاجة مشوية وبطاطس مفرومة، بينما إيما وإميلي ينطلقان في رحلة دعيت إليها لكني لم أتمكن من قبولها، وذلك لأن رئيسي سكوت قال لي بمجرد أن طرحت عليه الفكرة: " لا يمكنني أن أتخلي عن أي من الضباط في ظل الظروف التي تعاني منها مقدونيا حاليًا إلا إذا كان الأمر يتعلق بإجراء عملية بالخارج. "

ولم أصر على موقعي لأنني كنت أحب سكوت وكنت شغوفة لإسعاده، ولم أشك له أبدًا من المعاناة التي يسببها لي العمل لعلمي أن معاناتي التي سأحدث عنها — مثل الرغبة في قضاء وقت مع أصدقائي وشعوري بالوحدة ورغبتني في مواعدة أحد الأشخاص — ستبدو تافهة في نظر سكوت الذي عمل والداه بالوكالة وكذلك زوجته، وكانت الوكالة بالنسبة إليه هي الشيء الوحيد الذي يعرفه، ومن وجهة نظره فإن فرصة قضاء عطلة

كشف المستور

الكريسماس في العمل شرف عظيم.

ولم أتقابل مع العميلة البوسنية — التي كانت منزعة دائماً — منذ أن تم تحويلها لي، وخشي سكوت من أن تشعر المرأة أنها تركت في العراء، ورأى أن شهر ديسمبر وقت مناسب للقائها فلن يثير سفري أو سفر المرأة أية شكوك لو أنه تم في عيد الكريسماس، بالإضافة إلا أن غيابي سيعطي عملائي الآخرين فترة راحة هم في أشد الحاجة إليها، فعلى سبيل المثال ؛ صار أحمد دائم التذمر وغير جدير بالثقة منذ بداية شهر رمضان فبالإضافة إلي الصيام توقف عن التدخين وتعاطي الخمر وبدأ في المرة الأخيرة التي قابلته فيها منهك ونحيف، ولم يحاول حتى أن يقوم بأي مضايقات لي.

الأعياد هي الوقت الذي يقضى مع الأهل والأصدقاء لكنني لم أفكر فيها بهذه الطريقة فلم تكن أسرتي تكتب لي إلا وكأنها تكتب لإنسانة ميتة، وكانت خطاباتي لهم غامضة وتدعوا للحنن، وباستثناء إيما وإميلي انحصرت صداقاتي في دائرة ضيقة جداً فكنت استقبل من حين لآخر رسائل إلكترونية داخلية من إيثان الذي استقر بالولايات المتحدة لكنه كان من الواضح أنه يتجول في العالم كله، وأليس التي تخدم بأمريكا اللاتينية، وأوفليا التي أرسلت لعاصمة رائعة بأوروبا الغربية، وحتى جين سوك التي

كشف المستور

عينت بالشرق الأوسط، وكانت جين سوك هي الشخص الوحيد مثلي الذي لم تضع خطط للاستمتاع بأعياد شهر ديسمبر، وكتبت لي: " لا يمكنني الانتهاء من كل هذا العمل، ومن الممتع جدًا أن نطبق كل ما تدريبنا عليه، أليك نفس الشعور " فأجبت بإيجاز: " أكيد ". لأنني لم أرغب في أن أعطيها سلاح يمكن أن تستخدمه ضدي، وأحسست أنني بمرور الوقت أتحول إلي إنسانة مرعبة وغير جديرة بالثقة وواقعية بصورة جافة. وفكرت أنني سواء سافرت في الكريسماس للعمل أم لا فإن هذه السفرية ربما تمدني ببعض الهدوء وأن أفكر خلالها في حياتي وأين تذهب.

* * * * *

أرسلت لي الضابط سيسليا أبنجتون رسالة تطلب مني فيها مقابلتها في المقعد الأخير بالكاتدرائية الموجودة على حدود مدينة فيينا، وذكرت في رسالتها: " الضابط أبنجتون رشيقة وشقراء وسترتدي نظارة سوداء مرآوية. " وأرسلت لأبنجتون رسالة أخبرها فيها أنني سأرتدي معطفا صوفيا له ياقة من الفراء الصناعي وقفاز جلد أسود، ولن أرتدي نظارة.

ووصلت للكاتدرائية بعد المعاناة من السير في طرق فيينا التي

كشف المستور

تشبه المتاهات والتي غطاها الصقيع، وبمجرد أن فتحت باب الكاتدرائية اكتشفت أن هذا هو الوقت الذي تؤدي فيه الصلاة المسائية، وكان هذا سوء تخطيط من جانب أبنجتون فمثل هذا التصرف كفيل بأن يجعل المتدرب يخسر العديد من النقاط في المزرعة.

ووجدت المقعد الأخير ممتلئ عن آخره بنمساويين يترنمون ولمحت من بينهم امرأة ترتدي نظارة سوداء مرآوية ولا تترنم مع الباقين.

وقلت لنفسى: " أيمكن أن تكون هذه أبنجتون ؟ "، فلم يكن واضح تمامًا جنسها، لكني قلت لنفسى في النهاية أنها ربما تكون امرأة، وبينما كان يفترض أن تكون رشيقة لاحظت أنها قزمة، وشعرها ليس أشقر بل أبيض ناصع البياض مثل شعر الجدات، وقلت لنفسى أنها ربما كانت شقراء منذ خمسين عامًا.

واقتربت منها بحذر وقلت بالإنجليزية: معذرة يا سيدتي أيمكن أن تخبريني متى ستلى الترانيم الجريجورية ؟ فقالت أبنجتون الرد المتفق عليه بحماسة: لا بد وأنت تقصدين جوقة الخصيان.

والتفتت نحونا إحدى النمساويات اللاتي كن يترنمن في عبوس وأشارت لنا بالصمت، فجلست بجوار الضابط أبنجتون ملتزمة

الصمت فناولتني حقيبة بلاستيكية صغيرة بها أوراق شخصيتي المستعارة، وانتظرت حتى انتهت ترتيلة عيد الميلاد ثم غادرت الكاتدرائية وأنا سعيدة بالتخلص منها.

وبدأت من هذه اللحظة سلسلة سفرياتي تحت اسم إيزابل هارتلت من مدينة لاندر، واخترت لاندر كمحل ميلادي لأنني قضيت بضعة أسابيع أتسلق الجبال بالقرب من تلك المدينة الغربية الصغيرة التي كانت ذكرياتي عنها شديدة الوضوح وكأني قضيت طوال حياتي بها، ولا أزال أذكر مظهر الجبال الصخرية المهيبة التي تعلو قممها الألبية واحات الجليد الكريستالية وآلاف الجداول الصغيرة والأنهار الممتلئة بالأسماك والغابات الكثيفة المتشابكة الأشجار، وعندما كنت أشعر بالضيق أو عدم الاتزان كنت أستعيد هذه المناظر وأستمد منها الإحساس بالنقّة.

جلست الساعة التالية بحجرتي أشرب نبيذا أبيض وأكل سجق مليء بالدهون وجبن صفراء رقيقة، وأعدت لنفسني تكرار اسمي الجديد وتاريخ ميلادي ورقم تأميني الاجتماعي وأسماء والداي (هارولد وأجنس) وتواريخ ميلادهم والتفاصيل المتعلقة ببرجي (برج الميزان) واختلقت لنفسني وظيفة جديدة (كاتبة أدب رحلات)، وأحسست أنني أعيد تشكيل شخصيتي.

ولو أنني سئلت فسأجيب أنني أعمل على تأليف كتاب بعنوان (

كشف المستور

دليل المرأة للسفر وحيدة حول العالم).

وذهبت إلي إحدى الحانات وتجولت بعيني فيها فرأيت ركن
الشراب مزدهم بالشباب الفييني الأنيق المبتهج الذين يضحكون
بانطلاق وحرية ويتشاركون الشراب وأطباق البطاطس المقلية
والرجال قد حلو ربطات العنق وفكوا أزرار ياقة القمصان،
والنساء أطلقن العنان لشعرهن.

وسألت نفسي: " ماذا لو أن أحدهم اقترب مني ؟ " فقررت للتو
أني لا بد وأن أتمسك بقصتي حتى ولو كان الذي سيقرب مني
شاب وسيم أعجبي.

وتذكرت أحد الرسائل الإلكترونية التي أرسلها لي إيثان من قبل
يخبرني فيها أنه تعرف على امرأة أثناء سفره تحت اسم
مستعار، وحاولت المرأة بعد ذلك أن تتعقبه، وبعد أن اكتشفت
صعوبة ذلك وصلت إلي قناعة بأن إيثان أعطاه اسمًا مستعارًا
فملأها الغضب، وبطريقة ما قابلته بالولايات المتحدة فتعقبته
وشنت عليه حملة لتلطيح سمعته، واضطر إيثان في نهاية
المطاف أن يعترف بالقصة المحرجة كاملة لرئيسه بالوكالة،
وكتب إيثان قائلًا: وخلاصة القول أن هذا الأمر انتهى بمأساة
لعينة فقد أصبح الآن بملفي الأمني عشر صفحات جديدة. "
وعلى كل حال لم يقترب مني أي شاب، ولم يبد أي منهم أدنى

اهتمام بي، وفي النهاية خرجت إلي الطريق وحيدة في البرد القارس، ولمحت الميدان الذي توجد به الكاتدرائية مضيء بأضواء بيضاء ومليء بالمبتهجين أكثر من الحانة والموسيقى الكلاسيكية تصدح من مكبرات صوت موضوعه على أعمدة الإضاءة والناس ملتفة حول مظلات يقف تحتها البائعون الذين يبيعون النقانق المتبلّة والنبيذ الساخن.

وبدت لي فيينا مدينة في غاية النضاعة والنقاء على خلاف سكوبجي القذرة ذات أعمدة الإضاءة المحطمة والخربة دائماً، وقررت أن أشتري بعضاً من النبيذ الساخن.

وأمسكت بكوبي الساخن بكلتا يداي وأنا أقف بالقرب من مجموعة من الأشخاص في مثل سني، وفجأة لم أعد أشعر بأي شيء سوى أنني حرة وغريبة وأقرب إلي كوني سكرانة ووحيدة، وكلما مررت بعدد أكبر من المبتهجين أحسست بالوحدة أكثر فأكثر، وفي النهاية ركبت مترو الأنفاق إلي الفندق الكئيب الذي أنزل به وهو فندق ماجستيك الذي نصحت به الضابط أبنجتون واصفة إياه بأنه مناسب وبعيد عن الطريق وآمن.

وقالت في رسالتها: "ولا يميل العاملون في الفندق إلي توجيه الأسئلة الكثيرة"، واكتشفت مدى خطأ هذه المعلومات عندما أراد موظف الاستقبال الهندي المرح الذي أخبرني أن اسمه

رابيش — ويعني بالهندية سيد الجمال — أن يعرف كل شيء عني وعن سفرياتي، وسألني عما إذا كانت لاندرك قريبة من تشيري هل بنيو جرسى حيث يسكن الكثير من أقاربه ؟ ولماذا تسافر امرأة شابة حول العالم وحيدة ؟ وما الذي دعاني للمجيء إلي فيينا حيث الناس مملين وأشحاء ؟ وبما أني هنا فلا بد وأن أبقى لبضعة أيام إضافية حتى يتسنى لرابيش أن يريني أجمل أماكن فيينا على الإطلاق. وعلى الرغم من كثرة محاولاتي للتملص من رابيش إلا أنه كان دائماً حولي في كل مكان. واستيقظت في الخامسة صباحاً لأستقل حافلة متجهة إلي بودابست فوجدته يرتب مكتب الاستقبال ويدقق في جوازات السفر ويدبس الإيصالات، ويرتب مفاتيح الغرف على مشاجبها تماماً كما كان يفعل الليلة الماضية، ولأنني تدربت على التشكك الدائم تساءلت عن سبب اهتمام رابيش الزائد بي، وبينما أنا أبحث بحقيبتني عن محفظتي سألت رابيش — من أجل إشعاره بالسرور — عما إذا كان يمكنني معرفة اسمه الأخير. وقلت وأنا أمد يدي لألتقط بطاقته: " لأتصل بك في حالة عودتي مرة أخرى "، فقال: " مرحباً بك في أي وقت تعودين فيه "، ولوح لي بابتهاج وأنا أخرج من الباب الزجاجي المتسخ. وفعلت هذا من أجل تفحص بياناته في قواعد بيانات الوكالة التي

كشف المستور

بالرغم من أنها قديمة وملينة بالأخطاء إلا أنها أحياناً ما تحتوي على معلومات مفيدة، وقلت لنفسي وأنا أضع البطاقة بجيبِي: “ لا يمكنك أن تكوني حريصة تماماً طوال الوقت. ”

* * * * *

ركبت في طريقي من بودابست إلي براج إلي عيون المياه المعدنية ببفاريا العديد من الطائرات والقطارات والحافلات والسيارات جيئة وذهاباً وأحياناً كنت أعيد الطريق نفسه أكثر من مرة حتى صار من شبه المستحيل تعقب طريق إيزابيل هارتلت، وقد صممت نصف رحلتي تقريباً من أجل إخفاء الغرض الحقيقي من الرحلة، وعنئذ ذلك العديد من مرات التوقف للتسوق ومشاهدة المناظر الخلابة وتناول الوجبات، وأحياناً ما كان يحاول شخص أن يفتح معي حواراً لكنني كنت أتخطاه بسرعة. وعندما وصلت أخيراً للمنتجع البافاري الرائع لم أستمع فعلاً بمظاهر الرفاهية المحيطة بي لانعزالي أغلب الوقت بحجرة الفندق مع عميلتي جاسنا التي قضت أغلب الوقت تشكو من استبداد أم زوجها لها، وزوجها الذي لا يصلح لشيء ووقاحة ابنتها بالتبني وحياتها البائسة بصفة عامة، واندثشت من آلاف الدولارات التي استقطعت من أموال دافعي الضرائب من أجل أن أسافر سفريتي تلك التي جبت فيها كل أرض الله الخضراء

لمقابلة هذه المرأة، ولست في حاجة لذكر الرقم الفلكي الذي تتقاضاه هذه المرأة من الوكالة والذي اغتظت تمامًا عندما اكتشفت أنه يفوق راتبي بمراحل كثيرة.

ولفتت جاسنا انتباه الوكالة إليها منذ عدة سنوات عندما ادعت للضابط الميداني الذي جندها — ادعاء كاذبا على حسب تخميني — أنها كانت زميلة دراسة وصديقة مقربة من الرئيسة البوسنية الصربية ومجرمة الحرب سيئة السمعة بلجانا بلافسك. وكانت بلجانا تختلف عن باقي الديكتاتوريين الصرب والقادة العسكريين بوصف التطهير العرقي علانية على أنه “ظاهرة طبيعية” بالإضافة إلى أنها صورت نفسها وهي تدوس بقدمها على جثة مدني مسلم قتيل لتضع قبلة على وجنة لواء صربي قاتل اسمه أركان.

ولم أصدق أن جاسنا كانت في يوم من الأيام صديقة لبلافسيك، وبدأت أتشكك في مزاعم جاسنا عن اتصالها الدائم بتلك المرأة لأنها لم يكن لديها أي معلومات تقدمها لنا.

وعندما سألتها عن بلافسيك قالت: “أصبحت صديقتي مشغولة جدًا، ولم يعد عندها أي وقت للكلام”.

وبعد حديث جاسنا عن بعض النظريات الغامضة عن مستقبل جمهورية الصرب عادت لترثي عائلتها.

وكان الهدف من هذه اللقاءات التي تتم وجهًا لوجه هو " بناء علاقة " حتى لا تشعر جاسنا أنها تم تجاهلها أثناء الشهور التي لم نرى فيها بعضنا البعض، وعلى الرغم من ذلك كرهت كل دقيقة أقضيها معها، وأظن أن هذا لم يكن يختلف تمامًا عن مشاعرها لرغبتها في أن تجمع مالها وتستمر في طريقها. واعتدت أن أصرفها كل ليلة في تمام الساعة السابعة، وكانت مسرورة لتمكنها من أن تأكل سندويشات الطماطم على العشاء وتحفظ ببقية ثمن الطعام، وخلافًا لأحمد وأغلب العملاء الآخرين لم تحتاج جاسنا للتحذير المستمر من استخدام مرتب الوكالة في القيام بتسوق الكثير من المشتريات التي ستلتفت بالتأكيد انتباه زملائها وجيرانها، واتضح أنها بخيلة بصورة غير عادية، ورفضت بشدة أن أفتح لها حساب بنكي، وشرحت لها أن المال لن يكون فقط أكثر أمانًا خارج البلاد فحسب بل إنها أيضًا ستجني من ورائه فوائد بنكية، لكنها فضلت بدلًا من ذلك أن تلف الرزم النقدية جيدًا في ورق معدني وتخزنه في مجمد الثلجة، وأعتقد أن جزءًا من جاسنا كان لا يصدق جنيها كل هذه الأموال وأنها تخشى أن يأتي يوم تكتشف فيه الوكالة حيلتها.

وبمجرد أن أدع جاسنا تذهب في المساء حتى أجلس محاولة أن

كشف المستور

أستنبط أي معلومات قد تكون مفيدة للقيادة من وسط كل
الميلودراما التي تملأ حياة جاسنا.

وبعد يومين من هذا الروتين الممل وضعت أمام جاسنا كومة
نقود هي راتبها الذي لم تتقاضاه في الشهور التي لم نتقابل فيها.
وبعد أن عدت جاسنا النقود مرتين قالت: ماذا عن أجرة السيارة
إلي المطار ؟

فأعطيتها المزيد من الأوراق النقدية، ولم يكن هناك أي داعي
لحثها على أي شيء. وعلى كل حال ذكرت نفسي بأنها تخاطر
بحياتها.

* * * * *

عدت إلي فيينا لاستعادة وثائق اسمي الحقيقي من الضابط
أبنجتون وأنا مستمتعة بالراحة التي سأستمدّها من عودتي مرة
أخرى لأصبح ليندسي موران بعد العذاب والإرهاك الذي عانيته
من العمل تحت اسم مستعار، ولم أكرث كثيرًا بالرجوع إلي
أوروبا الشرقية. وأثناء عودتي من مطار سكوبجي إلي منزلي
مررت بالشوارع البلقانية الكثيبة والمباني البشعة وأنهار الجليد
المسود على جانبي الطريق والأطفال العجريين ملتفين ببطاطين
مسروقة ويشعلون أعواد الثقاب في أكوام القمامة، وعلى الرغم
من أن أهل سكوبجي غير مضيافين وغير مبتهجين كأهل فيينا

فإنه يمكنك هنا على الأقل أن تشعر بالوحدة والكآبة مثل غيرك. وكتبت تقارير ذكرت فيها المعلومات القليلة جدًا التي استطعت استنباطها من أحاديث جاسنا المطولة، بالإضافة إلى عدد وافر من المراسلات لوصف كافة تفاصيل رحلتي، ثم قررت الذهاب إلى صوفيا فالفنتاتان — إيما وإميلي — ستعودان غدًا من رحلتهما، وقد تركت لي إميلي مفتاح شقتها لأستخدمه إذا ما رغبت في مفاجأتهم في حفلة رأس السنة.

وانطلقت بالسيارة أقطع الأميال الطويلة من الطرق غير المضاءة وذهب عقلي عبر المحيط إلى جيمس حب حياتي الذي لم أراه منذ قبلة الوداع، وأحيانًا ما كنت أرسل له بعض الرسائل الإلكترونية المسلية متخفية بين رسائل مجموعات بريدية أُلما في التأثير عليه. وكتبت له مشاعر الوحدة التي ابتليت بها، ولأنني لم يكن مسموح لي أن أكتب أي شيء يتعلق بعملتي لم أشك له أبدًا من إحساس فقدان الهدف الذي أعاني منه أو أي من الضغوط التي أعيش فيها واعتدت أن أقرأ كل رسالة أكتبها له عدة مرات قبل إرسالها حتى أشعر بالرضا وأنها لن تكون مفهومة لأي أحد باستثناء جيمس ولهذا كنت مرتاحة للبال وأشعر بالرضا وأنا أعيش في بيتي الجديد الغريب.

وبعد أن عدت من سفريتي المهنية وجدت رسالة من جيمس

كشف المستور

كتب فيها: أنا أحذف رسائل المجموعات بصفة عامة باستثناء رسائلك لأقرأها عندما أكون وحدي فأنا أحب كتابتك. لماذا لا تتوقفين عن فعل ما تقومين به أيًا كان وتدخلين مجال الكتابة. وأثارني هذا الخطاب بشدة فقرأته المرة تلو الأخرى متفحصة الكلمات للغوص في أعماق معانيها، وخمنت شيئًا واحدًا فقط ؛ وهو أن جيمس قرأ ما بين سطور رسائلي وخمن عدم رضائي الكامل عن وظيفتي، وضحكت وأنا أتخيل نفسي أخبر سكوت وباقي المسؤولين بوكالة الاستخبارات المركزية أنني أنوي الدخول في مجال الكتابة.

وغبطت جيمس على استمتاعه بحياته على النحو الذي يريده، وكان قد أخبرني قبل ذهابي إلي مقدونيا أنه عمل لسنوات موزع أدوية ولأنه كره هذه المهنة قرر عندما بلغ الواحدة والثلاثين من عمره — نفس عمري في هذا الوقت — أن يتوقف فجأة ويسافر في رحلة حول العالم، ودعم نفسه ماليًا بكسب سباق سباحة دولي ثم بدأ يلتقط الصور. وأخبرني في المرة التي جلسنا فيها بشاحنتي قبل السفر: لم تكن عندي أي خبرة في مجال التصوير، لكنني اكتشفت أنني أحب التصوير، ومن هنا بدأ الأمر.

والهمني اعتراف جيمس — وإن كان متأخرًا — بأنني يمكنني أن أفعل شيئًا، وبعد قراءة رسالة جيمس للمرة الألف قررت أنني

كشف المستور

يجب أن أكتب أكثر، أما عن ماذا بالضبط ؟ فلم أكن أعرف،
وكذلك أنني لا بد وأن أبدأ السباحة مرة أخرى لأنها ستقربني من
جيمس.

وسألت جارتِي المقدونية عن حمام سباحة عام، فقالت: تقصدين
ذاك المكان المليء بالحشرات الطفيلية والأمراض، والذي
يستخدمه الغجر كدورة مياه عمومية ؟

وعلى الرغم من كراهيتي الشديدة للخضوع لتحذير جارتِي إلا
أنني أجبرت نفسي على الانتظار حتى أصل صوفيا لأبدأ مجالي
في السباحة فإن لم تكن حمامات السباحة العامة هناك مترفة
فعلى الأقل لها كينونة معروفة. وكنت أفكر في السباحة والكتابة
وجيمس عندما ظهرت فجأة أضواء صوفيا أمامي بعد أن التفتت
حول الهضبة الأخيرة، وبدأت لي هذه المدينة مثل باريس وكلما
اقتربت من منزل إميلي أحسست باقترابي من الوطن.

* * * * *

الفصل التاسع

قابلت فنسى للمرة الأولى ذات صباح أحد الأيام التى عادت فيها
 ايماء واميلى من حمام السباحة مبكرًا لتتالا قسطًا من الراحة ،
 ولابد وأن فنسى الذى درست له ببلغاريا منذ سنوات كان يعلم
 أنى موجودة هنا لأنه كان ينتظر خروجى من حمام سباحة
 فاسيل لفسكى بولفارد ، ولمحته — وأنا أهز شعرى المبتل
 وعيناي تتأذى من الشمس — منحنى يدخن سيجارة بجوار
 عامود أسمنتى شبه مهدم ويبدو أشبه بنجم سينمائى منه لحارس
 أمن بصالة قمار بلغارية .

ولم يكن فنسى من ذاك النوع الذى يتوقع أى أحد أن أنجذب إليه
 ؛ فلم يكن يفعل شيئًا فى أوقات فراغه إلا أن يدخن السجائر
 ويصنع أكوامًا من الرماد على أى شئ يتواجد بجواره سواء كان
 كوب أو قطعة زجاج أو أى شئ آخر ، وانزعجت أمدى من
 صداقتى لمثل هذا البلغارى الكسول ، وسألتنى فى أحد خطاباتها
 " ماذا يفعل والداه؟" ولم تواتنى الجراءة لأخبرها أن أبو فنسى هو
 نسخة مطابقة له ، ولم أقابل أم فنسى إلا مرة واحدة هى المرة
 الأولى والأخيرة التى قضيت فيها ليلة بالشقة التى يعيش بها
 فنسى مع أمه بليلىن أحد أقدر أحياء صوفيا على الإطلاق ،

وعندما دخلت من باب المنزل الذى يسكن فيه فنسى اندهشت
من شدة كآبة المكان الذى كانت رائحته مثل رائحة القبر وعندما
غضبت بشدة منه تخيلته وهو يجلس فى هذا البيت وحيداً فى
يوم أحد ممطر فتحول غضبى فوراً إلى شفقة .

وكانت الحجرة الخلفية هى المخصصة لفنسى ، وليس بها مكان
لسرير وإنما بها شئ غريب معد للنوم ، وأضاء القمر الذى
تسلل ضوءه من النافذة الحجرة فلمحت فيها كتب الجبر التى
أغرقتها المياه وبعض زينات شجرة كريسماس محطمة وربطة
من مجلات التايم يعود تاريخ إصدارها لأكثر من خمس عشرة
سنة بليت أوراقها من كثرة تصفحها الذى أعتقد أنه تم لآلاف
المرات. وعندما حل الصباح صرت شبه خائفة من الأضواء
والضوضاء وضجيج أمه وهى تصنع القهوة وتخبط الآنية
ببعضها ، وأحسست كأن كل ضوضاء الشقة على سريرى —
إن جاز تسميته سرير — ، واقترب منى فنسى وقربنى منه فى
تطفل غريب وقال: نامى فترة أطول .

وبدأت الطيور تقترب من زجاج النافذة وكأنها تسعى للقتال ،
وأحسست بنوع من العزلة فى هذا المكان المثير للشفقة ،
ولمحت على الأرض رواية توم روبنس التى أعطيتها لفنسى
منذ أعوام عندما كنت مدرسة لغة إنجليزية ببلغاريا وكان فنسى

شاب جامعى وسيم قبل أن أصبح جاسوسة ويسوء به الحال
فيعمل فرد أمن بصالة قمار ، وكانت قصة الكتاب — حسب ما
أذكر — تدور حول قصة حب تحدث داخل علبة سجائر ، وبدأت
هذه القصة فى هذه اللحظة إلى حد ما مناسبة.

وبعد أن خرج فنسى من الحجرة سحبت أحد قمصانه وارتديتها
ووقفت أمام النافذة ، وكان المشهد فى الخارج فى أقصى
درجات البؤس التى يمكن تخيلها وكان الشمس المشرقة تسخر
من القبح الذى تحتها حيث لا شئ سوى الأراضى القاحلة
والكلاب التى تتجول بحثاً عن طعام والنساء وهن يضربن
السجادات ليزلن عنها التراب وكأنهن ينتقمن من معاناتهن بينما
كان بعضهن يقفن فى الشرفات ينظرن للطريق كجنود الحراسة
بأبراج السجون وهم ينظرون أسفل منهم إلى أفنية السجن
المتربة ، ورجل ينظر لى وهو يلقي بعض القمامة على الأرض
، وتخيّلته يتساءل قائلاً : أليس لديها بعض السجادات لتفضيها ؟
أو أرز ولحم لتصنع بعض أصابع الملفوف (المحشى) ؟
وعندما عاد فنسى ضحك قائلاً : أنتجسسين ؟
ولم أكن أخبرت فنسى شيئاً عن طبيعة عملى ، لكنه كان
يفترض أن كل الأجانب جواسيس ولم يرانى أنا وايمى واميلى إلا
جزء من شبكة تجسس نسائية كبيرة .

كشف المستور

وتمكن من قراءة شعور الخزي الواضح فى عينى لمراقبتى جيرانه ، فقلت : سأنصرف .

فقال : أعرف . ثم ناولنى منشفة قبل دخولى دورة المياه التى حذرنى من أنها ليست لطيفة .

وبينما نحن بالقرب من الباب صاحت أمه بصوت عالى حاد وهى تخرج من المطبخ ملوحة بورقة نقدية وتأمر فنسى أن يشتري قهوة عندما يخرج ، ولم أشعر أننا شعر بالخزي أكثر ، لكنها عندما علمت أنى دبلوماسية أمريكية رحبت بى بشدة ، وربتت على شعري واستحسننت جمالى ، وأنبت فنسى على عدم دعوته لى لتناول القهوة ، وحمدت الله أنى لم ألقى بنفسى من الطابق العاشر . وبينما نحن فى طريقنا للخارج أشار فنسى بلا مبالاة لباب جارته وقال : " تعيش هنا عاهرة أحياناً ما تأتى لتناول القهوة عندنا . " وكانت هذه هى طريقته فى إثارة

غيرتى . وسرنا فى طرقات لينين التى تشبه حى اليهود بألمانيا فى عهد هتلر ، وأمسكنى فنسى من زراعى وقادنى تجاه كومة من الحصى لم أكن أتخيل أبداً لو أنى وحدى أنها محطة الحافلات ، وأسرع كلب أجرب للحاق بنا ، وعندما جلس الكلب المغطى بالدمامل والبثور بجوارنا قال فنسى مازحاً : يبدو أنه مضطر للإسراع إلى المدينة للحاق بموعد هام .

كشف المستور

وقبل أن نصل إلى المسرح القومى قبلنى فنسى ، وأعتقد أنه بدا علينا وقتها أننا متحابين ، ووقفنا أمام المسرح ننظر إلى تمثال راقصة باليه قدمها كبيرة بصورة غير عادية .

ولم أتمكن من ابعاد عيني عن هذا التمثال الذى يرمز لامرأة رشيقة تحاول أن تنطلق نحو الحرية بينما قدمها الكبيرة تثبت جسدها الرقيق فى الأرض .

وأعتقد أنى لو لم أكن مضطرة للعودة إلى شقة اميلى لاصطحابها إلى الشيراتون لحضور حفلة هناك لوقفت أحق فى هذا التمثال لساعات .

وعندما وقفت مع فنسى أمام المبنى الذى توجد به شقة اميلى انحنى نحوى ليقبل جبهتى وقال : أبلغى تحياتى للفريق . وكان فنسى غيوراً من زميلاتى ومتشككاً فيهم ، وكان هذا الشعور متبادل بينهم بعد أن أصبح فنسى جزء آخر من حياتى لم أتمكن من الاندماج معه تماماً .

واعتدت منذ لقاءنا الغرامى الأول — إن جازت تسميته كذلك — أن أقضى معه العطلات الأسبوعية فى الفترة التالية سواء بصوفيا أو سكوبجى ونحن نسير جنباً إلى جنب متشابكي الأيدي ، وننتشارك فى أطباق البطاطس المقلية والجبنة ونشرب القهوة المركزة التى كان فنسى يضيف إليها ستة ملاعق من الكريمة ،

كشف المستور

وأدركت أنى حصلت أخيراً على صديق حميم ، ولم أبالى بما
قاله لى الجميع عن عدم ملاءمته لى ، أما بالنسبة لى فقد كان
فنسى يمثل نوع هادئ من الثورة ، بل أنى حتى ملأت
الاستثمارات والنماذج اللازمة فى الوكالة بخصوص هذا الشأن .
واندهش سكوت بشدة عندما ناولته الاستثمارة التى تصف علاقتى
بفنسى على أنها حميمة ، وقال : هل هى علاقة حميمة جادة ؟
وأملأ فى ألا أتعرض للمزيد من أسئلة سكوت قلت : " ليس
تماماً " ثم أضفت وكأنى أريد تبرير تصرفى " علاقتى به أشبه
بعلاقتى بصديق أعرفه من سنوات طويلة " .

فقال : أتورطت مع البلغاريين ؟

ومنعتنى ابتسامته الودودة من الهجوم عليه ، وقلت فى شبه
مزاح : لا تنسى أنه ممنوع علينا مواعدة الروس .
وكان سكوت الذى خدم بموسكو أثناء الحرب الباردة يعتبر أن
أى شخص من كتلة أوروبا الشرقية هو تجسيد للشر ، ومنعنا
صراحة كضباط ميدانيين من إقامة أى علاقة شخصية مع
الروس . ووضع سكوت النماذج والاستثمارات التى قدمتها له فى
مظروف مكتوب عليه " سرى للغاية " على الرغم من إدراكى
التام أن المعلومات التى تتعلق بحياتنا الشخصية ليس لها أى
علاقة بهذه الصفة ، وقال : سأرسل هذه الأوراق إلى القيادة ،

كشّف المستور

ثم ننتظر ردهم. ولم يكن انزعاج سكوت من فنسى فى مثل
مستوى انزعاج ايما واميلى اللتان نظرنا إليه باعتبارهما شخص
يسمم حياتى ويدعوا للإكتئاب بالإضافة إلى استيلائه على وقت
فراغى وذلك بعد أن قسمت أوقات العطلات الأسبوعية فى
صوفيا فصرت أقضى أيام السبت مع فنسى والأحد مع الفتيات ،
وكانت رفقة هى ما أحتاج إليه فقد كانت بساطة حياته تتناقض
تتناقض صارخ مع حياتى التى تزيد كل يوم تعقيدا ، ووجدت فى
صحبه بعض الراحة البسيطة غير المبررة .

* * * * *

ظننت أنه لن يتمكن أحد من إيجادى بقرية سفوح
الواقعة فى الشمال الغربى من بلغاريا حيث ذهبت مع فنسى ،
واشتهرت هذه المدينة بالشيكولاته مما زاد من جمال جوها
الأسطورى ، وكنت قد تقابلت مع فنسى قبل ذلك بساعة فى
محطة قطارات صوفيا التى ازدحمت بكل المأسى البشرية
كالآباء المكودين الذين يحملون الحقائب الثقيلة ، وأطفال
الشوارع الذين يشمون الغراء ، والعاهرات المدمنات اللاتى
يبحثن عن الزبائن ، ثم ابتعدت عن هذه المناظر الكئيبة بمجرد

كشف المستور

أن شق القطار طريقه وسط طريق رائع على جانبه نهر تحفه
صخور جيرية .

ووجدت بسفوح نفسها جو من الهدوء ، وارتقى فنسى تلاً على
حدود المدينة وتوقف عنده ليشتري خبز وشوكولاته وسمك
معلب وبعض المعكرونة والشاي وعلب الجعة وعصائر للصباح
بالإضافة إلى أربع بيضات وبعض الجبن ، وأمسك كيس البيض
وحاول أن يحدثني بانجليزية سليمة فقال : سنصنع بعد ذلك
إفطار بعضنا . وكانت أخطاؤه في الحديث بالإنجليزية تعجبني ،
وانبهرت بجمال منظر غروب الشمس والرياح السريعة التي
قابلتنا ونحن نكمل صعودنا للتل الذي أضاعت الفيلل القليلة
المتناثرة عليه كأضواء الزينة على شجرة الكريسماس ، وكانت
فيلا أسرة فنسى هي أعلى فيلا على التل .

وبينما كان فنسى يتحسس جيوبه ليخرج منها المفتاح أزعجنا
صوت رنين هاتفى الجوال الذى رن بصوت عالى ومزعج ،
وكان الجو ظلام وليس بإمكانى معرفة المتصل لكنى خمنت أن
يكون هذا الإتصال هام فأجبت عليه .

أتانى صوت سكوت من الطرف الآخر يقول : أيمكن أن أكلم
اليزافيتا ؟ وكانت هذه شفرة متفق عليها فى حالات الطوارئ

كشف المستور

تعنى أنه يريد مقابلتى فوراً بأحد نواصى الشوارع الخلفية
بسكوبجى ، فقلت بصورة تلقائية : الرقم خطأ .

وبمجرد أن أغلقت الخط أدركت حجم المشاكل التى ساعانيها
لأنى لم أطلب إذن قبل السفر إلى بلغاريا ، فقد سافرت بدون
تصريح من القيادة ودون أن أخبر سكوت على الأقل ، والآن
يتوقع أن يرانى خلال ثلاثين دقيقة بينما بينى وبينه مسافة
ساعتين بالقطار يليها ثلاث ساعات بالسيارة ، ولست فى حاجة
للقول أن بينى وبينه مسافة دولة كاملة .

وقلت لفسى : أريد هاتف عمومى ، وأريد العودة للديار .
فنظر لى كانى مجنونة ، وقال : الآن ؟ !
قلت : نعم ، الآن .

قال : لكننا وصلنا للتو ولا توجد قطارات أخرى الليلة .

قلت : وماذا عن الهاتف العمومى ؟

ولابد أن فنى لمح خيبة الأمل فى عينى فقال وهو يحك رأسه
وكانه إحدى الشخصيات الكرتونية : ربما نجد واحد فى مجمع
سفوح التجارى . وأدركت أن هذا الموقف لابد وأن يؤكد شكوك
فسى حول كونى جاسوسة .

وزادت برودة الجو أثناء نزولنا من على التل واشتدت حلقة
الظلام وزاد مع كل هذا قلقي ، وأحسست أنى أنهار لوجودى مع
فنى فى هذا المكان المنعزل وأنا فى ورطة كبيرة .
ووصلنا المجمع التجارى الذى لا يمكن لأحد أن يتوقع أنه مجمع
تجارى ، واكتشفنا بطبيعة الحال أن الهاتف العمومى الوحيد لا
يعمل ، وأعنى بذلك تحديدًا أنه كان هناك فراغ كبير فى كشك
الهاتف فى المكان الذى يفترض أن الهاتف مثبت فيه .
ولم يوجه لى فنى أية أسئلة إضافية بل أخرج علبة سجائره
وظل يدخن بينما أنا أتصل بسكوت من هاتفى الجوال ، وكان
هذا يمثل انتهاكًا شديدًا للتعليمات لا يقل عن اختفائى المفاجئ من
مقدونيا بلا أثر ؛ لأنه يجب ألا يوجد أى شئ يمكن أن يربط بين
سكوت ورقم هاتفى الجوال ، لكنى فعلت ذلك فى هذه اللحظة
لأنى لم أجد أى حل بديل .

وفى النهاية قلت بصوت أجش : هل اتصلت باليزافيتا ؟

فقال فى اضطراب : نعم ؟

قلت : هى فى بلغاريا الآن .

فقال : حسن وأتبع هذا فترة صمت قبل أن يقول : أرجوا أن

تطلبى منها أن تعود فى أقرب فرصة لأن الفوضى تضرب

مقدونيا وربما تغلق الحدود قريبًا .

وبمجرد أن أغلقت الهاتف تتبعت إلى أن عيناى شاخصتان وأن
فنىى ينظر إلى وكأنه ينظر لميته .
قلت وشفتاى ترتجفان : يجب أن أعبر الحدود بأسرع ما يمكن .
فأمسك فنىى بىدى وقال : سأتى معك .
فتراجعت خطوة إلى الوراء وقلت : لا ، كل شئ على ما يرام .
فنظر لى وهو يتفحص ملامح وجهى متشككاً .
قلت : ليس هذا بسببك ، هذا شأن يخصنى . الأمر معقد ولا
يمكننى شرحه ، كل ما هناك أنى أريد أن أذهب .
فأمسك فنىى بىدى ثانية وقال : ألا يمكنك الإنتظار للصباح ؟
ولم تكن هناك أى قطارات متجهة لصوفيا فى تلك الليلة فتركت
له يدى وعدنا نصعد التل فى صمت وبمجرد أن دخلت البيت
غفوت على الأرض أمام المدفأة الخشبية التى أوقدها فنىى .
وعندما حل الصباح كنت غارقة فى العرق ورأسى مصدوع
بشدة وحاولت جاهدة أن أتذكر ما إذا كان حديثى مع سكوت حلم
أم حقيقة ، وغسلت وجهى بماء فى دلو وتسالت بحذر نحو الباب
، وعندما استيقظ فنىى كنت قد اختفيت .

* * * * *

كان بينى وبين الوصول إلى سكوت حوالى نصف يوم من
السفر ، وعلى كل حال لم تغلق الحدود وتمكنت من العودة إلى

كشف المستور

مقدونيا فى الوقت الذى قصف فيه الألبان أحد أقسام الشرطة المقدونية وأسقطوا خمسة قتلى على حسب تصريح المصادر الألبانية ، وعندما قابلت سكوت طلب منى أن أتصل بأحمد لإجتماع طارئ ، وقال : الطابق السابع يضغط علي بشدة لمعرفة تفاصيل ما جرى ، قابلي عميلك واعرفى ما إذا كانت عنده أى معلومات إستخباراتية حول الخطوة التالية لجيش التحرير القومى .

وكان سكوت يتعامل مع القيادة وكأنها حماته ، وكنت على يقين من أن سكوت يعرف تمامًا مثلى أن أحمد ليس له علاقات وطيدة مع الثوار تسمح له بالإطلاع على خطط الهجوم القادمة ، وشككت فى أن أحدًا بالقيادة خمن كونى فى بلغاريا فى هذا الوقت مع صديقى الجديد وطلب استدعائى فقط كنوع من إحكام السيطرة . وكانت مقدونيا كلها فى هذا الوقت على حافة السقوط فى منزلق حرب أهلية كبيرة ، وبحلول الربيع زاد عدد الهجمات وتكاثرت المصائب على البلاد حتى أن جيش التحرير القومى نجح فى الإستيلاء على قرية اراسينيفو الواقعة قرب العاصمة المقدونية سكوبجى ، ونمت هذه الليلة على أصوات إطلاق النيران وقصف المدفعية بالمرتفعات التى لا تبعد عنى كثيرًا .

وتلى ذلك ترحيل الحكومة الأمريكية لكل الرعايا الأمريكان الموجودين بمقدونيا باستثناء من أطلق عليهم مسمى " ضروريين لإنجاز المهمة " وعنى بهم ضباط وكالة الإستخبارات المركزية. وبمرور الأيام أصبح وجودنا فى مقدونيا أكثر خطورة لزيادة النظرة العدوانية لنا من قبل الشعب المقدونى خصوصًا بعد أن رفضت الحكومة الأمريكية التدخل لإيقاف ما اعتبره المقدونيين السلافيين خطة إرهابية للإستيلاء على بلادهم واعتبروها قمة الإهانة ، ورأت القيادة المقدونية أن أمريكا سيطرت على بلادهم منذ أن سمحوا لها بإقامة قاعدة عسكرية داخل أراضيها بالإضافة إلى إجبار الولايات المتحدة لمقدونيا على استضافة آلاف اللاجئين الألبان ، حتى أن فاسيل أحد متسلقى الجبال العدائيين قال لى فى أحد اتصالاته الأخيرة : أستم تقولون أن الأفعال الحسنة لا تذهب بلا عقاب ؟

وهوجمت السفارة الأمريكية بسكوبجى مرتان من قبل الجماهير الغاضبة التى أحرقت سيارات الدبلوماسيين المصفحة وشوهت حوائط السفارة البيضاء الناصعة بالصلبان المعقوفة وبالكتابات التى تصف حلف الناتو بالنازية .

وبعد الهجوم الثانى وصلت فرقة من مشاة البحرية لحماية السفارة ، واعتدت كل يوم أثناء دخولى السفارة إلقاء التحية على

الجندي الذي يقابلني فيرد علي باقتضاب " صباح الخير ياسيدتي " ، وبمرور الأيام أصبح اتصالي بجنود مشاة البحرية المحيطين بالسفارة هو الإتصال الوحيد بالعالم الخارجى بعد أن توقفت عن التحدث بالإنجليزية فى سكوبجى وقلت زيارتى لأصدقائى المقدونيين بالإضافة إلى أن الجبال المحيطة بسكوبجى سيطرت عليها العصابات الألبانية ، وقال لى جوشى بمرارة عندما تقابلنا بعد أسابيع من المقاطعة : لقد أفسدوا بلدنا ، وهذا تم بمساعدة أمثالك . ولم أعرف أبدًا كيف أرد على مزاعمهم خصوصًا وأنا أشعر أن مزاعمهم حقيقية ، وتعاطفت مع الثوار الألبان لا إراديًا لكنى كنت مدركة أن الألبان بارعين فى تملقنا واستدرار عطفنا والتلاعب بنا بحسن معاملتهم ؛ بينما المقدونيين يستغلون كل فرصة مواتية للهجوم علينا ، وبهذا كان الألبان ينوموننا مغناطيسيًا حتى نقف بجوارهم فى مواجهة السلافيين . وحثم علي واجبى الدفاع عن السياسة الأمريكية ولذلك امتنعت عن الإتصال بالسلافيين ، وضايق هذا سكوت كثيرًا لأن القيادة كانت تضغط عليه بشدة للحصول على معلومات أكثر من كلا الجانبين

* * * * *

لحسن الحظ أنى ارتديت ملابس جعلتني أقرب شبهًا بالنساء
المحليات بالإضافة إلى إغلاق فمي أغلب الوقت مما مكنني من
الاندماج فى المجتمع ، وعلى الرغم من ذلك لم تتسى جارتى
العدوانية أبدًا من أين أتيت ، وبحلول الصيف كانت قد امتنعت
تمامًا عن الحديث معى .

وعدت للمنزل فى أحد الأيام بعد أن مر على ولادة القطّة التى
ربيتها أسبوعين لأكتشف أن القطّة الأم ميتة وأولادها مبعثرين
فى فناء المنزل أموات ، وأمسكت فى منتهى الأسى القطّة
الصغيرة الوحيدة التى لم تكن ماتت بعد وهى تتشبث بالحياة ،
وانهارت دموعى من شدة الحزن ثم وضعت القطّة الأم وقططها
الصغار فى حقيبة لألقى بها .

وعندما أخبرت سكوت فى اليوم التالى بما حدث قال لى : لقد
سُمموا ، ولاقت كلابنا مصيرًا مماثلًا .
وتأكدت من هذا عندما اكتشف الألبانى الذى يعتنى بحديقتى سم
فئران بالقرب من طبق طعام القطّة الأم ، وقدم لى بنوع من
الفخر دليل الإدانة وهو حزين لحزنى ، ولم ألمح بعينه إلا نظرة
حذر ألقى بها تجاه منزل جارتى .

أصبح التهديد المستمر باقتراب اندلاع أعمال العنف بمقدونيا فى غاية الرتابة على الرغم من الإستمرار اليومى للقصف وتفجير الشاحنات بالألغام الأرضية وإطلاق النيران بصورة عشوائية فى التلال المحيطة واستخدام العديد من القرى القريبة من الحدود كدروع لجيش التحرير القومى.

ولم يكن التجوال بسكوبجى ممتع بالنسبة لى ، وبزيادة تمسكى بالعزلة افقدت ضوضاء المدينة المزعجة وعدوانية سكانها ، واكتشفت أنه على الرغم من أن أغلب سكان سكوبجى التزموا بالإقامة فى منازلهم ، ظل عدد من الأشخاص الذين لا يفعلون شيئاً — مثلى — يخرجون للشوارع .

وبتدهور الحالة الأمنية بمقدونيا توجب علي أن أكون أكثر حذراً فى التأكد من عدم تتبعى ، لأن كل الشوارع — بما فيها الشوارع الكبرى — صارت محاطة بأكياس الرمال التى يقف خلفها الجنود المقدونيون ، وتجول الجنود المراهقون بالمدينة يلوحون فى عدم اكتراث ببنادقهم طراز AK-47 ، وكان من المستحيل التفكير فى قيادة السيارة خارج محيط العاصمة لتأكدى التام من التعرض للتوقف ؛ فلو لم يتم إيقافى من قبل الشرطة أو الجيش المقدونى فسيكون من قبل نقاط التفتيش العشوائية التى

كشف المستور

أقامتها قوات جيش التحرير القومى بجنودها الأكثر احترافية وأقصى مظهرًا . وشاهدت مع اميلى عندما زارتنى بسكوبجى أحد التقارير الإخبارية التى نقلت عرضًا لإحدى كتائب العصابات الألبانية وهى تتحرك بخطوات عسكرية منظمة جدًا بإحدى المدن المقدونية المهجورة ، وحدثت اميلى فى الجنود الشباب بلامحهم القاسية وعيونهم الزرقاء الباردة وقالت : يا الهى إنهم أقوياء ، ما الذى يمكن أن يحدث ؟ ! وبالفعل استسلمت القوات المقدونية فى خزى واضح بملابسها المهلهله لقوات جيش التحرير القومى الأقوياء المنظمين .

* * * * *

كنت أظن أثناء التدريبات بالمزرعة أن التدريب على مواقع الإشارة مضيعة للوقت ، وأتذكر المرة التى كنت أتجول فيها بوليامسبرج لساعتين بحثًا عن مكان لأضع فيه صخرة مزيفة فى إطار أسلوب الإتصال مع العملاء عن طريق علامات الطباشير أو الطوب الملقى على الأرض أو بذور الزهور المبعثرة ، وبدأت لى كل هذه الأساليب قديمة لا تمت للحاضر بصلة ولا تصلح إلا للضباط الذين كانوا يقومون بعملهم فى موسكو أو بكين حيث المخابرات هناك عدوانية ولا تعرف الرحمة لدرجة أنه من الخطورة ترتيب اجتماعات مع العملاء

وجهًا لوجه وشكوت أثناء التدريب لا يثان قائلة: " لن نستخدم هذا الهراء أبدًا في الحياة الواقعية " . لكن سكوت طلب في اجتماعه الدورى بالضباط الميدانيين أن يتصل كل منا بأحد عملائه باستخدام أسلوب " موقع الإشارة " وحذرنا من استخدام الهواتف النقالة . وكانت إشارتى عبارة عن علامة بالفحم على سور بئر بالقرب من موقف السيارات الموجود بجوار المطعم المطل على المرتفعات فى بنتليمون الواقعة بالجانب الغربى من جبل فوندو قرب أحد الأديرة ، ويستتبط العميل من هذه العلامة رغبتى فى عقد اجتماع خلال 24 ساعة ، ويقوم العميل بالمرور بمنطقة العلامة كل يوم أحد وقت الغروب وكأنه ذاهب للدير ، وإذا رأى العلامة فإن هذا يعنى أنه يجب عليه مقابلتى فى اليوم التالى فى الساعة الخامسة صباحًا بمكاننا المتفق عليه .

وقررت أن أذهب لموقع الإشارة باستخدام الدراجة وكأنى أتجول بصورة عادية يوم الأحد ، وصحبت معى قطعة الفحم التى سأضع بها العلامة وظللت أتجول لحوالى الساعتين فى المدينة شبه المهجورة بعد أن أقيمت بالأمس جنازة لبعض القتلى من الجنود المقدونيين وبدأت سكوبجى فى هذه اللحظة أكثر كآبة وخالية من السكان أكثر من المعتاد .

كشفت المستور

وبعد أن تأكدت بصورة شبه يقينية من أنني لست مراقبة بدأت
فى شق طريقى تجاه بنتليمون ، ولمحت فجأة طائرة مقاتله
مقدونية — اندهشت لمعرفة أن بمقدونيا عدد من هذه الطائرات
المقاتلة — تخترق الجو فوق رأسى فأحسست باقتراب الخطر
وانحرفت تجاه بعض الشجيرات وسقطت تحت دراجتى ، ثم
كافحت للوقوف على قدمى مرة ثانية وعدت لقيادة الدراجة حتى
وصلت لنقطة التفتيش الموجودة أمام فندق بانوراما فوجدت
الطاقم الأمنى المعتاد يجلس أمام مائدة ويتناول الطعام ويشرب
القهوة فلوحوا لى بلا اكتراث .

وتألمت قدمى بشدة من القيادة فى الطريق المتعرج ، لكن بمرور
الوقت أصبح الهواء منعش والجو هادئ وتأكدت من أنى لست
مراقبة ، وبمجرد اقترابى من وسط فوندو التى تبعد أميالاً عن
المدينة الكثيبة لمحت ثلاث جنود يقفون فى منتصف الطريق
وهم يرتدون الزي العسكرى المموه ويحملون شدة عسكرية ثقيلة
، وكان مظهرهم يوحي لمن لا يعرفهم أنهم عصابات متمرده ،
لكن بالنسبة لى لم يكونوا أكثر من بعض الرعاع الذين يتألف
الجيش المقدونى منهم باستثناء أن هؤلاء الشباب بدا عليهم
الإستعداد لإطلاق النيران ، وكان أحدهم طويل ونحيف وهزيل
، والثانى لا يزيد عمره بأى حال من الأحوال عن السابعة عشر

، والثالث — أبشعهم مظهرًا — قصير وذقنه غير مخلوقة وله
كرش كبير وعلى رأسه ربطة مموهة تحمل صورة تشي جيفارا
، وباقترابي منهم لمحت علم مقدونيا على جانب سترة الطويل
وعلى عصابة رأس القصير .

وخمنت — من خلال المظهر العدوانى لهؤلاء الجنود الثلاثة
والغير معتاد من القوات المقدونية — أنهم ثوار تابعون لجيش
التحرير المقدونى قتلوا ثلاثة من جنود الجيش المقدونى وتكروا
فى زيهم ، ولعدم تأكدى من هوية الرجال قررت العبور
بجوارهم دون أن أنطق بكلمة واحدة ، وعندما مررت بالقرب
منهم قال الشاب الصغير شيئاً لم أفهمه وانخرط الآخرون فى
الضحك . ووصلت بعد حوالى نصف ساعة إلى موقف سيارات
بننليمون فتوقفت بجوار البئر لأشرب جرعة ماء وأسقطت فى
منتهى الحذر قطعة الفحم من جيبي ورسمت بها علامة على
سور البئر ، ثم التفت قاصدة طريق العودة .

وكنت قد نسيت تمامًا الجنود الثلاث الذين قابلتهم فى طريقى ،
لكنى عندما عدت أدراجى لمحنى القصير أقترب فتسللت
المجموعة للإختباء خلف الأغصان الموجودة على جانب
الطريق . وأحسست أن هؤلاء الشباب عازمون على قتلى
فزادت ضربات قلبى وأسرعت قدماى فى التبديل وجسدى يهتز

بعنف واقتربت من الشجيرات فقلت : " معذرة " ، لكنى لم
أسمع منها إلا صوت حفيف الأشجار وسمعت صوت زناد سلاح
يتحرك فنزعت عنى كل ملامح التحضر وقلت "
" وكانت هذه العبارة من السباب المقدونى المعتاد سماعه لكنها
لا تحمل معناها اللفظى بل تدل على الألفة بين الأصدقاء ،
وقلت : " بحق الجحيم ما الذى تفعلونه أيها الشباب ؟ "
واندهشت وأحسست بالراحة أيضاً عندما خرج الثلاثة من خلف
الشجيرات فى صمت يتقدمهم الشاب القصير قبيح المظهر وهم
فى غاية الخزى من شعورهم أنهم كانوا على وشك إطلاق
النيران على فتاة تقود دراجتها واعتذروا كلهم لى ، لكن تأنيب
ضميرهم أجج غضبى فأشرت فى انفعال لقميصى الذى يحمل
صورة ميمى ماوس لأوضح لهم مدى سخافتهم وقلت : " أيبدوا
مظهرى أشبه بجنود جيش التحرير القومى ؟ "
فقال الصغير قبيح المنظر : أنت واحدة منا ؟
فقلت وأنا أعلم أنى سأدخل نفسى فى مازق : لا ، أنا أمريكية .
قال : إذا فأبواك مقدونيان ؟
قلت : لا ، والدائى أمريكيان .
فتقدم منى الطويل النحيل الذى كان يقف بالخلف ومد لى يده
وقال بالإنجليزية : أنا تونى .

كشف المستور

ولمحت في أذنه قرط فأحسست براحة مفاجأة لأن هذا القرط
الفضي الصغير دلالة على أن هؤلاء الشباب ليسوا أكثر من
أطفال متخبطين .

فقلت وأنا متأكدة من أن كلامي معهم سيكون آخر اتصال إنساني
في هذه العطلة الأسبوعية : سررت بالتعرف عليك ياتوني ،
ظننت أنكم كنتم توون قتلى .

وقدم لى تونى زميلاه مشيراً إلى القصير باسم التتين وللآخر
باسم ميٹكو ، وتصافحنا وكأننا تقابلنا للتو فى إحدى حفلات
الكوكتيل بدلاً من الإختباء خلف الشجيرات ببنادق AK-47.
وقال تونى : كنت أعمل مع أمريكى ، أتعرفين السيد جو
فورزانى ؟

فهزئت رأسى قائلة : لا .

فهز رأسه فى دهشة وخيبة أمل وقال : ماذا تعملين على أى
حال ؟

فقلت بعدم ارتياح : دبلوماسية .

فقال : أعنى أنك لا تبدين أمريكية فلست طويلة ولا شعرك أشقر
أو شئ من هذا القبيل .

قلت وأنا أضحك : لا بد أنك تشاهد الكثير من الأفلام الإباحية .

كشف المستور

فضحك التتين وميتكو لذكر الأفلام الإباحية وقال التتين :
يالروعة هذه الأفلام !

ونظر لى تونى فى تشكك وقال : إذا أنت لست مقدونية ؟
فقلت محاولة لفت انتباه الشباب للتعدد الثقافى بأمرىكا : أنت
أسرة أبى من ايرلندا ، وأسرة أمى من روسيا ، ولذلك فأنا
نصفى كاثوليكي ونصفى يهودى .

فنظر تونى لزملائه وقال وكأنه كسب رهانا : أرايتم هذه المرأة
أمريكية نموذجية (يهودية ايرلندية) .

وكننت أتساءل فى هذه الأثناء عما إذا كان هؤلاء الشباب الثلاثة
من بين من قذفوا السفارة الأمريكية بالحجارة وأشعلوا النيران
فى السيارات الدبلوماسية ؟ !

وصاح التتين فجأة فى زملائه فعادوا للإختباء خلف الشجيرات
وتلفت حولى خوفاً من أن أسقط وسط تبادل إطلاق نيران
وأسرعت فى طريقى ، وجاءنى صوت تونى ينادينى قائلاً :
انتظرى من فضلك ياسيدتى ؟

وترك تونى مكانه وأسرع نحوى وقال وهو يشير للتلال حوله :
عندما تنتهى هذه الفوضى أرغب فى الحصول على تأشيرة
للولايات المتحدة ؛ فأنا أيضاً نصفى يونانى ونصفى رومانى
لكنى مقدونى .

كشف المستور

وأحسست أنه قال ذلك ظناً منه أن الامتزاز الثقافى له نفوذ خاص .

قلت : عليك أن تذهب للسفارة الأمريكية لكنى لا أظن أنهم يصدرن التأشيرات هذه الأيام خصوصاً بعد الهجمات التى حدثت على السفارة .

قال تونى : سبق وأن عملت مع الألبان ، لقد كنا نعمل معهم فى كوسوفا ولى العديد من الأصدقاء المسلمين .
قلت : والآن ؟

قال : والآن أنا جندى ، هم يقتلوننا الآن ونحن يجب أن نقتلهم .
وتذكرت طلب سكوت الحصول على معلومات من المتطرفين المقدونيين فقلت : لكن ما الذى تفعلونه بفوندو ياشباب ، أعنى أنتوقعون حدوث شئ ما ؟

فقال : نحن نتوقع كل شئ دائماً ، ونظل دائماً مستعدين .
ثم سكت للحظة نظر إلي فيها وقال : على كل حال ، ماذا تتوقعين بخصوص الحصول على التأشيرة ؟

قلت : قابلنى غداً فى نفس هذا الوقت وفى نفس المكان .
وانصرفت وأنا أفكر فى إخبار قيادتى بنبأ الوصول إلى هذا الكنز المعلوماتى الهام .

* * * * *

الفصل العاشر

تعطلت سيارتى ببليغاريا فقررت الذهاب لمقدونيا بالحافلة لأقابل
تونى عميلى الجديد ، ودفع تعطش اميلى للمغامرات إلى المجئ
معى . ولم تكن حال محطة الحافلات الرئيسية ببليغاريا أقل بؤساً
من محطة القطارات الرئيسية التى لا تبعد عنها إلا حوالى مائة
ياردة ، وكانت الحافلات التى تعمل فى خط
(صوفيا - سكوبجى)

مملوكة لشركة تحمل - لسخرية القدر - اسم " الأمل " ، وكان
منظر الحافلة الخارجى يدل على أنها سيارة خرجت من الخدمة
، وكان منظر السيارة فى غاية الكآبة بسبب كثرة الأوحال التى
غطتها والطلاء الباهت والأبواب الصدأة ، والإطارات المرتخية
من ثقل حمولتها .

ولم يكن داخل الحافلة أفضل حالاً ؛ فالنوافذ فى غاية القذارة
بدرجة تحجب الرؤية تماماً ، ورائحة الأجساد المحيطة بك كفيله
لأن تجعلك تتراجع لمسافة عشرين قدم .

وجلست مع اميلى فى مقعدين بمؤخرة الحافلة ، وبعد دقائق
جاءت امرأة بدينة جلست على المقعد المواجه لنا ومعها حقيبة
ملابس ضخمة ، وبمجرد أن جلست خلعت ملابسها كلها حتى

كشف المستور

صارت بالملابس الداخلية فقط ثم فتحت حقيبتها وبدأت تخرج ما بها من ملابس وترتديها القطعة تلو الأخرى .

وعندما انتهت من ارتداء كافة الملابس كان عليها ما لا يقل عن عشر قمصان وأربعة أو خمسة سترات جلدية وعدد مماثل من السترات العادية والعديد من السراويل ، وصارت المرأة أسمن مما سبق لدرجة أنها تحركت بصعوبة في ممر السيارة لتصل إلى الباب وردفاها يهتزان بشدة ويخبطان المقاعد المحيطة بكلا الجانبين وكأنها ترقص رقصة جاز أمريكية .

وتبادلت مع اميلى النظرات ونحن ندرك تمامًا أن ما شاهدناه هو تجهيز لعملية تهريب من قبل إحدى صغار المهربين .

* * * * *

اكتشفت بمرور الوقت أن كل من بالحافلة مهربين صغار باستثنائي أنا واميلى والسائق ، وبدأ الركاب يخرجون بضائعهم ويعيدوا توزيعها على بعضهم بحيث لا يحمل شخص واحد كمية كبيرة من نفس السلعة ، ولا بد أن حرس الحدود عمى وصم وبكم لئلا يعرفوا ما يدور ، وأظن أن أغلبهم يتلقى الرشاوى بصفة دورية لدرجة أنى تخيلت هذه العملية التى تتم فى السيارة شكلية أكثر منها موضوعية .

وقبل وصولنا كوستنديل التى تقع على الحدود البلغارية الغربية توقفت الحافلة عند موقف كئيب بجانب أحد الطرق وفتحت الأبواب وركب عدد كبير من الركاب بشعى المظهر فحياهم الركاب القدامى بحرارة وهتافات وربتات على الظهر تدل على معرفتهم لهم . وكان من بين الركاب الجدد امرأة بدا من مظهرها أنها إحدى زعمائهم ، وبدأت هذه المرأة بمجرد صعودها توزيع عدد من زجاجات الخمر على من حولها ، وبعد أن انتهت من الخمر عرفت نفسها لى باسم ناتاشا وهى تدس زجاجات العطور الغالية بين المقاعد وفى ظهرها وساعدها فى ذلك اثنتين ؛ رجل أشعث مخمور تمامًا وامرأة ذات شعر أحمر مجعد . وانتهوا أخيرًا من عملهم فجلست ناتاشا والمرأة ذات الشعر الأحمر فى المقعد الذى أمامنا وجلس الرجل المخمور خلفنا ، وأحسنا أننا محاطون بأبخرة الكحول ، وظل الرجل المخمور يتمتم فى غضب لشخص تخيلى يجلس بجواره ، وحاولت ناتاشا أن تتملقنى أنا واميلى لنسمح لها بأن تضع بعض زجاجات العطور بحقائبنا فتظاهرت اميلى بالنوم وتظاهرت بعدم فهمها حتى ملت ناتاشا فلوحت بيداها فى اشمئزاز .

وتوقف السائق بعد قليل بالمنطقة الحرة ونزل المهربون ليشتروا المزيد من زجاجات الخمر والبضائع الأخرى تحت سمع

وبصر الشرطة التى تظاهرت بالصمم والبكم والعمى ، ثم عادوا إلى الحافلة يخبئون المشتريات الجديدة .

وتوقفنا بعد ذلك على الجانب البلغارى من الحدود لقراءة الساعة حتى يتم الإنتهاء من فحص جوازات سفرنا ، وأعاد الشرطى لنا الجوازات بأن أعطاها للشخص الذى تصادف وجوده بأحد المقاعد الأمامية بالحافلة ليوزعها علينا ، وأثناء التوزيع العشوائى لجوازات السفر غمرت المهربين مشاعر الدهشة والتعجب عندما اكتشفوا أنى واميلى أمريكيتان ، وتجمعت جمهرة حول الرجل الذى أعلن هذا الإكتشاف وانحنوا على جوازات سفرنا يتفحصونها وهم يبدون إعجابهم بمظهرها وجودة الخامات المصنعه منها لدرجة أن ناتاشا رفعت جوازات سفرنا فى الضوء وكأنها تتأكد من أنها ليست مزيفة .

وبينما كنت أنظر باكتآب إلى جواز السفر الذى أعيد لى بالياً ومتسخاً ؛ وكزتتى اميلى بمرفقها وأومات لرجل يمد رأسه الأقرع فى الفراغ الموجود بين مقعدينا وهو يضع إصبعه بأنفه وينظر لنا بعيونه الغريبة بحماقة وبلاهة لم أراها أبداً فى حياتى وبعد انتهاء التفتيش الصورى للحقائب عادت الحافلة تخترق طريقها بين الحدود البلغارية والمقدونية غير المأهولة لساعتين زادت فيها نظرات الأبله بلاهةً وزاد فيها السكران سكرًا على

كشف المستور

سكره لدرجة أن صبر اميلى أوشك على النفاذ وتوسلت لى أن
أستخدم صفتى الدبلوماسية لعبور الحدود .
وكننت أسافر بجواز سفر عادى وأحتفظ فى نفس الوقت بجواز
سفر دبلوماسى مخبأ بحقيبتى الصغيرة لاستخدامه فى حالات
الطوارئ ، وقالت اميلى فى محاولة لإيجاد بعض المقترحات :
يمكنك أن تدعى أنك كنت تقومين بتفحص أمنى للحدود ، ويمكن
أن تقولى أن لديك موعد هام الليلة مع السفير .
وتمنيت لو أن بإمكانى أن أخبر اميلى أنى لست فى الحقيقة
دبلوماسية . وكان الوقت متأخر وليس من المتوقع — بسبب بطء
الحافلة — أن نصل سكوبجى قبل منتصف الليل ؛ أى بعد
موعدى المتفق عليه مع تونى ، وكننت شغوفة قدر شغف اميلى
للإسراع فى الوصول ، وأخيراً ذهبت لمقدمة الحافلة وأيقظت
السائق الذى كان نائماً يشخر ، وقلت له : ما المشكلة ؟
ففرك السائق عينيه بشدة وقال منزعجاً : شرطة ؟
قلت : لا ، أنا دبلوماسية .
وأريته وثيقة سفرى الدبلوماسية التى أخرجتها من مخبأها
السرى وقلت : أتظن أنهم يمكن أن يسمحوا لنا بعبور الحدود
بسرعة لو أنى ذهبت للتحدث معهم ؟

كشف المستور

فهز السائق كتفيه وتثأب في تثاقل وكان بصحبته رفقة من المراهقين وقال : إنهم لا يفهمونا .

وتجمع في هذه الأثناء خلفي العديد من الركاب ليسمعوا الحوار الذى يدور بينى وبينى السائق واتفقوا معه فى عدم جدوى أى محاولة للتأثير على شرطة الحدود ، وانغمسوا فى المهمة والثرثرة حول عدم عدالة الحياة ، وبدا أنهم اعتبرونى أنا واميلى جزءاً منهم .وبعد أن أصبحنا أخيراً على الجانب المقدونى من الحدود أتى أحد الموظفين وطلب جوازات سفرنا فناولته هذه المرة جواز سفرى الدبلوماسى فعاملنا الموظف بطريقة أفضل من الآخرين بأن سمح لى واميلى بالبقاء بالحافلة بدلاً من النزول مع بقية الركاب والوقوف فى البرد القارس ، وصعد موظفى الجمارك لفحص الحافلة وتجاهلوا عشرات الزجاجات المخبأة بين المقاعد ووسط الحقائب بطريقة واضحة وكأنها بيض عيد الفصح .وبمجرد أن عاد الجميع للحافلة أدركت مدى براعة ناتاشا فى التهريب عندما انحنت لتخرج الزجاجات تلو الأخرى من جوارى أنا واميلى والتى لم نكن لاحظناها وهى تدسها لدرجة أنى توقعت أن ألمح زجاجة عطر بين ملابسى عندما أذهب لفراشى .

لكننا كنا قد عبرنا الحدود للتو وبينى وبين التفكير فى الفراش ساعات طويلة ، ولأن السائق كان فى غاية الشوق إلى الوصول لسكوبجى فى أقرب وقت كان يقود السيارة بأقصى سرعة ممكنة لدرجة أنى كنت أشك أنه نام على عجلة القيادة ، وكانت انعطافاتنا بين الجبال هى الدليل الوحيد على عدم صحة ظنونى وزاد هياج الرجل السكرى فأخذ يصب اللعنات والسباب البذئ على المرأة ذات الشعر الأحمر ثم انتقل لى ولاميلى وأمطرنا بوابل من أقذع السباب فتظاهرنّا بالنوم ، وبعد قليل توقف الرجل عن السباب وذهب إلى المقعد الذى أمامنا حيث تجلس ذات الشعر الأحمر وتودد إليها معتذراً فأشاحت له وكأنه ذبابة لكنها فى النهاية عانقته بعد أن فقدت القدرة على إبعاده .

وتجاهل السائق التوقف الروتينى لتناول العشاء حتى أتمكن من اللحاق باللقاء العاجل بالسفير الأمريكى ، لذلك وصلنا سكوبجى ونحن نتضور جوعاً فتوجهنا إلى أحد محلات مكدونالدز حيث قابلنا العاملون بابتسامة ودودة وبدأوا تسخين الدجاج المقلّى وأعادوا توصيل قابس الكهرباء لماكينة خفق البيض باللبن ، وكانت محلات ماكدونالدز بسكوبجى هى المكان الذى أرتاح فيه أكثر من السفارة الأمريكية نفسها .

كشف المستور

وجلس في هذا المكان المريح واملأ إلى جانبي وبفمي
سندويتش هامبورجر فارتخى كتفاه وقل إحساسى بالضياح
وبدأت أفكر فى تونى .

* * * * *

أتى أخيراً التدخل الأمريكى الجاد فى الأزمة المقدونية فى
صورة المبعوث خاص جيمس بدرو .
وظل بدرو طوال أشهر الصيف يشرف على المفاوضات بين
المقدونيين السلافيين والقادة الألبان بأحد المنتجعات السياحية
قرب بحيرة أحريد حتى تمكن فى النهاية من صياغة اتفاق سلام
هش بين الحكومة المقدونية وجيش التحرير القومى ، وحل
صيف عام 2001 على سكوبجى بإحساس من الهدوء الغريب
وغير المتوقع .

ووصل المحللون السياسيون المختصون بشئون منطقة البلقان
بوكالة الإستخبارات المركزية إلى إجماع على أنه إذا حدث
اندلاع أعمال عنف بمقدونيا فى المرحلة التالية فإنه لن يكون
من قبل جيش التحرير القومى ولا أى من المجموعات الألبانية
الثورية بل من الأسود .

وكانت الأسود ميليشيا عسكرية تتكون من ضباط شرطة من
عدة قوميات مقدونية وأغلبهم مجرمين سابقين ، ورئيس الأسود

هو لجوب بسكوفسكى وزير الداخلية المقدونى الذى أخذ على عاتقه مهمة حماية مقدونيا من أجل المقدونيين واكتسب لقب " ميلوسوفيتش الصغير " ، وتغاضى بسكوفسكى عن الغارات التى كانت تشنها قواته على المدنيين وعن عمليات قطع الطرق التى كانوا يقومون بها ، وبالإضافة لذلك كان الأسود مسلحين تسليح جيد ويُدفع لهم بسخاء .

وكانت هناك بالإضافة لميليشيا الأسود ميليشيات أخرى مثل ميليشيا النمر التى تشكلت من فرق أخرى من الشرطة المقدونية وميليشيا الذئاب التى كانت من نخبة من قوات العمليات الخاصة بالجيش ، أما ميليشيا العقارب فلم يعرف أحد طبيعة توجهاتها على وجه التحديد ، وكشفت هذه التسميات الطفولية للمملكات الحيوانية مدى انحطاط المستوى الأمنى بالبلاد . وألح على سكوت بشدة للقيام بتجنيد شخص من هذه المجموعات وقال : على الرغم من أننا نعرف كل شئ عن الألبان إلا أننا لا نعرف أى شئ عن القوميات السلافية .

ولحسن الحظ أن تونى — طالب التأشيرة بجبل فوندو — كان له صديق حميم من الأسود . وعندما ذكر تونى صديقه ديمى المتعصب ذات ليلة ونحن نشرب الويسكى قلت له : أريد أن

كشف المستور

أقابله ، نحن نعرف أن الأسود هم من خططوا للهجوم على السفارة الأمريكية وأنهم يكرهوننا بشدة لكنى أريد أن أفهم السبب فقال تونى الذى كان تركيزه منصب دائماً على الحصول على التأشيرة : لا توجد مشكلة ، يمكنك أن تقابليه فى الحفلة التى سنقيمها فى عطلة نهاية الأسبوع .

قابلت تونى وديمى وزوجته سنيزنا — التى بدا عليها أنها حامل — فى مساء السبت أمام مجمع ترجوفسكى التجارى الذى يعد نواة العلاقات الإجتماعية بسكوبجى .

وكان ديمى سمين له كرش مترهل ويلبس خاتم بلاتينى كبير وسلسلة ذهبية ولاحظت عليه شعار الأسد ، وبدا على سنيزنا أنها قد تتجرب طفلها فى أى لحظة .

وحدث التردد المعتاد فى اختيار حانة الشراب التى سنقصدها بمجمع ترجوفسكى التجارى ، وفى النهاية وافق ديمى وتونى على الذهاب إلى الحانة التى تحمل اسم (روما — باريس) ، وطلبت أنا وتونى وديمى أكواب الجعة بينما أشعلت سنيزنا سيجارة وطلبت كأس فودكا مزدوج ، وكان ديمى فى غاية السرور لوجود أمريكية مستعدة للإنصات اللامتناهى لوجهة نظره ، واعترف لى بمنتهى الفخر أنه يقود وحدة الأسود بمنطقة التى تحمل اسم كسيلا فودا والتى تعنى حرفياً

(المياه الننتة) ، وكان فى غاية السرور لإنصأتى له وهو يحدثنى عن قصة حياته التى اشتملت على بعض الغارات خلف الحانات " لإغضاب المخطئين "

على حسب وصفه ، وذكر لى أن بسكوفسكى عرض عليه شخصيًا العودة للشرطة فى النظام الجديد الذى يحمل اسم الأسود وأخبرنى بمدى امتنانه بهذا العرض .

وقال : وكما تعرفين فإن عندى بعض الخبرة ، وعلى كل حال فإن تونى أخبرنى أنك دبلوماسية وأنك مهتمة بمعرفة طبيعة نظرتنا للأمريكان .

قلت : نعم فالعديد من المقدونيين لا يحبون لقاء أمثالى .
قال : حسنًا ، دعينى أخبرك .

وانحنى نحوى وقال : أنتم تصنعون فوضى كبيرة فى هذه البلد واسترخى تونى فى مقعده وعلى وجهه نظرة رضا وكأن ديمى قال بالنيابة عنه كل ما كان يتحرق شوقًا لقوله دون المخاطرة بفرصة حصوله على التأشيرة .

وقال ديمى : مساعدتكم لهؤلاء الألبان تشبه تمامًا قيامكم بإرسال أموال مباشرة لأسامة بن لادن .

واندهشت لمعرفة ديمى بأسامة بن لادن فى الوقت الذى كان أغلب الأمريكان لا يعرفونه ، لكن أهل البلقان كانوا يعرفون

المنشق السعودي الذى يمول جيش تحرير كوسوفا وكذلك الثوار
الألبان الذين يفترض أنهم تلقوا تدريباتهم العسكرية بمعسكرات
تنظيم القاعدة قبل أن ينال أسامة بن لادن شهرته الحالية ، وكان
القليل من المقدونيين المتيقظين أمثال ديمى يعتبرونه مصدر
تهديد خطير . وبدأ ديمى يسكر بعد الكأس الثانى ففكرت فى
التحاور مع سنيزنا التى كانت تجلس فى صمت وقلت لها :
متى ستضعين طفلك ؟ فابتسمت ووضعت كأس الفودكا المزدوج
من يدها بعد أن تجرعت آخر ما به وقالت : فى أية لحظة خلال
هذه الأيام . وكان من المربك الثرثرة مع امرأة حامل على حافة
الولادة فسألتها : أستذهبين لمستشفى سنترالنا بولنيكا ؟
قلت هذا مشيرة للمستشفى الرئيسية بسكوبجى التى تشبه مبانيها
أحد المصانع أكثر من كونها مكان للعلاج أو الولادة وأحسست
أن الأمر برمته أشبه بمشهد من رواية أوليفر تويست .
فقلت سنيزنا بانجليزية ركيكة : لا ، سأذهب إلى مستشفى
خاصة حديثة . فقال ديمى وهو متضايق لبعد محور الحديث
عنه : هذا المكان مكلف جدًا .
فقلت فى مرح : على كل حال أنا متأكدة من أن هذا المكان
يستحق هذه التكلفة .

قالت سنيژنا وهي تلقى لزوجها نظرة خبيثة : يعتقد ديمى أنها مضیعة للمال . ورغبت فى ألا أنجرف إلى خلافات عائلیة فاستأذنت للذهاب لدورة المياه ، وعندما عدت كان ديمى يدفع الحساب وقد قرروا نقل الحفلة إلى إحدى الحانات التى تشبه صالات الديسكو . وعندما اعترضت على هذا التفكير لأن هذا لن يكون ملائمًا للجنین كنت أفكر حقًا فى مصلحة سنيژنا ، لكنها ربتت على بطنها وقالت : لا توجد مشكلة فهو نائم الآن . وذهبنا إلى الحانة التى لم تكن تشبه صالة الديسكو ، فقد كان الدخان والضجيج يملآن جوها واكتظ المكان بأناس تتراوح أعمارهم من سن الخامسة عشر إلى الخامسة والخمسين ، ولأن ديمى يعرف مالك المكان أجلسنا فورًا على المائدة المغطاة بقماش ثقيل وعليها لافتة " محجوز " وفى طرفها اسم ديمى ، ومرة أخرى شارة الأسد .

وبمرور الوقت أصبح من الصعب على سماع ما يقوله ديمى لكنى خمنت أنه لا يقول شئ جديد عما قاله من قبل ، وانضم إلينا عدد من أصدقاء ديمى بعضهم أسود ومعهم نمر وذئبان وعقرب واحد ، وأحسست بمدى الفخر الذى سيشعر به سكوت وأشار ديمى بإعجاب إلى الشاب الضخم الأحمر الذى يتبع جماعة العقرب وقال : هذا الشاب جزء من قوة الردع السريع

التابعة لنا . واحتشد حولنا عدد كبير من أصدقاء ديمى وأغلبهم يضع على جسده الأوشام ويعرفون بعضهم البعض معرفة جيدة ، لكن بدا عليهم الارتباك بسبب وجودى بينهم . وبعد قليل انضم لنا مالك المكان الذى قدمه لى ديمى باسم فريدى ووصفه بأنه أحد رجال الأعمال المهمين . وقال فريدى فى تكشيرة : ما تكلفة الحصول على تأشيرة لأمريكا ؟ ثم فرقع بأصابعه وقال : أنا أدفع الكثير . ومنعتنى الموسيقى الصاخبة من سماع أغلب ما يقال لكنى فهمت أن فريدى يمتلك مطعمًا دعانى للعشاء فيه فى الأسبوع القادم . فقلت : عظيم . وتخيلت مدى سعادة سكوت عندما يعلم هذه الأخبار بالإضافة إلى القيادة التى ستبتهج كثيرًا بشبكة علاقاتى الإجتماعية الجديدة . وبدأت أشعر بالملل من هذا الوضع كلية ولفت انتباهى لسنيزنا التى كانت تغفو تحت سحابة من دخان السجائر ، وفجأة اقتحم المكان عدد من ضباط الشرطة فتوقفت الموسيقى وأضيأت الأضواء وصاح أحد أفراد الشرطة الذين اقتحموا المكان قائلاً : أخرجوا بطاقات هوياتكم ، وإذا كنتم تحملون أسلحة ضعوها على المائدة .

وأطاع الجميع الأمر — بمن فيهم رفقتى — بمنتهى الهدوء ، ومد كل شاب يده إلى جيب سترته ليخرج منها سلاحًا ، وكنت

كشف المستور

من بين القلائل الذين لا يحملون سلاح ، وتجمعت على مائدتي
كومة أسلحة وبينها بعض القنابل اليدوية ، وكان الوضع متشابه
على بقية الموائد . وأخذ رجال الشرطة يتجولون بالمكان
ويتفحصون الهويات ويدققون بها ، ولم يصادروا أيًا من الأسلحة
، وعندما وصلوا لمائدتنا صافحوا الجالسين عليها بمن فيهم أنا
ولم يطلعوا على بطاقات أى منا أو يلقوا بالاً لترسانة الأسلحة
الموضوعة على مائدتنا .

وانتهى عمل رجال الشرطة فانصرفوا وأطفأت الأضواء وعادت
الموسيقى تصدح ، وانحنى ديمى نحوى وقال : هؤلاء الشباب
أسود سريين يعملون تحت قيادتي .
وهممت بالإنصراف وناولت ديمى بطاقتي وقلت له : هذا هو
رقم هاتفى ، اتصل بى لنتقابل ثانية .

* * * * *

أنجبت سنيونا طفلة متعافية صحيحًا تمامًا ، واتصل بى ديمى فى
اليوم التالى لحضور عشاء بمطعم فريدى يوم الجمعة ، وكانت
اميلى قد عادت فى هذا الوقت إلى بلغاريا ، ينما ظلت ايما للبقاء
معى هذا الأسبوع ، وبما أن هذا اللقاء تمهيدى قررت أن
أصطحبها معى .

كشف المستور

وقال ديمى : من الجميل أنى سأترك زوجتى بالمنزل .
وعندما أخبرت ايما أنى أنوى أن أتناول العشاء مع ديمى بمطعم
فريدى قالت : هل هؤلاء الشباب أصدقاؤك ؟
قلت : ليس تمامًا ، كل ما فى الأمر أنه من الجيد لى أن أوسع
دائرة علاقاتى . فضحكت ايما وقالت : أتمنى لو أن بإمكانى أن
أعرف ما الذى تفعلينه بالضبط .
قابلنا ديمى أمام مجمع ترجوفسكى التجارى وركبنا سيارته الـ
BMW وانطلقنا إلى مطعم فريدى ، ووصلنا المطعم الذى كانت
تسميته مطعمًا مجاز لغوى بسبب كآبة منظره وتذكرت أنى
التقيت بأحد عملائى من قبل بهذا المطعم .
ودخلنا المطعم الذى علا نافذته الوحيدة العلم المقدونى بألوانه
الحمراء والصفراء فوجدنا المطعم متوهج الإضاءة وبه أربعة
موائد وحفنة من الرجال يلبسون ملابس العمال يجلسون بجوار
زجاجات خمور وجعة فارغة ، وخلف ركن الشراب خريطة
كبيرة لمقدونيا القديمة التى تضم بالطبع بعض من أراضى الدول
المجاورة . ووقف فريدى فاردًا زراعاه لتحييتنا وألقى نظرة
شهوانية إلى ايما ثم أخذ يدها وقادنا للمائدة الغير مشغولة ونادى
على النادل الشاحب ليحضر لنا طلباتنا .

وطلبت راجيا مثل ديمى بينما طلبت ايما كأس نبيذ أبيض مما
أثار — فى صمت — سخرية المقدونيين ، وانضم إلينا فريدى
ورجل آخر عرف لنا نفسه على أنه مدير حديقة الحيوانات .
وكان من الصعب أن أرحب بمدير حديقة الحيوانات بحرارة بعد
الزيارة الوحيدة التى قمت بها إلى الحديقة مع فنسى لأن
الحيوانات كان من الواضح تمامًا أنها لا تتناول أى تغذية
باستثناء الفول السودانى والحلوى التى يلقيها إليها المارة من بين
فتحات السور ، وكانت الحيوانات فى غاية الهزال ، وشاهدنا فى
بيت الزواحف أحد أقفاص الثعابين بجانبه كسر كبير خرج منه
الثعبان منذ زمن بعيد ، وكان بيت القروء فى نفس مستوى
الإهمال وبلا أى أفرع أشجار ، وجلست الشمبانزى القرفصاء
فى أحد أركان أقفاصها وسط القمامة وكأنها تعلن ياسها ،
ورغبت فى مغادرة الحديقة بعد رؤية هذه المناظر لكن فنسى
أصر أن نذهب لرؤية الطيور التى كانت فى قفص واحد كبير ،
وفوجئت برؤية أحد الصقور ملقى على الأرض ميت ومقطوع
الرأس ، ولم أندesh عندما رأيت الحال المزرية التى تعيش فيها
الأسود ؛ فقد كانت أقفاصها ننتة والأشبال مريضة وتتحرك
بصعوبة . وابتعد تفكيرى عن حديقة حيوان سكوبجى عندما
تحول الحديث على المائدة إلى شئون السياسة ، وكان فريدى

يشرح لايمما بمنتهى الحماس كيف أن الثقافة الألبانية هي أصل كل الشرور ، ويلبها في المرتبة الثانية الثقافة الأمريكية ، ولأن ايمما من أصل بلغاري كان من السهل عليها أن تتفهم طبيعة دوافعه جيداً لكنها تظاهرت بمنتهى الحكمة عدم الفهم فزاد هذا من هياجه وصاح قائلاً : " المسلم وغد " ، وصنع بيده وفمه حركات افتراضية وكأنه يلقي بنفاية .

ونظرت ايمما لي وهي مستاءة من اختياري لمعارفي الجدد . وانحنى فريدي على المائدة وقال : " يمكنك أن تعرفي الألبان من رائحتهم " ، فأوماً مدير حديقة الحيوان برأسه تصديقاً على كلامه . واستطرد فريدي قائلاً : رائحتهم كريهة مثل رائحة دهن الخنزير وهي تحترق . فضايق هذا الحديث ايمما بشدة فمالت علي وهمست : إلى متى سنبقى هنا ؟

وندمت على أني أحضرتها معي .

وقال مدير الحديقة بنبرة علمية : ليست رائحتهم رائحة دهن يحترق على وجه الدقة ؛ بل هي رائحة حيوانات ، أنا متأكد من ذلك . وتوقف الحوار لثواني عندما جاء النادل ليضع أطباق بيضاوية بها عدد من شرائح الخيار وبعض من قطع الطماطم وقليل من الجبن البيضاء . ثم عاد فريدي يتحدث بحماسة شديدة وقال وهو يلوح بيده في الهواء : " أما تتفس النساء الألبانيات "

، وصنع بيده وفمه تقليدًا لطريقة تنفس التنين ، فتدخل مدير الحديقة ثانية وقال : " هؤلاء الناس نتنى الرائحة بسبب نظامهم الغذائي " ، ولمح إلى أحد وجباتهم التى تعد من الخضروات النيئة وأكمل كلامه قائلاً : " بينما السلطة المقدونية جيدة للهضم وهى الأفضل على مستوى العالم . "

وفكرت فى الهرب من هذا الجو الكئيب فأمسكت بمعدتى وقلت لفريدى : أين دورة المياه ؟

فقال فى ابتهاج : لا توجد دورة مياه ، هناك دلو بالخلف . فمثلت بصورة مبالغ فيها أنى أترنح تجاه الباب ، وعندما عدت كان ديمى قد اكتشف أصول ايما البلغارية .

فمازحها بخبث قائلاً : اغتصب جدك جدتى فى الحرب العالمية الثانية . وقلت لديمى : أنا مضطرة للإنصراف أنا وايما فانا لست على ما يرام . وتخيلت مدى غضب سكوت عندما يعرف هذا لرغبته الشديدة فى أن أجند ديمى .

ونظرت لفريدى الذى تركزت عيناه على المائدة وعادت له نشوة الحياة بسبب ارتباك ايما ورغبتي المفاجأة فى الإنصراف فقفز واقفاً وهو يقول : هيا نستمع الآن لبعض الموسيقى المقدونية . وبمجرد أن تمكنت أنا وايما من الخروج من هذا الجو جرينا فى الشارع ونحن نكاد نسقط من شدة الضحك ، وقالت

لى ايما ونحن واقفين نلهث بجانب الطريق : كيف تتعاملين مع
هذا الوضع العجيب ؟ !

قلت : لا أعرف .

قالت : أعنى هل مهنتك هى مقابلة أمثال ديمى وفريدى ؟ لأنى
لا يمكننى أن أتخيل سببًا آخر يدعوك للقاء مثل هؤلاء
الأشخاص . قلت : أعرف أن هذا جنون .

فقالت : على كل حال ؛ أمل أن يكون الأمر يستحق كل هذا
العناء . ثم أعطتني ظهرها ونظرت للشارع الذى بللت أرضه
مياه الأمطار وقالت : أعنى أنه مهما كانت طبيعة عملك فلا بد
أنك تعرفين معلومات أكثر مما يعرفه شخص مثلى لكنى أمل أن
يكون ما لا أعرفه يستحق كل هذا العناء . وأدركت فى هذه
اللحظة أنه لا أنا ولا أى من زملائى أو رؤسائى يعرف أى شئ
أكثر مما تعرفه ايما، وأدركت أن أسطورة معرفة وكالة
الإستخبارات المركزية لكل شئ ليست أكثر من مجرد "
أسطورة " . ولم تتهار هذه الأسطورة فى أعين كافة موظفى
الوكالة فقط ، بل انهارت أيضًا فى نظر كافة الأمريكان الذين
فشلنا فى حمايتهم ذات يوم تالى .

ذهبت بعد عدة أسابيع إلى الدكتور توبوركوفسكى — طبيبة الأمراض النسائية التى اعتدت الذهاب إليها — وكنت أحبها بالرغم من تحفظى على خبرتها الطبية منذ أن حذرتنى من إمكانية الإصابة بأمراض جنسية بسبب السباحة فى بحيرة أحريد أو استخدام مقاعد دورات المياه الغربية ، واعتادت أن تقوم بفحصى بصورة روتينية سريعة ثم تقضى بقية الوقت تحكى لى قصص مغامراتها وحياتها الجنسية ، وقلت زيارتى لها بسبب كثرة حديثها عن نظرياتها الطبية الطائشة ، وبالإضافة لتحذيراتها المختلفة اعتادت أن تحذرنى من مواعدة رجال البلقان ، وقالت : الحيوانات المنوية للرجال هنا قوية على خلاف الأمريكان الذين يعانون من ضعف الحيوانات المنوية ، لذلك يجب أن تكونى فى غاية الحذر حتى لا تتعرضى للحمل . وقلت لها : شكرًا على النصيحة .

قالت : وأنا أحذرك من أنه على الرغم من قوة الحيوانات المنوية للرجل هنا إلا أنه لن يفكر أبدًا فى الإعتناء بابنه ، فكلهم صعاليك . وقالت : من الجيد أنك لم تعودى تسبحين فى بحيرة أحريد ، وأتمنى أن تكونى أنهيت علاقتك بذلك البلغارى . وكنت أنهيت علاقتى فى هذه الفترة بنفسى بعد حوالى نصف العام الذى قضيناه معًا دون فعل أى شئ فقد كان يقيم معى

بسكوبجى خلال فترة الإضطرابات التى كنت مشغولة فيها تمامًا حيث كنت أخرج من الصباح الباكر ولا أعود إلا متأخرة فأجده جالسًا يقلم أظافر قدمه على الأريكة وهو يشاهد أحد اسطوانات أفلام الفيديو للمرة المليون .

ودائمًا ما كان يصنع على العشاء شعيرة سريعة التحضير وزبد لأنه كان يشعر بقلّة الحيلة عندما أحضر أطعمة غالية ، وأعتقد أن كلانا مل من طبيعة حياتنا عندما كنت أعود مساءً منهكة من لقائى مع أحد العملاء وليس عند أى منا شئ يقوله ، بالإضافة إلى أنى مملت من رؤية أكوام بقايا السجائر التى كان فنسى يتركها بكل مكان بالمنزل .

وبانتهاء فصل الشتاء وقدم الربيع توقفت عن إخبار فنسى بمواعيد زهابى إلى صوفيا فى العطلات الأسبوعية ، وقابلته آخر مرة منذ عدة أسابيع يوم أن ذهبت معه إلى شقة أبيه الصغيرة بملا دوست التى تعنى " الشباب " ، وكان والد فنسى نسخة كربونية من فنسى نفسه ، وانهمك والد فنسى وعمه العملاق وجدته الضئيلة وأخته الصغيرة لامعة العينان فى التجول داخل الشقة الصغيرة ليحضرُوا لى شيئًا آكله أو أشربه ، وتساءلت فى نفسى عما إذا كان فنسى حدثهم عنى .

وبينما نحن جالسون دخل ابن عم فنسى وهو يحمل فى إحدى يديه سنارة وفى اليد الأخرى دلو معدنى ثقيل ، وكان بادياً عليه أنه أتى لتوّه من الصيد فى نهر الدانوب ، ولمحتّه يغمز لفنسى بطرف عينيه — بمجرد أن رآنى — ويرفع له إبهامه دلالة على الإستحسان .وبدا على الأسرة تضايقها من استضافة أمريكية ونادراً ما كانوا يرفعون أبصارهم عنى ، وجلسنا نشرب جرعة تلو الأخرى من الفودكا التى قدمت فى أكواب شاي مشروخة وأكلنا بعض أحشاء الضأن التى صاحبها القليل من الحساء الرقيق ، وبعد وصول ابن العم قليت الأسماك التى اصطادها ثم وضعت على طبق فوق الدلو الذى كان يصطاد فيه .

وبينما نحن نأكل أخرج ابن العم خريطة لبلغاريا وأشار إلى المكان الذى ينوى أن يأخذنى أنا وفنسى إليه فى رحلة صيد عند زيارتى القادمة . وغفوت للحظة على الأريكة بسبب الخمر وأفقت عندما هزنى فنسى برفق لأجد الجمع كله يمسك أكواب الفودكا ويرفعها إلى السقف ويصيحون فى وجهى قائلين : " فى صحتك " ، وأحسست أن حوائط المنزل تقترب منى .

وكنـت أعلم أن الجميع ينظرون لعلاقتى بفنسى على أنها وثيقة خروجه من هذا الفقر . ورافقتى فنسى هذه الليلة إلى شقة اميلى لأقضى بها ليلتى دون أن نتبادل كلمة واحدة ، وأحسست أنى لا

أنتفس بسهولة ، وبدا على فنسى أنه قرأ أفكارى فقال : أتعرفين ، هناك طرفة بلغارية تقول أن أحد البلغاريين ذهب إلى الجحيم ، وبينما الشيطان يقوده إلى نيران بلغاريا لاحظ البلغارى أن لكل دولة حراس أعلى السنة الذهب يمنعون الناس من الخروج ، وعندما وصل الشيطان بالبلغارى إلى البقعة المخصصة للبلغاريين لاحظ الشاب عدم وجود حراس أعلى ، وتركه الشيطان لينصرف فناداه البلغارى قائلاً : انتظر ، لماذا لا يوجد حراس فى منطقة البلغاريين ؟ فأجابه الشيطان قائلاً : لا نحتاج حراس هنا لأنه إذا حاول أحد البلغاريين أن يتسلق النيران ليخرج منها سيسرع بلغارى آخر لسحبه لأسفل . وضحكت على طرفته بالرغم من أن قلبى كان يتمزق ، وعندما انحنى ليقبلنى أمام شقة اميلى قبل انصرافه أدركت أن كلانا يعرف تمامًا أنى لن أسمح بأن أسحب لأسفل . وفى نهاية لقائى بالدكتورة توبوركوفسكى قلت لها : نعم ، لقد أنهيت علاقتى بالبلغارى .

* * * * *

خرجت من عند الدكتورة يوم 11 سبتمبر 2001 وتمشيت فى شوارع سكوبجى ، وكان هذا اليوم جميلاً بصورة غير عادية فقررت أن أترك سيارتى أمام عيادة الطبيببة وأمشى إلى المكتب

كشف المستور

مستمتعة بالنسيم وعبير الزهور ، وأردت أن أوجل عودتى
للمكتب الخالى من النوافذ حيث سأنهمك لبقية اليوم فى كتابة
التقارير للقيادة .

ووصلت المكتب فى الساعة الثالثة بعد الظهر فوجدت سكوت
فى انتظارى وقال : اقتحمت طائرة مركز التجارة العالمى .
قلت : حقاً ؟

وتوجهت نحو جهاز الكمبيوتر وأنا أسأل : أقتل أحد ؟
وبمجرد أن شاهدت المظهر على شبكة الـ CNN أدركت مدى
سخافة سؤالى ، ومدى سخافة تعاملى أنا وسكوت مع الموقف
بمثل هذا الإسلوب ، وكيف لم نعرف بمثل هذا الأمر من قبل
على الرغم من أننا نعمل بوكالة الإستخبارات المركزية ؟ !

* * * * *

بعد أن شاهدت منظر تحطم الطائرة بمبنى مركز التجارة
العالمى على شبكة الـ CNN اتصلت فوراً بايما التى كانت قد
وصلت نيويورك فى هذا الوقت فلم يجب هاتفها وظللت أحاول
الإتصال بها لحوالى عشرين مرة حتى أجابت فى النهاية بصوت
باكى : مرحباً .

فقلت : هل أنت بخير ؟

كشف المستور

وبمجرد أن سمعت ايما صوتى انهارت وقالت وهى تتنحب
وتحاول التقاط أنفاسها بين الكلمات : لا أصدق أنك تمكنت من
الاتصال بى فالهاتف لم يكن يعمل ، ولم أكن قادرة على
الاتصال بأى أحد ، ما الذى يفترض أن أفعله يا ليندسى ؟
قلت : لا أعرف .

فقلت وهى منفعة وعلى حافة الهستيرية : ما الذى يحدث بحق
الجحيم ؟ ألا تعرفون ؟
قلت : لا ، نحن لا نعرف .

وظل سؤالها هذا يرن فى أذنى لساعات وأيام وأسابيع وشهور
تالية .

* * * * *

استقلت اميلى حافلة شركة الأمل فى هذا اليوم من صوفيا إلى
سكوبجى بعد أن اتصلت بى هاتفياً وقالت : سأشعر بالأمان أكثر
وأنا معك ، وقال لى والداى " اذهبى وابقى مع ليندسى " . فهم
يظنون أنك تعرفين حقيقة هذا الأمر .

وبحلول المساء كنت أجلس مع اميلى أمام شاشة التلفاز نشاهد
الـ CNN ، وظل هذا الوضع يتكرر ليلة بعد أخرى حتى
منتصف أكتوبر عندما عادت اميلى لوالديها بكنساس .

وظللت طوال الأسبوع التالى لهذ الحدث أستيقظ فى الصباح وأقول لنفسى : " يالبشاعة هذا الحلم الذى رأيته ! " ثم أتساءل : " لماذا كانت اميلى نائمة بجوارى " ، وبمجرد أن تعود لذاكرتى مناظر اختراق الطائرات لمبنى التجارة العالمى واشتعال النيران بمبنى البنّتاجون حتى أدرك أن كل هذا لم يكن حلم ، وكنت أجلس أنا واميلى طوال الليل بالتناوب على جهاز الكمبيوتر نتفحص رسائلنا الإلكترونية بحثاً عن أى كلمة تأتى لنا من الوطن ، وتركنا التلفاز مفتوحاً ليل نهار .

وبعد هجوم الحادى عشر من سبتمبر بليتين استأجرت مجموعة من المقدونيين فرقة غنائية من أربعة أفراد للإبتهاج بهذا الحدث أمام مقر السفارة الأمريكية .

ولم أتمكن فى اليوم التالى من النظر المباشر فى عين أحد ، وأبقيت عيناي مثبتتان أمامى ، وفمى مغلق فى توتر وغضب وعبوس ، حتى عدت لاميلى بالمنزل التى كانت تتصرف فيه كربة منزل وتعد لنا شيئاً نأكله ، وحاولنا استعادة تماسكنا بشرب الزجاجاة تلو الأخرى من النبيذ الأحمر ، وفى الصباح صببنا الكثير من الكريمة على قهوتنا لأن أياً منا لم يكن لديه القدرة أو الرغبة فى الذهاب لشراء اللبن من المقدونيين الذين لم يترددوا فى إظهار فرحتهم .

كشف المستور

و ذات مساء جاءت جارتى الوقحة وأخرجت من سيارتها حقيبة خضروات كبيرة وكأنها تنوى إقامة حفلة إبتهاجاً مصابنا .
واتصل فاسيل بى ليقول : آسف لما حدث لبلدك لكنى متأكد الآن أنكم تشعرون ببعض معاناتنا .

واتصل بى أحمد وأحسست بإخلاص مشاعره وهو يقول : متى يمكننا أن نتبرع بدمائنا؟

ولم يقصد نفسه فقط بل كافة أصدقائه الألبان ، وقال : نريد أن نرسل دماءنا لنيويورك .

وأظن أن أحمد بالإضافة لتعاطفه الصادق كان يدرك بمرارة احتمالية تأثير أحداث الحادى عشر من سبتمبر على علاقة أمريكا بالعالم الإسلامى . ولم أتمكن من التركيز فى عملى ، وحاول سكوت أن يستعيد الإحساس المعتاد لجو العمل فتعود على سؤالى عما إذا كنت قابلت أحمد أو ديمى أو الروسى الذى تعرفت عليه فى إحدى حفلات الكوكتيل منذ بضعة أسابيع ، لكنى لم أهتم بأى من هذا ، ومن ذا الذى يمكنه أن يهتم بعد أن انقلب عالمنا رأساً على عقب ؟

وتملكنى إحساس بأنى منفية وأنى بلا فائدة فى مقدونيا بينما ينبغى أن تتم الأعمال الحقيقية لوكالة الإستخبارات المركزية فى جزء آخر من العالم .

ووقفت فى أحد الأيام المشمسة أمام مبنى السفارة الأمريكية أنظر إلى العلم الأمريكى وذهب عقلى إلى نيويورك وواشنطن ، وفكرت فى أصدقائى وزملائى ، وفكرت فى جيمس الذى تأكدت من سلامته بعد أن أرسلت له بريد الكترونى ضمن سلسلة الرسائل التى أرسلتها بعنوان (من فضلك أخبرنى أنك بخير) . وقال لى فى رسالته : أنا بخير ، وكان من المفترض بى كمصور أن أهرع إلى البنتاجون وألتقط عدد من الصور ، لكنى لسبب ما لم أتمكن من القيام بك .

ووددت لو أن بإمكانى أن أخبر جيمس أنى أنفهم مشاعره ، لكن ما الذى كان بإمكانى فعله وأنا عميلة بوكالة الإستخبارات المركزية ، وأعتقد أن واجبى كان يحتم علي منع مثل هذه الأشياء من الحدوث ؛ لكنى بطريقة ما لم أتمكن من القيام بواجبى . ووقفت أحدى فى العلم الذى أحسست أنه يلوح وهو يشعر بالوحدة وكأنه امرأة تقف على رصيف الميناء تلوح لسفينة تبحر نحو أعالي البحار ، وأحسست ببعض الدوخان من أثر الخمر التى شربت منها بالأمس ثلاث زجاجات مع اميلى ونحن نشعر بالندم والعجز والحزن ، وفوق كل هذا ؛ بالغضب فقد أحسست بغضب لم أحس به من قبل طوال حياتى ، أحسست

بالغضب من الإرهابيين وبالغضب الأكبر من نفسى ومن وكالة
الإستخبارات المركزية كلها.

وتحولت أحاسيس الإحباط عندى إلى تشنج عنيف وفيضان من
الدموع التى لا تتوقف ولففت ذراعى حول جسدى الذى أخذ
يهتز بعنف ، وسألنى حارس السفارة الذى وجدته واقف
بجوارى يحمل فى يده منديل : هل أنت بخير يا سيدتى ؟
لماذا لا تعودين للبيت الآن يا سيدتى ؟

فقلت : أنا بخير . ورفضت أخذ المنديل ومسحت وجهى بيدى .
ولسوء حظى أنت سيدة الإنجيل فى هذه اللحظة إلى مبنى
السفارة . وسيدة الإنجيل هذه هى امرأة مقدونية مجنونة تمامًا
اعتادت أن تأتى أمام مبنى السفارة الأمريكية تحمل الإنجيل
بيدها وتصيح منتقدة السياسة الأمريكية .

وعندما لمحتنى سيدة الإنجيل صاحت فى الجمع الذى تجمهر
حولها وهى تشير إلى : وهذا شئ آخر ؛ انظروا إلى تلك
العاهرة ! وأشارت إلى بالإنجيل وهى تصيح : عاهرة ! عاهرة
! عاهرة ! أمريكية عاهرة ! عاهرة ! عاهرة !

وظلت تترنم بهذا السباب حتى ركبت سيارتى وققتها مبتعدة ثم
انفجرت فى الضحك وظللت أضحك وأضحك وأضحك حتى
عدت للبكاء مرة ثانية ، ووصلت التقاطع الذى تقف فيه إحدى

كشف المستور

فتيات الشوارع تتسول ؛ وكنت أحببت هذه الفتاة لحسها المرهف
فقد كانت تتبأ باقتراب وصول سيارتي ، وبمجرد أن رأنتى أتت
من الجانب الآخر من الطريق بسرعة نحوى ففتحت نافذة
السيارة لأرى وجهها المبتسم المشرق دائماً بالتفاؤل وسألتنى
وهى تحنى رأسها جانباً : كيف حالك ؟
قلت : أنا بخير ، تعرفين أنه حدثت مشكلة بيلدى .
قالت : أعرف . ثم اقتربت منى ومسحت دمعة انحدرت على
خدى وقالت : لا تبكى ، سيكون كل شئ على مايرام .
فشكرت الفتاة المتشردة وأعطيتهما بعض الفكة وأحمر شفاه من
حقيبتى ثم قادت السيارة وأنا أتعجب من هذه الشيطانة الصغيرة .
وقلت لنفسى : سيكون كل شئ على ما يرام ، أصبح الآن لعملى
معنى وأصبح عندى شئ حقيقى أقوم به .

* * * * *

الفصل الحادى عشر

وافق سكوت على طلب الأجازة لحضور حفل زفاف أخى بالولايات المتحدة فأحسست كأنى سجينه تلقت نبأ الإفراج ، وبدأت أرتب لعودتى وأنا فى غاية السعادة وابتعت الهدايا من متاجر الألبانيين وذهبت لصالونات التجميل بسكوبجى ، ولاحظ عملائى وكل من يتصلون بى أنى سأسافر لشهر كامل . وعندما بدأت أحزم مشترواى اكتشفت أن أغلبها ردى وغير ملائم فألقيت بها .

وأدركت الحقيقة المؤلمة التى غابت عن بالى لفترة طويلة ؛ وهى أن كونى جاسوسة وانهماكى لشهور فى قيادة السيارة لإجراء المقابلات مع العملاء ثم الجلوس على المكاتب لكتابة التقارير للقيادة أصابنى بالسمنة وجعلنى سريعة الغضب . وبسبب حاجتى الملحة إلى استعادة قوامى الرشيق فى أسرع وقت قررت التحلى بالشجاعة والذهاب إلى حمام السباحة العام بسكوبجى الذى يشبه مظهره الخارجى أحد مستشفيات الأمراض العقلية المهجورة ، وبمجرد أن دفعت رسوم الدخول قادتى مسؤلة الحمام — التى كانت ترتدى معطف معامل أبيض — بصورة فظة إلى غرفة تغيير ملابس كان بها فى هذه اللحظة

دسته من الشباب المراهقين ، وبمجرد أن رأوني أطلقوا
صيحات لا يمكننى إلا أن أفسرها بأنها كانت استهجانية .
وغيرت ملابسى بسرعة خلف أحد الأبواب ثم قادتنى مسؤلة
الحمام إلى مكان صغير أشبه بالمستودع وبه طين يصل إلى
الكاحل وقالت : هذا ضرورى لمنع انتقال العدوى من الأقدام .
ثم قادتنى مرة أخرى فى ممر مظلم حتى وصلت إلى حمام
سباحة أوليمبى أشبه بحوض كبير لتربية الطحالب ، وكان
السباح الوحيد الموجود بالمكان يرتدى بدلة غطس كاملة .
وارتديت الطاقية والنظارة وغطست وأنا أشجع نفسى بقول :
سيفتخر بى جيمس .

لكنى قلت لنفسى بعد ثوانى: لكن ربما يكون جيمس قد تزوج .
وتذكرت أن صوته عندما حدثته فى الهاتف لم يدل على أنه
تزوج ، وتذكرت قوله لى عندما اتصلت به لأخبره أنى سأعود
فى أجازة لشهر : سأصدق هذا عندما أراك .

وكان صوته ملئ بالمرح والأمل ، وأتذكر قوله : أظن أنه
يمكننا أخيراً أن نذهب لتناول كوب الجعة الذى وعدتيني به منذ
عامين . وظللت لساعات طويلة أحلل حوارنا الهاتفى الذى
استغرق ثلاث دقائق فقط ;

ماذا يعنى بأنه سيصدق هذا عندما يرانى ؟

كشف المستور

هل جعلتني عدم القدرة على العودة للبلاد أبدو في نظره غريبة
الاطوار ؟ متى وعدته بكوب الجعة ؟ أنا لا أنكر أبدًا أى حديث
عن الجعة . هل هذه هى طريقته فى طلب الخروج معى لتناول
كوبًا من الجعة ؟ هل يحتفظ فعلاً بتسلسل أحداث كافة مراسلاتنا
منذ وقت مغادرتى البلاد ؟
وكل ما أعرفه هو أن التفكير فى رؤية جيمس مرة أخرى ملأنى
بإحساس من القلق .

* * * * *

زادت أحداث الحادى عشر من سبتمبر من حماسى ورغبتى فى
أن أكون أكثر كفاءة ، لكن تصرفات الوكالة تسببت فى أن أفقد
إيمانى بها تمامًا ، وأصابت الهجمات جميع من بالقيادة
بالإضطراب لأنه لا يمكن وصف أحداث الحادى عشر من
سبتمبر على أنها أى شئ باستثناء كونها فشل استخباراتى مدوى
، وكان كل من بالوكالة يتساءلون أين الخطأ فى عملنا ؟ وما
الذى يفترض بنا فعله الآن ؟

ولم يعد بإمكانى القدرة على فهم قيمة المعلومات الإستخباراتية
التي نتلقاها من جاسنا البوسنية ، ولا أحمد وشبكة علاقاته
بالألبان المزعجين ، ولا ديمى وتونى وأصدقائهم المتعصبين ،
وأخبرت سكوت وكذلك القيادة أن هذه القضايا يجب إيقاف

كشف المستور

التعامل معها وأنه فى ضوء أحداث الحادى عشر من سبتمبر
ينبغى أن ننهى علاقتنا بالعملاء غير الفعالين — ومن بينهم
عملائى — وأن نركز على إنشاء شبكة من الأهداف المتصلة
بالإرهابيين ، لكن يبدو أن ما قلته — وكذلك الحال مع بقية
زملائى من الضباط الميدانيين — لاقى فى القيادة آذاناً صماء .
وعندما رفضت السفر مرة أخرى للقاء جاسنا التى كنت متأكدة
من أن ليس لديها شئ ذو أهمية لتخبرنا به ؛ قال لى سكوت :
إنها خبرة جيدة لك .

قلت : لكنها بلا فائدة ، ومن أجل ماذا ندفع لها تلاماً من النقود ؟
ولام سكوت القيادة كعادته قائلاً : تريد منك القيادة أن تستمرى
فى هذه العملية .

ولذلك اضطررت إلى استمرار الإتصال بجاسنا وبالعملاء ذو
الدرجة الثانية من الأهمية وكذلك الدرجة الثالثة لأن شخصاً
بالقيادة يرى أن هذا جيد لى !

وتخيلت مشاعر من فقد أحد أحبائه فى هذه الهجمات الإرهابية
لو أنه علم ما نقوم به من مهام عديمة الجدوى ، وشعرت أنه
بالإضافة إلى خداعى نفسى فإنى أخذل كل شخص آخر ، بينما
كانت الوكالة فى هذه الفترة تنظر لى على أنى أحد الضباط
الصغار الواعدين .

كشف المستور

وبينما أنا أسير فى أحد الأيام بشوارع سكوبجى صادفت عدد من الأطفال الصغار يلعبون بمسدسات وبنادق بلاستيكية لعبة " المقدونيين والألبان " تمامًا مثلما اعتدنا أن نلعب كأطفال أمريكيين لعبة " رعاة البقر والهنود الحمر " ، وجرى الأولاد يطلقون النيران التخيلية على بعضهم البعض من خلف السيارات المتوقفة بالطريق فى حماسة جنونية فأدركت فى هذه اللحظة أنى أوقعت نفسى فى لعبه طفولية يستمر الرجال فيها فى لعب أدوار الراشدين .

وتأكدت من أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر ضايقت الوكالة بشدة لأنها عنت أن أحد الأطراف لا يلعب فى إطار قوانين اللعبة لأنه إذا كانت الحرب الباردة قد انتهت وأن تكتيك الجواسيس مقابل الجواسيس لم يعد مجديًا ؛ فلا بد أن هذا هو الإستنتاج الوحيد لتطور الأحداث بهذا الشكل .

لكن وكالة الإستخبارات المركزية كانت ولا تزال تتشكل من رجال فى غاية الإشمئزاز من التوقف عن لعب لعبتهم . وفى أثناء قمة التفانى التى كنت بها قمت بتجنيد — فاتوس — أحد العملاء الذى ظننت أن له علاقات بالإسلاميين المتطرفين بالمنطقة بعد أن تعرفت عليه فى أحد النوادى الليلية فى الجانب الألبانى من نهر فاردار .

كشف المستور

وقال لى فاتوس وهو يرفع صوته لأتمكن من سماعه وسط ضجيج الموسيقى الصاخبة : أعتدت على الخروج مع بعض هؤلاء الشباب .

وكان يعنى بذلك مجموعة من المجاهدين الذين تسللوا إلى كوسوفو أثناء الحرب البوسنية ، والآن هم منهمكون فى نشر الأفكار المعادية للأمريكان بالمنطقة .

وابتهجت عندما قال فاتوس : أنا شخصيًا لا أتفق كثيرًا مع الأمور التى تتعلق بالجهاد .

وعندما نقلت نبأ هذا اللقاء إلى سكوت قال : استمرى فى هذه المهمة ، لكن تأكدى فقط من موافقة القيادة .

فكتبت برقية مطولة إلى القيادة أشرح فيها كيف تعرفت على فاتوس ، ولماذا أرى أنه يمثل عميل محتمل ذو قيمة عالية ، وعلى الرغم من تأكدى من أن هذه البرقية سيتم تجاهلها بصورة روتينية مثل آلاف التقارير التى ترسل يوميًا إلى القيادة ؛ وصفت فاتوس بقول : " له علاقات بالمتطرفين لكنه مستعد للحديث مع أمريكان أمثال الضابط هادلى " .

وقررت فى هذه الأثناء مقابلة فاتوس فى برستينا عاصمة كوسوفو التى ظلت تحت الوصاية الدولية مقسمة بين القطاعات البريطانية والأمريكية والفرنسية والألمانية والإيطالية ويجوب

كل قطاع من هذه القطاعات دوريات تابعة لحلف الناتو يقودها جنود من الدولة التابع لها القطاع ، وكان دور هذه القوات — بالإضافة إلى التجوال المستمر بالمنطقة لمنع تجارة الرقيق الأبيض — هو منع الصرب من قتل الألبان والعكس وإن كان الشكل الثانى هو الذى صار متفشياً فى أواخر التسعينات بعد أن سقط ميلوسوفيتش وانقلبت المائدة على الصرب المقيمين بكوسوفو الذين أصبحوا خائفين من الخروج من منازلهم ولو لشراء الخبز . وبسبب المزايا النسبية القليلة التى تتمتع بها سكوبجى عن برستينا اعتادت القوات التى تؤدى خدمتها بكوسوفو على عبور الحدود إلى مقدونيا وقضاء بعض الأوقات بسكوبجى ، ولذلك تعرضت للإيقاف أكثر من مرة وسئلت عن سبب ذهابى لكوسوفو فقلت أنى أريد أن آخذ بعض الهدايا التذكارية من المنطقة التاريخية الهامة قبل العودة لقضاء عطلة الأعياد بالبلاد ، وعلى الرغم من أنه كان سبب واهى إلا أنى كنت مدركة تماماً أن غطائى بمقدونيا نفسها صار رقيقاً تماماً بعد عامين من التجسس . خرجت من سكوبجى فى آخر النهار متخفية تحت الضباب الكثيف الذى ملأ السماء فى هذا اليوم ، وكان الطريق إلى كوسوفو محاط بالجنود المقدونيين المتشكون بطبيعتهم والخائفون من التعرض لهجوم الألبان الذين قد ينبثق

كشف المستور

عنهم الضباب فجأة فيخرجون كفرسان بلا رؤوس ويعبسون
بتشكك فى السيارات العابرة .

وعندما اقتربى من حدود برستينا تذكرت اشتهاها بالخمول
وأطباق استقبال القنوات الفضائية المتراسة بالشرفات والشوارع
المرصوفة من كلا الجانبين بالقمامة والكلاب الضالة التى
تجوبها. وبمجرد أن وصلت للمدينة أحسست بالإحباط بسبب
القذارة التى تملأ المكان والسيارات الخربة التى تجول الطرقات
والسكان المحليين رثى الهيئة ، وانتهى الطريق الرئيسى بوسط
المدينة بأخدود طينى ركنت به سيارتى .

وبعد السير لبعض الوقت فى الطرق الموحلة وصلت لمتجر
بييتزا يحمل اسم " فجالا " حيث سأقابل فاتوس ، وكان على باب
المتجر أريكة مقلوبة وصفيحة قمامة مملوءة عن آخرها مثل
أغلب الأماكن التى اعتدت أن أقابل عملاى فيها بدول البلقان ،
وكان المتجر نفسه فى دور سفلى بلا نوافذ ويحتاج المرأ لنزول
عدد كبير من درج السلم ليصل إليه .

ووجدت فاتوس ينتظرنى على مائدة لفردين قرب غرفة الطعام ،
وبالقرب منا صالة أخرى ملحقة بالمكان يجرى التجهيز فيها لبدأ
حفل زفاف . واكتشفت أن محل البييتزا هذا يقدم لزبائنه كل شئ
باستثناء البييتزا ، وطلبت من فاتوس أن نذهب معًا لطلب ما

كشف المستور

سنتناوله ، وفعلت هذا لأنى تعودت على هذا التصرف فى مثل هذه المواقف لأعطى الرجل هذا الإحساس البسيط من أنه ذو اليد العليا . وبينما نحن ننتظر وصول طعامنا بدأ رواد حفل الزفاف يتوافدون ، وكان من الواضح أن سجاد مدخل المتجر جديد وبه بعض المواد الزلقة التى تسببت فى سقوط العديد من النساء المسلمات ، ولم يبد فاتوس أدنى اهتمام عندما كانت تتدحرج إحدى النساء المسلمات ساقطة أمامنا وكأنها ثمرة فاكهة سقطت من على الشجرة . وسألت فاتوس مشيرة إلى المجاهدين المحليين قائلة : أعتقد أن بإمكانك إعادة الإتصال ببعض هؤلاء الشباب الذين اعتدت على الخروج معهم ؟

فرجع فاتوس فى مقعده إلى الوراء وقال : أنا لست مهتمًا بأفكارهم . فقلت من أجل الدخول فى صلب الموضوع : لكن نحن مهتمون . وفكرت فى أن سكوت إما سيذهل من هذا الأسلوب أو سيشعر بالفخر .

وضاقت عينا فاتوس وقال : من نحن ؟

قلت : أنا ، أعنى أمريكا ؛ فتعقب حكومتنا للمتطرفين من أولوياتنا القصوى . ففقهه فاتوس ضاحكاً وقال : أنتم لا تفهمون قلت : ماذا تقصد ؟

قال : هؤلاء الأشخاص ليسوا كما تظنون ، من يريد أن يكون واحداً منهم لابد وأن يكون مستعداً للتضحية بأن يشارك في بعض أعمال الجهاد .

قلت : أفهم ذلك تماماً ، ولذلك نحن نحتاج لشخص مثلك ليتعرف على هؤلاء الناس ويبقى عينه عليهم ويخبرنا بما قد يخططون له من الأمور الهامة ، فكر على سبيل المثال في أعداد الأرواح البريئة التي كان بإمكاننا انقاذها لو أننا عرفنا مسبقاً بحدث كـ 11 سبتمبر على سبيل المثال .

فخلل فاتوس شعره بأصابعه وقال : الأمر ليس بهذه البساطة فهناك الكثير من الأشخاص الذين يكرهون أمريكا في هذه الأيام قلت : أعرف ، وهذا أحد الأشياء التي نحاول فهمها.

فوضع فاتوس كوبه على المائدة التي علتها أطباق اللحم المشوى والبطاطس والسلطة ، وقال : سنفكر في هذه الأشياء ، لكن هذا وقت الطعام .

وأنهينا الطعام ، وأثناء عودتي للسيارة قال فاتوس : سأتصل بك قلت : لا تتأخر ، أعتقد أننا لو بقينا على اتصال فسيستحق الأمر عناك . ودقائق خرجت من طرق برستينا الموحلة لكنى لم

أتمكن من التحرك بسبب الضباب الكثيف الذي لم يسمح لى بالرؤية على بعد قدم واحد ، وخفت أن أحيد عن الطريق وأترك

لألقى حتفى بلا محالة ، وفكرت فى الطريقة التى سيقبل بها
إلى أهلى نبأ وفاتى . وتخيلت نفسى أستمع لصوت أمى وهى
تسأل : لماذا كانت تقود سيارتها وحيدة بالليل ؟ وأين كوسوفو
هذه ؟ وتطوع سائق السيارة التى أمامى بأن ترك الأضواء
الخلفية لسيارته تضى وتطفئ باستمرار لتوضح لى معالم
الطريق ، أو ليمنعنى من الإصطدام بمؤخرة سيارته .
لكن لسوء الحظ اختفت هذه السيارة ووجدت نفسى رغماً عنى
أقود السيارات التى تكدست خلفى وبعد دقائق لم أكن متأكدة مما
إذا كانت سيارتى على الطريق أم حادت عنه .
وأحسست بموجة من الارتياح عندما ظهر أمامى فجأة أحد
حراس الحدود الذى أشار لى بالتوقف فأنزلت زجاج النافذة
وناولته جواز سفرى ، وتمنيت لو يخبرنى الحارس أن القيادة
فى هذا الجو فى غاية الخطورة وأن يدعونى للبقاء بعض الوقت
بأحد مكاتب حرس الحدود أمام مدفأة حتى ينكشف الضباب ،
لكن الحارس ألقى نظرة روتينية على جواز سفرى ثم سمح لى
بالعبور فى صمت ، وتبخرت الراحة التى كنت أنتظرها بعد
عبور الحدود إلى مقدونيا عندما تتبعت إلى أن الظواهر الطبيعية
لا تبالى بالحدود الجغرافية فقد كان الضباب فى الجانب
المقدونى من الحدود أسوأ منه عن الجانب الآخر .

وتملكنى إحساس بأننى لن أتمكن من عبور الأميال القليلة المتبقية بأمان ، وتركز ندى فى أنى قضيت الساعات الأخيرة من حياتى أتناول اللحم وأحاول تجنيد أمثال فاتوس ، وانتابنى إحساس مرير بأنى قضيت حياتى كلها دون أن أتمكن من إنجاز أى شئ ، وبمجرد وصولى سكوبجى ذهبت إلى أحد محلات مكدونالدز ولم أتمكن من منع نفسى من التفكير فى هذه الشبورة إلا على أنها إشارة . وتكررت تعجلى فى تجنيد فاتوس خلال لقاء واحد دون أخذ الوقت الكافى أو حبك تمثيلية " الصداقة " قبل تجنيده ، وكنت أريد أن أنسى خطوات التجنيد الواجب اتباعها أثناء تطور العلاقة ، وكل ما أردته هو الدخول فى صلب الموضوع ، وأعتقد أن مشاعرى فى هذه اللحظة لم تختلف عن مشاعر أى من الضباط الميدانيين الآخرين الذين تملكتم مشاعر الإحباط وعدم الإحساس بجذوى ما يقومون به ، وعلى الرغم من أنى لم أكن أعرف أى شئ عن فاتوس إلا أنه بدا لى كمنارة لكن لماذا انتهى اجتماعنا الأول بهذه الشبورة الغير متوقعة ؟ ! وبينما أنا أقود سيارتى بشوارع سكوبجى للوصول إلى المنزل الذى أعيش فيه أحسست كأنى ذبابة تغوص فى إناء حساء ، وأردت أن أصعد فوق الأرض إلى أعلى وأعلى حتى أذهب فوق تلك الشبورة التى بدت وكأنها لن تتجلى .

* * * * *

أرسلت برقية للقيادة أنكر فيها تفاصيل ما تم مع فاتوس فجاءنى رد القيادة يمنعنى من محاولة تجنيده ، وجاء فى نص الرسالة التى وردتنى من القيادة ما يلى : " تؤكد معلوماتنا احتمالية أن تكون للهدف علاقات سابقة بالخلايا الإرهابية ، ولذلك ننصح الضابط هادلى بالتوقف والإمتناع عن إجراء أى اتصالات مستقبلية بالهدف . "وقلت لسكوت فى اليوم الذى وصلتتى فيه هذه الرسالة : هذه سخافة فهو قبل كل شئ أخبرنى بعلاقاته بالإرهابيين ثم كيف سيمكننا أن نكتشف أى شئ إذا تجنبنا الأشخاص الذين لهم علاقة بالتتظيمات الإرهابية ؟ ! قال سكوت : هذا غير منطقى بالنسبة لى أيضا ، لكن لا يمكنك الإستمرار فى هذا دون دعم القيادة ولذلك فقد قمت بواجبك . واكتشفت بعد ذلك مدى يأسى وعدم رغبتى فى الإستمرار لبقية حياتى فى التعثر فى ردهات الوكالة وفى الأزقة الخلفية بالمدن النائية كفارة فى متاهة .

* * * * *

لم أكن وحدى الشغوفة لإثبات أنى أقوم بدورى فى الحرب ضد الإرهاب ؛ ففى مارس 2002 قام وزير الداخلية المقدونى

لجوبى بوسكوفسكى — الذى كان يعيش بقصر برتقالى بالقرب من منزلى — بدعوتى لشرب الشاى معه ، وأخبرت سكوت بمنتهى الفخر أن الشرطة المقدونية هاجمت خلية إرهابية وقتلت سبعة أفراد تابعين لتنظيم القاعدة ، وطبقاً لما قاله بوسكوفسكى ؛ فإن هذه المجموعة الإرهابية كانت تخطط لمهاجمة سفارات ودبلوماسيين بمقدونيا . ووجد سكوت — الذى يعلم تماماً أن بوسكوفسكى أخرق — هذه القصة غير منطقية ، وكان رأى السفير الأمريكى مشابهاً . واكتشفنا بعد عامين أن بوسكوفسكى هرب بمعاونة خمسة من رجاله ستة باكستانيين وهندي من بلغاريا إلى مقدونيا بعد وعدهم بأنهم سيذهبون للغرب ، ثم أسكنوهم بمقدونيا لبعض الوقت قبل أن يطلقوا عليهم النيران فيردوهم قتلى ليظهروا للأمريكان أن مقدونيا تشاركهم فى الحرب على الإرهاب . وعندما ووجه بوسكوفسكى بهذه التهم أنكرها فى البداية بشدة ثم أخبر المراسلين الصحفيين بعد ذلك بأن هذا تم بناءً على معلومات تلقاها من بعض ضباط وكالة الإستخبارات المركزية ، وكان هذا الإدعاء معقولاً بالنسبة لأى أحد باستثناء أمثالى ممن يعملون داخل الوكالة .

* * * * *

ذهبت قبل مغادرتى مقدونيا بيومين إلى أحد صالونات التجميل التى تحتل الطابق السادس بالكامل فى أحد مبانى وسط البلد ، وعندما تجولت بالمكان اندهشت لكمية النشاط والحركة الدائبة فى الغرف الصغيرة التى ملأت هذا المكان ، وتعجبت من النساء المقدونيات اللاتى ينفقن ببذخ للإعتناء بمظهرهن الخارجى على الرغم من شكواهم الدائمة من عدم امتلاك قدر كافى من المال لشراء الخبز ، وعندما سألتنى المسؤولة عن المكان عن الزينة التى أطلبها بعد أن قدمت لى قائمة طويلة بأنواع التسريجات والخدمات الأخرى التى تقدم بالمكان مثل إزالة الشعر الزائد وغيرها قررت الإكتفاء بتزيين أظافرى .

وجلست على أحد المقاعد وتركت العاملة تزين لى أصابع يداى ومعهما مساعدتان منهنمكتان فى تزيين أصابع قدمائى ، واستمرت هذه العملية لقراءة الساعتين غفوت خلالهما واكتشفت عندما استيقظت أنهم وضعوا على أظافرى الطبيعية أخرى صناعية طويلة مصبوغة باللون القرنفلى وعليها رسومات لقلوب صغيرة وبعد أن عدت إلى الولايات المتحدة وحاولت نزع هذه الأظافر الصناعية اكتشفت أنها مثبتة بالأظافر الطبيعية بإحكام شديد بحيث يستحيل إزالتها دون إزالة الأظافر الطبيعية .

كشف المستور

وعندما قابلت جيمس أخيراً لاحتسأء الجعة شعرت ببعض
السخافة بسبب مظهر أصابعى الذى جعلنى أشبه بزوجة أحد
رجال العصابات .

* * * * *

ذهبت مع جيمس إلى مطعم مكسيكى وتناولنا بعض المشروبات
وحاولت ألا أطلب طعاماً كثيراً لئلا ألفت نظر جيمس لمظهر
طلاء أظافرى السخيف ، وعندما مددت يدى لألتقط قطعة كعك
لمح جيمس أظافرى فقال : يالها من أظافر جميلة !
ومضت الليلة بين الضحك والحديث ورؤوسنا تتمايل نحو
بعضها وكأننا فى سباحة ، وزاد إحساسى بالأمل والرغبة ،
وكان من الواضح أن صديقة جيمس لم يعد لها الآن أى وجود
فى حياته ، واكتشفت أن لقاءنا هذا هو بالفعل موعد غرامى .
وبمجرد أن خرجنا من المطعم قال جيمس : أنا مجبر على أن
أعترف لك بأنى كنت أتحرق شوقاً لعودتك مرة ثانية .
وعندما انحنى جيمس على ليقبلنى غرست أظافرى فى فخذى
لأتأكد من أن هذا حقيقى ، وبعد أن انتهى من تقبيلى أفلت منى
لسانى وقلت : أليس بمنزلك بعض الصور التى ترغب فى أن
ترينى إياها ؟

خرجت مع جيمس فى الشهر التالى فى مواعيد غرامية متوالية وتبادلنا المكالمات الهاتفية والرسائل عبر البريد الإلكتروني طوال الليل ، وأحسست أن شيئاً جديداً خاص وغير متوقع يحدث بحياتى . واعتدت الجلوس بشقة جيمس أقلب فى أكوام الصور التى التقطتها حول العالم وأنا أتذكر المقولة القديمة التى تقول : " الكاميرا لا تكذب " ، وأحسست بصدق أعماله وأمدتني صورته بالهدوء وأعادت لى أحاسيس الماضى عندما كان أبى يحكى لى قصص قبل النوم وأنا طفلة صغيرة ومنظر أمى عندما كانت تدخل علي بالبسكويت وشراب الزنجبيل وأنا مريضة . وكانت الصور التى التقطها جيمس من ذلك النوع الذى يقتنص البهجة من وسط البؤس ، والثراء من وسط الفقر ، والسلام من بين برائن الحرب ، والضوء من وسط الظلمة . وجلست أتأمل هذه الصور لساعات كصورة الهندية النحيلة وهى تحقق بخجل إلى عدسته ، وصورة الطفلين اللذان يسيران جنباً إلى جنب متشابكي الأيادى وسط طريق قروى مترب ، وصورة فتاة متشردة تلهو على أرجوحة وقدها تنطلق بحرية نحو السماء المعتمة . واكتشفت أن جيمس جاب العالم مثلى لكنه لمس حياة الناس بطريقة مختلفة عنى تماماً ؛ فبينما كنت أتجول العالم لأسرق خصوصيات الآخرين كان هو فى رحلات من نوع آخر

كشف المستور

تَعطى أكثر مما تأخذ . وعندما أخبرنى بإعجابه بطريقتى فى الكتابة وطريقتى الخاصة فى النظر إلى العالم ؛ تساءلت عما سيقوله إذا علم أنى جاسوسة ، واكتشفت أنى كتبت له — مثلما كتبت للآخرين — الشئ الوحيد الذى كان بإمكانى كتابته ؛ وهو اللمحات البسيطة الآمنة التى ظهرت فى حياتى كحصوات صغيرة على الشاطئ الكبير من الأكاذيب التى صارت حياتى . وبمرور الوقت مع جيمس زاد حبى له ، وبدأت أعود مرة ثانية للضحك بصوت عالى ، وألقيت تلميحات لطريقة حياتى التى لم أعد سعيدة بها لدرجة أنى أخبرته — حقاً — أنى لم أعد فخورة بكونى أمريكية ، وأن ما أحب فعله حقاً هو الكتابة . وأحسست فى كل مرة أقابل فيها جيمس أنى ثعبان ينزع فى كل مرة إحدى طبقات جلده .

* * * * *

جلست مع جيمس فى أحد المطاعم الهندية ونحن نمسك قوائم الطعام وأنا لا أقدر على رفع عينائى من عليه لأقرأ القائمة ؛ لذلك تركته يختار لى طعامى وابتسامته تعدى النادلة والنادل والخادم الذى أتى ليصب لنا الماء ، ونظر لى جيمس وقال : أريد أن أتى لزيارتك بمقدونيا .

كشف المستور

وكان ينبغي علي أن أنهى زيارتي في غضون أيام قليلة ، فقلت : نعم ، ينبغي أن تزورنى .

قال : سأفعل .

قلت : متى ؟ فضحك وقال : بأسرع ما يمكن .

وفكرت فى العودة إلى مقدونيا والعملاء الذين ينبغي علي التعامل معهم ، وتذكرت رحلتى بالدراجة إلى جبل فوندو ، والآن أمدنى لقاء جيمس بذكريات جميلة يمكننى استعادتها أثناء سباحتى بحمام سباحة سكوبجى القذر لأنسى ما به من أقدار وأتذكر الذكريات الإنسانية البحتة التى ليس لها علاقة بعمل محتمل أو شخص اتصال أو جاسوس مجند فسيكون جيمس بالنسبة لى شخص يتوجب علي الإهتمام به ليس كضابط ميدانى أو متعاملة مع العملاء ولكن كإنسانة ؛ كامرأة ؛ كنفسى .

وقال جيمس وهو يأخذ رشفة طويلة من كوب الجعه ويتمعن فى ملامح وجهى : لم تكلمى لى من قبل الحديث عن طبيعة عمك فضحكت وأنا أرى فى عينه العاطفة والدعابة والتفهم ، وقبل كل هذا ؛ الثقة . وأمسكت بيده وقلت له : أتعرف يا جيمس ؟ لم أبدأ أبداً فى إخبارك بطبيعة عملى . ومن هنا بدأت كشف المستور ببطأ .

* * * * *

الخاتمة

تزوجت بجيمس كيجلى فى 21 سبتمبر 2003 فى فيينا ؛ أى بعد أربعة أشهر من استقالتي الرسمية من وكالة الإستخبارات المركزية . واكتشفت أن ترك الوكالة فى نفس مستوى صعوبة الإلتحاق بها بدءًا من أسرتى التى كان قلقها عندما فكرت فى ترك الوكالة ليس بأقل منه عندما فكرت فى الإلتحاق بها ، وظلت أُمى دائمًا تردد لى القول : ماذا عن تأمينك الصحى ؟ ولم يعترض أخى على فكرة تركى الوكالة ، لكنى أحسست أنه خاب أمله فى ، وكنا على وشك الدخول فى الحرب واستقل أخى المقاتلة الأمريكية كيتى هاوك فى طريقه إلى العراق .

ورغبت فى ترك الوكالة لأكثر من سبب ، ولم يكن أقل هذه الأسباب هو اقتناعى بأن غزو العراق هو أحد أكبر الطرق الفاشلة التى يمكن للبلاد أن تسلكها ، وبدأت لى الحرب على العراق ودور وكالة الإستخبارات المركزية فى تبرير الحرب بأدلة ملفقة أمر مخجل تمامًا بغض النظر عن أننا لم نحرز حتى هذه اللحظة أى تقدم فى الوصول إلى أسامة بن لادن بالإضافة إلى الجهود الضئيلة جدًا التى بذلت لكشف مرتكبى أحداث 11

سبتمبر .ومن سخرية القدر أنى عينت فى بداية عام 2003
بقسم الشرق الأدنى للمساعدة فى التعجيل بغزو العراق ، وأثناء
قيامى ببعض الأعمال المتعلقة بغزو العراق قابلت امرأة تسترت
على أسلحة برنامج الدمار الشامل العراقى لعقد من الزمان ،
واعترفت لى صراحةً أن وكالة الإستخبارات المركزية لا تعرف
على وجه التحديد ما يمتلكه صدام حسين من أسلحة الدمار
الشامل ، ولا أى شئ آخر يؤكد تهديد العراق لأمن الولايات
المتحدة .وعندما سألت أحد محلى الوكالة عن سبب الربط بين
تنظيم القاعدة والعراق ؛ نظر لى فى خجل وهز كتفيه وقال :
فى اسم كل منهما حرف القاف .وأخبرتتى إحدى زميلاتى التى
كانت تعمل فى هذا الوقت فى القسم المختص بالعراق أن
رئيسها جمعها مع كافة أعضاء المكتب وقال لهم : دعونا نواجه
الحقيقة ؛الرئيس يريد أن يشن حرب على العراق ووظيفتنا هى
إعطائه المبررات الكافية .وارتعبت عندما عرفت هذه
المعلومات ، وقررت فى هذه اللحظة الخروج من هذه اللعبة .
وعلمت فى هذه الأثناء من خلال الرسائل المتبادلة أن سالى
العاصفة كانت فى الشرق الأوسط تحوم حول العراقيين فى كل
حذب وصوب ، ونالت من القيادة الكثير من المديح على
مجهوداتها بالرغم من أنها لم تتجح فى تجنيد أى منهم .

واندهشت عندما قابلت بمطعم الوكالة جين سوك التى لم أكن رأيتها منذ ثلاث سنوات ، وجلست جين سوك مستقيمة وكأنها تحمل على رأسها كوب شاي تخشى أن ينسكب وهى تتحدث عن رغبتها فى أن تكون مع طلائع الفرق التى ستدخل بغداد . وكان ايثنان أيضا فى طريقه لبغداد بعد أن تمكن بطريقة ما من منع أطباء الوكالة من اكتشاف المرض الخطير الذى أصابه ، وتمكنت ايثنان الرغبه الملحة فى الذهاب إلى العراق — مثل الضباط الميدانيين الآخرين الذين يرسلون إلى هناك يوميا — ليتمكن من جنى ثلث من الأموال تحت بنود بدل الأخطار وبدل الوقت الإضافى وقال لى مازحا : " اغتتمى الفرصة " ، ولم أكن متفقة مع ايثنان فى طريقة نظرتة للحرب ، لكنه كان واحد من القلائل الذين سافقتهم كثيرا . وتلقيت أكبر طعنة أخلاقية عندما أرسلت لى رسالة بالبريد الإلكتروني تدعونى لحضور " حفل تكريم ذوى الأداء العالى " بسبب دعمى لعملية تحرير العراق ، ولم أذهب أبدا لهذا الحفل ، وقررت أن الجائزة التى ستمنح لى بالحفل شئ يمكننى أن أعيش بدونه .

وطوال الشهور التى تلت تقديمى استقالتي ؛ زاد إحساسى يوما بعد آخر بأن وكالة الاستخبارات المركزية أشبه بسفينة تبحر دون أن يمسك أحد بدفتها ، وذهبت ذات يوم إلى جورج تينت

كشف المستور

بصالة الألعاب الرياضية بالوكالة فلمحت الرجل الذى كان من قبل بهى الطلعة واثق من نفسه وقد أصبح مترهل الجسد وسريع الغضب ، ونظر لنفسه فى المراة بأسى وهو يناضل من أجل إتمام أحد المهام البغيضة .

* * * * *

بعيدًا عن قلق عائلتى وعدم تأكدهم من طبيعة مستقبلى المهنى ، كان هناك عائق آخر ؛ وهو أنى بمنتهى البساطة لم أكن أعرف لمن أذهب لأقدم استقالتى ، وكان من المفترض أن رئيسى المباشر هو رئيس عمليات العراق وهو رجل بيروقراطى مراوغ ولديه العديد من المشاغل المهمة التى ينبغى عليه الإهتمام بها أكثر من هواجسى الشخصية المتعلقة بالعمل ، وتساءلت فى نفسى عما إذا كان بإمكانى أن أقول له بمنتهى البساطة : " أنا مستقيلة " ، وأخرج وأنا أغلق الباب خلفى فى هدوء ! لكنى كنت متأكدة من أنى يجب أن أعود أولاً لرؤسائى بقسم إقليم وسط الأورو آسيوى الذين ذكرت نفسى أكثر من مرة أنى أنتمى إليهم . وفى النهاية ذهبت لمكتب الأمن وبعد التعرض لجهاز كشف الكذب مرتين ، قالت لى الخبيرة التى كانت تفحصنى — ولم يكن عمرها يزيد عن الثانية والعشرين — : أعيدى النظر فى قرارك.

فقلت لها : لقد قمت بالفعل بإعادة النظر فى طبيعة عملى قبل أن أصل إلى هذا القرار .

قالت : سادون هذا بملفك فهذه المعلومة هامة .

قلت : دونيها من فضلك .

* * * * *

بعد أن استقلت ناولنى موظف مكتب الأمن مذكرة لأكتب فيها كل ما يتعلق بجيمس وتفاصيل حياته ووالديه ، وكانت هذه هى القشة التى قصمت ظهر البعير فقلت : لن أملأ هذه الإستمارة . وتركت موظف الأمن الذى كان مسترخياً فى مقعده ويستخدم مظروف مكتوب عليه سرى للغاية لإزالة الطعام العالق بين أسنانه . وأسرعت فى ممرات الوكالة حتى وصلت قسم إقليم وسط الأورو آسيوى فدخلت مكتب إيرين نائبة رئيس القسم التى لم أكن اجتمعت بها من قبل إلا مرة واحدة على الرغم من رؤيتى المتكررة لها وقلت : أنا مستقيلة ، أنا تاركة الوكالة .

فسحبت إيرين مقعدها الدوار نحو أحد أجهزة الكمبيوتر وضغطت بسرعة على لوحة المفاتيح وهى تنتظر للشاشة بتمعن ، وتوقعت التعرض لإرهاب أمنى أو القبض على ، وبعد فترة من الصمت المرعب انتهت إيرين من فحص البيانات التى كانت

كشف المستور

على شاشة الكمبيوتر ثم التفتت لى أخيراً وقالت : سنناقش هذا مع الرئيس فى الأسبوع القادم .

قلت : ليس هناك ما يناقش ، لقد اتخذت قرارى .
وأظن أن إيرين أحست فى هذه اللحظة — مثلى تماماً — أنه ليس بيدها ما تفعله .

وقالت : ربما تجدين صعوبة فى بدأ حياتك بالخارج فالوكالة هى أسرتك الآن . فمنعت نفسى من الضحك وتخيلت الوكالة أشبه بعصابة وقلت لها : لم تكن الوكالة أبداً أسرتى يا إيرين ، أنا مشتاقه لأسرتى الحقيقية .

فتتهدت إيرين وقالت : أظن أنه ليس بيدنا ما نفعله .
قلت : حقاً ، لا يوجد شئ يمكن أن تفعلوه لى .
وقامت إيرين وقمت وتصافحنا وقالت : ستكون هناك بعض الأوراق التى ينبغى عليك ملأها قبل الإنصراف .
وكننت على يقين من هذا لكنى خرجت مسرعة من مكتبها ، —
وكما حذرني بل أثناء التدريب — كنت محترسة وأنا أشق
طريقى خارج الوكالة من أن يضرب الباب الدوار مؤخرتى .
وكان هذا اليوم عاصفاً ، وغطت السحب السوداء السماء فوق
الوكالة لكنى لمحت الشمس مشرقة من بعيد .

كشف المستور

والآن بإمكانى أن أسافر خارج البلاد دون الحصول على إذن
أحد وبدون اسم مستعار أو مهمة ، فلن أكون تحت غطاء .
ولن أكون أيضاً وحيدة فقد اشترى جيمس تذاكر السفر للهند
حيث سنقضى شهر العسل .

* * * * *

كلمة الغلاف

يمكن أن تصفنى بالبلاهة ، لكنى عندما كنت طفلة أشاهد أفلام
جيمس بوند وهارى الجاسوس كانت كل أمنيتى فى الحياة أن
أكبر لأصبح جاسوسة ، وخلافاً لكل الأطفال ؛ لم أفقد هذا
الإحساس عندما كبرت ، ولذلك أرسلت لوكالة الإستخبارات
المركزية CIA طلب الإلتحاق بها بعد أن أصبحت خريجة
جامعية مثالية .

كان الإلتحاق بالوكالة قصة فى حد ذاتها فقد طُلب منى أن أتبول
بعدد من الأكواب أكثر مما يمكنك أن تتخيل ، واتهمت من قبل
المحلل النفسى بالإنحراف الجنسى ، وخافت زميلتى فى السكن
بشدة من الرجل الذى يتجول بالحي للتحرى عنى .

وأخيرًا ؛ بدأت تدريباتي لأصبح ضابط ميداني بوكالة
الإستخبارات المركزية CIA ، وعلموني اختراق العوائق أثناء
القيادة بسرعة ستين ميل في الساعة ، والقفز من الطائرة وأنا
أحمل معدات مثبتة على جسدی ، واكتشاف المراقبة ، والسفر
تحت اسم مستعار ، ولم يعلمونا شيئًا واحدًا ؛ وهو كيف نواعد
رجالاً ونحن نكذب عليه طوال الوقت فيما يتعلق بطبيعة عملنا ،
وكان هذا ما توجب علي معرفته بنفسی .

ثم أرسلت في مهامی خارج البلاد ، وهنا بدأ المرح الحقيقي

.....

* * * * *

تعليقات الصحافة والنقاد
على الكتاب

" ليس مجرد كتاب لطيف وأخاذ ، لكنه أيضًا تهمة فظيعة توجه
لوكالة الإستخبارات المركزية CIA "

Milwaukee Journal Sentinel

* * * * *

أمين فى الوصف بصورة مذهلة ... رائع واحد من أهم الكتب
التي رسمت صورة واقعية حديثة للحياة اليومية بوكالة
الإستخبارات المركزية CIA .

Sa
Today

* * * * *

"محايد بصورة غير عادية .. ويعكس التجربة الشخصية بقوة .
"جريدة الواشنطن بوست

* * * * *

"يتخوف المحافظون من بيروقراطية الحكومة ، ويتخوف
الليبراليون من أجهزة الإستخبارات ، على الرغم من أن الإثنان
اتفقا على انجاب طفل غير شرعى هو وكالة الإستخبارات
المركزية CIA ، ويقلق كتاب ليندسى موران أى شخص بأكثر
الطرق إمتاعًا وتشويقًا ومرحًا فهذا الكتاب أكبر من " سرى
للغاية " إنه حقيقة .

وليندسى ليست جاسوسة سابقة فحسب بل هى أيضًا حاملة
تستخرج الرومانسية من أعماق عالم الجاسوسية وتوضح بعض
القصور اللازم علاجه بوكالة الإستخبارات المركزية CIA .

P. J O Rouke

* * * * *

" قرأنا جميعًا من قبل عن حماقات الحروب ، والآن نشكر موران
على كتابها الدقيق الرائع الذى كشف لنا حماقات العالم الحقيقى
للجاسوسية الأمريكية ، فلم تصف ليندسى فى كتابها تفجيرها هى
وزملاءها القنابل والسيارات فحسب ؛ بل فجرت الأسطورة أيضًا

كشف المستور

فلم يكن من وصفتهم فى الكتاب من زملائها أشبه بجيمس بوند -
كما اعتدنا أن نتخيل عالم الجاسوسية - بل كانوا حمقى ، وبلهاء
وبكائين وبينهم أيضًا نبلاء . "

Davied Schickler

* * * * *

" تسقط ليندسى موران فى هذا الكتاب عباءتها لتكشف لنا لأول
مرة طبيعة حياة الضابط الميدانى بوكالة الإستخبارات المركزية ،
وتلتزم بالذكاء والصراحة وعمق الرؤية أثناء سردها لتفاصيل
التدريبات السرية التى تلقتها بـ " المزرعة " والمهام التى كلفت
بها خارج البلاد ؛ لتبين لنا أن الحياة الحقيقية لجواسيس وكالة
الإستخبارات الأمريكية أمر مختلف تمامًا عن الصورة التى
تعرضها أفلام هوليوود . "

مؤلف

روايات جيمس بوند الأكثر مبيعًا

* * * * *